أ.أ جاريبيشيف

INSTITUTE OF ORIENTAL STUDIES
ИНСТИТУТ ВОСТОКОВЕДЕНИЯ РАН
200 Year عام
Institute of Orientalism
معهد الإستشراق
1818-2018

100 عام ناصر

ناصر

دار نشر
أنباء روسيا
Russian News
www.russiannewsar.com

الناشر
أنباء روسيا
Russia News
www.russiannewsar.com
رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير
د. حسين الشافعى

secertary_ert@yahoo.com
المراسلات
114 ش جوزيف تيتو - برج رقم (2)
الدور الثالث - النزهة الجديدة - القاهرة -
جمهورية مصر العربية.
Tel. & Fax: +(202) 219 271 57 & 58

مراجعة / أحمد بهاء الدين الشافعي

الإخراج الفني/ أحمد عثمان

ترجمة : د. سلوى أبو سعدة - أحمد شرف

تحرير / محمود ياسين

الطباعة
دار الطباعة المتميزة
مدينة العبور – القاهرة
Tel. & Fax: +(202) 4478 96 44 & 46

الطبعة الأولى 1977 - دار الثقافة الجديدة
الطبعة الثانية 2018 - دار نشر أنباء روسيا

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر.
لا يحق إعادة طبع أو نسخ محتويات هذا الكتاب
إلكترونياً أو ضوئياً دونما إذن كتابي من الناشر.

رقم الإيداع
4312 / 1977

ترجمة لكتاب
ناصر
تأليف أ.أ. جاريبشيف

Перевод по книге
«Насер»,
А.А. Горищева

بالتعاون مع

المؤسسة المصرية الروسية
للثقافة و العلوم
Египетско-российский
Фонд культуры и наук
www.a-rfcs.org

أ.أ. جاريشيف

ناصر

دار نشر

أنباء روسيا
Russia News
russiannewsar.com

www.russiannewsar.com

يستهدف هذا الكتاب التعريف بشخصية عبد الناصر المتعددة الجوانب باعتباره زعيمًا سياسيًا ورجل دولة، ولكن في بداية الحديث عن حياته لا نجد غير كلماته هو ذاته – التي وجهها لصحفي سوفيتي سنة ١٩٦٢ – كشاهد على أهمية هذا البحث: لقد قال:

إننا نريد أن نقترب أكثر وأكثر من الاتحاد السوفيتي. في هذا يكمن سر نجاح النمو التقدمي في بلدنا. إننا نفهم جيدًا، أنه بدون مساعدة الاتحاد السوفيتي للجمهورية العربية المتحدة لن نستطيع حل أي مشكلة من مشاكلنا المعقدة سواء على الصعيد الاقتصادي أو على الصعيد السياسي ...

لقد كان ناصر صديقًا للاتحاد السوفيتي، ولهذا فمن الأهمية بمكان فهم كل ما وراء أي تحرك لهذه الشخصية السياسية الفذة. وذلك من خلال استعراض سيرته الشخصية.

تميز القرن العشرين بالتقدم الضخم في المجالات الاجتماعية والسياسية. وكان من أصداء الثورة الروسية امتداد حركة التحرير الشعبي، حيث انتهت بسقوط الإمبراطورية العثمانية. ولقد تجاوبت الأحداث في مصر مع ذلك باعتبارها إحدى الولايات التركية آنذاك، وتحولت إلى محمية بريطانية في سنة ١٩١٤، ولكن جاءت ثورة ١٩١٩ فحركت المجتمع المصري بأسره.

ولقد كان السلطان أحمد فؤاد على رأس النظام المصري آنذاك، حيث

كان يستريح في الصيف على شاطيء المنتزه بالإسكندرية، وينعم بشذى أدغال الأرز المحيطة به. وفي الشتاء كان السلطان أحمد فؤاد يعيش في القاهرة بقصر القبة خلف أسوار حجرية عالية، أو في قصر عابدين ذي الأسوار الحديدية المحصنة حيث يقع على مسافة غير بعيدة من المعسكرات الإنجليزية، ويقوم بحراسته مجموعة من الحراس الفارعين الذين يختالون في بزاتهم الحمراء. وإذا أراد التجوال فهناك "الكاريته الحمراء"، أو "الرولزرويس الحمراء" تحت أمره. وإذا خرج للصلاة يوم الجمعة وذهب إلى المسجد امتد البساط الأحمر تحت قدميه ليسير أمام الناس. أما الورود الحمراء فقد اعتبرت الورود العائلية للأسرة المالكة في مصر.

ولكن هذه الزهور الحمراء بعينها أتت باللعنة على أحمد فؤاد شخصيًا، وذلك حينما اندلعت المظاهرات الصاخبة في شوارع القاهرة والإسكندرية تلوح بالأعلام الحمراء خلال ثورة ١٩١٩.

لقد اطلع الشعب المصري وشاهد تورتة عيد جلوس الملك تزينها طبقة من الكريم الوردي تعلوها، وتحتها طبقة خفيفة من المهلبية، وفي نهايتها من أسفل طبقة من البسكويت المحلي بالكارميلا الزرقاء.

إننا إذا أخذنا بزيهم نجد السلطان والحاشية التي تتكون من الباشاوات والبكوات يرفلون في طرابيشهم الحمراء، ويؤكدون أنهم بذلك يحتلون قمة المجتمع المصري. أما الغالبية العظمى من الشعب المصري فهم الفلاحون الذين يرتدون الجلاليب الواسعة. وبين هاتين الفئتين من السكان تقع طبقة غير محددة المعالم من الموظفين الذين يتميزون بارتداء الملابس الأوربية.

لقد كان الباشا والبيه يعتبران حسب ما جرت عليه العادة من سلالة نبيلة، أما باقي المصريين فيعتبرون من أصل فلاحي.

وحتى الحرب العالمية الأولى كان يعمل الأوربيون وخاصة الإنجليز والفرنسيون في المشاريع والمؤسسات الحكومية، ولم يشغل المصريون المواقع الوظيفية إلا في وقت الحرب فقط. وفي خلال هذه السنوات نمت البورجوازية الوطنية المصرية وتحصنت. وتكونت في البلاد لجنة تمكنت من إنشاء بنك

وطني، وبدأت مصر الدخول إلى طريق النمو الرأسمالي.

إن كل هذا الذي كان يجري في البلاد انعكس اجتماعيًا على أسرة جمال عبد الناصر.

لقد أتي والد جمال عبد الناصر من بين صفوف الفلاحين، ولكنه استطاع أن ينال قسطًا من التعليم سمح له بأن ينتظم في صفوف المصريين حديثي العهد بالوظائف. أما والدة جمال عبد الناصر فكانت ابنة تاجر ينحدر هو الآخر من الفلاحين. وهكذا كانت أسرة جمال عبد الناصر تمثل اتحادًا بين عنصرين أحدهما مستخدم حكومي والآخر يمثل البورجوازية الصغيرة.

وإذا نظرنا إلى جمال عبد الناصر من جهة أبيه نجده من بين عائلة مكافحة. لقد كانت عملية اغتصاب أراضي الفلاحين بصعيد مصر تجري بمعدلات سريعة، وكان جزء من هؤلاء الفلاحين يهاجرون إلى المدينة. أما هذا الذي يبقي في الريف فإن الظروف الصعبة تثقله. وهناك جزء آخر ينشط في البحث عن طريق جديد. لقد أدركوا أهمية إرسال بنيهم إلى المدارس، حيث أن هذه الطريقة الوحيدة للهروب من الفقر. وإذا نظرنا إلى قرية بني مر نجد أنها ومنذ عام ١٨٩٠ قد شهدت قيام بعض العائلات بخدمات ومشاريع تطوعية، حيث فتحوا بها كتاتيب يتعلم فيه الأطفال تحت رعاية "مولانا" الكتابة وقراءة القرآن. ولقد كان من المبادرين بهذا العمل جد والد جمال عبد الناصر وهو خليل سلطان. وبعد ذلك أصبح ابنه الحاج حسين أبًا وقرر أن ينال ولده عبد الناصر قسطًا من العلم المعاصر.

وحينما بلغ الفتي خمسة عشر عامًا أرسله أبوه الحاج حسين إلى أسيوط وألحقه بإحدى المدارس المسيحية هناك. ومع أن المبشرين كانوا يخشون تأثير ذلك وسط السكان، إلا أنهم لم يستطيعوا رفض طلب رجل ذي قيمة في الريف كالحاج حسين رغم أن ولده يعتبر مسلمًا.

لم يكن من السهل على فلاح مصري فقير أن يحمل عبء ستة أطفال، ومع ذلك استطاع عبد الناصر أن يتحمل العيش نصف جائع ويتحمل الغربة عن مسقط رأسه وأنهى مدرسته. إن هذا كان يعني تحقيق أحلام الحاج حسين

في ابنه كاملة. عند ذلك التحق عبد الناصر بالخدمة في إحدى الوظائف البريدية بمرتب شهري قدره ثمانية جنيهات مصرية. وهكذا ورغم أن الحاج حسين شخصيًا ظل طوال حياته يرتدي الجلباب الفضفاض ويمشي وراء المحراث، وجد ابنًا له هو عبد الناصر يرتدي البدلة الرمادية وسيظل كذلك.

وفي الإسكندرية حيث تسلم عبد الناصر عمله. كان يعيش هناك مجموعة كبيرة من الصعايدة القادمين من صعيد مصر. لقد كان هؤلاء القوم يتميزون بحبهم الشديد لأعمالهم وبالتمسك بالشرف، كما أنهم يتميزون بحدة المزاج وصرامة الخلق. هذا بالإضافة إلى أن هؤلاء الصعايدة النازحين إلى المدن الكبيرة كانوا يعيشون بالكاد. ذلك أنهم بحكم وجودهم كأبناء ريف ألفوا عيش وعمل الريف ومن الصعب عليهم الانتقال مرة واحدة إلى حياة المدينة، ولهذا كانت ألفتهم تتم خطوة بخطوة. لقد كانت الضرورة تحتم عليه ألا يعرف غير الصعايدة، فقد كانوا دائمًا على أتم استعداد لمعاونة بعضهم البعض كما تقضي تقاليدهم الراسخة. وكان الصعايدة يجتمعون كل يوم بعد الغذاء في إحدى المقاهي حيث يسترجون ويتبادلون الأخبار. إن عادتهم تلك ما زالت باقية هكذا حتى اليوم.

لقد درج سكان القاهرة والإسكندرية على الاستهزاء بهؤلاء "الصعايدة" الوافدين إلى مدنهم ويطلقون عليهم دائمًا النكات، ومما يقولوه أن هؤلاء الصعايدة المنتشرين لا يصدهم غير البحر. ولم ينظروا أو يقدروا حبهم للعمل وطاقاتهم الفنية، بالقياس إلى ابن البلد. بل ظلوا في نظرهم هؤلاء السذج الطيبين. أن إحدى النكات تصور كيف استطاع أحد القاهريين الماكرين أن يبيع الترام للصعيدي القادم من بلدته وهو مملوك أصلًا للدولة.

اشتغل عبد الناصر كوكيل لبوستة محطة سكة حديد سيدي بشر في الإسكندرية، ووطد علاقاته ببني بلدته وعاش عيشة نمطية لابن الصعيد المقيم بمدينة كبيرة. وقد تزوج عبد الناصر من فهيمة بنت محمد حماد في سنة ١٩١٧. ومحمد حماد هذا صعيدي وفد إلى الإسكندرية من مصر العليا، واستطاع بسرعة أن يبرز بين الناس ويشغل بينهم دورًا مسئولًا.

وفي ١٥ يناير ١٩١٨ استقبلت عائلة عبد الناصر مولودًا أسموه "جمال"، وفي الحال أرسل والده خطابًا مستعجلًا يبشر فيه باستقباله مولوده الأول. وقام كاتب قرية بني مر بتسجيل المولود في سجلات مواليد القرية.

تقع قرية بني مر على بُعد أربعة كيلو مترات من مدينة أسيوط، هذه المدينة التي لعبت في زمانها دورًا هامًا في تاريخ البلاد كلها. ولا يرجع ذلك لكونها مجرد مدينة تقع في بقعة ريفية غنية ولا لمجرد كونها طريقًا للقوافل بين مصر العليا والسفلي وحسب ، ولكن لأن فرعون مصر إخناتون أنشأ عاصمته قرب أسيوط الحالية منذ حوالي أربعة آلاف سنة وجعلها عاصمة لمصر الموحدة . فمنذ ذلك التاريخ تعتبر أسيوط رمزًا لوحدة البلاد.

لم يخطيء كاتب القرية حينما سجل جمال على مواليد بني مر، ولم يتجاوز الحقيقة بذلك فجمال يستطيع أن يُسَمَى بني مر ببلدته ووطنه الأول، ففيها ولد أبوه وفيها عاش جده حتى نهاية أيامه وفيها توجد المقابر التي تضم رفات كل أسلافه وأجداده.

حينما بلغ جمال الثالثة من عمره انتقل أبيه عبد الناصر للعمل في أسيوط وهكذا حان الوقت كي يري الحاج حسين حفيده وأن يري بقية أعمامه ابن شقيقه، وهكذا نزل الطفل جمال إلى بني مر ليلعب تحت أشجار النخيل – تحت رعاية جده – مع أطفال القرية . يلعبون و يجرون في الحقول حيث وُلد الحاج حسين. وحينما بلغ جمال الرابعة من عمره أرسلوه إلى المدرسة الأولية بأسيوط ودخل فصلًا تحضيريًا استطاع أن يتلقى فيه ألف باء اللغة العربية.

وفي ١٩٢٣ انتقل عبد الناصر مرة أخرى إلى قرية صغيرة اسمها الخطاطبة تبعد حوالي ٣٦ كيلو مترًا شمال شرقي القاهرة ، وتقع حاليًا بالقرب من منطقة جديدة اسمها مديرية التحرير وتحولت إلى مدينة صغيرة. لقد كانت الخطاطبة في العشرينات مجرد قرية صغيرة تقع على الحدود الصحراوية لوادي النيل. وفي مدرسة الخطاطبة التي أنشئت أساسًا لأبناء موظفي السكة الحديدية كان يشترط قبل أي شئ حفظ الطفل للقرآن من بدايته حتى

نهايتـه وكانوا يبدأون في حفظه بالسـور القصـيرة. إن هذا لم يكن التعليم الذي يريده عبد الناصر لولده.

وخلال سنة واحدة كان عم جمال – خليل – الذي تلقى تعليمه بمساعدة أخيه عبد الناصر يقيم بالقاهرة. وهكذا حان الوقت بالنسبة لخليل كي يرد جميل أخيه الأكبر عليه. وفي إحدى الأمسيات الحارة من أيام سبتمبر سنة ١٩٢٥ كان شقيق عبد الناصر يقطع رصيف محطة القاهرة جيئة وذهابًا في انتظار القطار الذي سيصل بابن أخيه. هذا الولد الذي يعتبره أديباً ابنه هو. كان خليل قد قضى أحسن سنوات شبابه خلف أسوار السجن لمشاركته بثورة ١٩١٩. ولم يستطع تكوين عائلة ولم يكن بالتالي لديه أولاد. وللحقيقة فقد ربى طفلًا لرفيق له استشهد في أحداث ثورة ١٩١٩. وهكذا انضم جمال منذ ذلك التاريخ ليعيش مع عمه سويًا مع ابنه بالتبني محمود.

لقد سافر جمال البالغ من العمر ثمانية أعوام وحده من الخطاطبة إلى القاهرة بالقطار. وخرج مع عمه من مبنى المحطة ليستقلا حنطورًا إلى منزلهما.

كان خليل يعيش في وسط القاهرة القديمة. لقد سارا من المحطة على طريق ترابي أمام حائط حصين يبدو نصف مهدم. وأخذ العم يقص على ابن أخيه بإفاضة عن صلاح الدين هذا الزعيم الذي أسقط حكومة مصر الممقوتة. ولم يستحوذ لنفسه على ممتلكات الأغنياء ولكنه وجههما لتدعيم الدفاع عن المدينة ضد الصليبيين. لقد كان خليل يعرف التاريخ جيدًا. ولكن ابن أخيه لم يكن في ذلك الوقت يدرك أن عمه يمد جسرًا بين الماضي والحاضر.

وعلى الفور سأل الفتى ومتى كان أغنياء مصر وملوكها يهتمون بالشعب؟ لقد كان العم يدرك ما تكبده جمال من عناء السفر، وانتظر أن يتناول عشاءه وطلب منه أن يستريح ولكن الفتى لم يوافق على ذلك إلا بعد أن وعده عمه بأن يأخذه معه في المساء إلى جولة بالحي.

وخلال يومين أنتسب جمال إلى مدرسة "النحاسين" التي تسمى باسم الشارع الذي تقع فيه . إن هذا الشارع يضم ورشًا لصناعة الحلى الذهبية والفضية وصناعة الأشياء الثمينة، ويعيش فيه الصاغة، والنجارون، والسمكرية، والمبيضون، والحدادون . وفي الأزقة الضيقة المترية كانت واجهات المحال تتلألأ بالمصوغات. وهناك كان الحواة ينتشرون بثعابينهم وحَياتهم ويظهرون كل حيلهم. وفي أيام الأعياد الشعبية كان الدراويش يذكرون أمام جامع الحسين وفي الميدان المطل عليه.

لقد كان عم جمال يعمل بضع ساعات يوميًا يكون فيها الفتى الصغير مسئولًا عن نفسه. ولهذا غالبًا ما كان يخرج مع محمود ليتجولا بالشوارع، ويتناولا غذائهما في المطاعم الشعبية الرخيصة، ويقضيا الوقت الطويل في الاستماع إلى أحاديث الشيوخ.

وذات مرة شاهد الصبيان عربة عسكرية إنجليزية تظهر فجأة وتجري بأقصى سرعة وهي تدور بأحد المنحنيات وتحدث ضوضاءًا وارتباكًا بين المارة في الشارع مما جعلهم يتفادونها مذعورون، ومرقت السيارة من أمامهما على القنطرة مخلفة وراءها سحابة من الدخان والتراب. تبين الصبيان من خلالها فتاة ترقد على الأرض مخضبة في دمائها، عند ذلك هرع الصبيان إلى عمهما وجعلا يقصان عليه ما رأياه وهو يستمع إليهما في صمت، وبعد تفكير أخذ يقص عليهما: إن هذا سوف يستمر طالما بقى الوضع هكذا إلى أن يظهر ذلك الشخص الذي يطرد الإنجليز ويصحح هذا الأمر .

وفي نفس هذا المساء جلس العم خليل يحكي للفتى ويقول: هكذا كان الحال بالنسبة لوالد محمود، وكيف أنهما كانا مشتركين في المظاهرات سويًا وفي النهاية كيف سقط والد محمود برصاصة إنجليزية.

هنا فاض الدمع من عيني الصبي، وبعد ذلك أغمض عينيه وراح يفكر وكأنه يدخل مع فرسان صلاح الدين وهم عائدون من خلال بوابة القاهرة شامخة رءوسهم بالنصر والشعب يهلل فرحًا، ثم يحلم بأنه يرى مصر خالية من

أي إنجليزي، ويتخيل المدرس وقد وقف مستبشـرا في المدرسـة يهنئهم ويتخيله كذلك وهو يضع له أعلى التقديرات في شهادته المدرسية.

وفي المدرسـة الـتي كان يـدرس بهـا جمـال كان هناك مدرسـون غلاظاً يضربـون التلاميـذ ولهـذا كان يسـود التوتـر، وكثيرًا مـا تثور المشـاغبات والمشـادات بين التلاميذ، وقد اسـتوجبت هذه الأمور ا نخراط بعض التلاميذ في تكوين شرطة مدرسـية تتولى فض مثل هذه المنازعات. ورغم ذلك فقد كان جمـال يميـل إلى العزلة والصمـت، وكان دائمًا يبدو للغير زميـلاً ثقيلًا غير ودود ، وللأسف فإن أحدًا ممن عرف جمال في هذه المرحلة لم يترك أي مذكرات تلقي مزيدًا من الأضواء على هذه الفترة من حياته.

إن بعض كُتّاب السـير الغربيين صوروا جمال عبـد الناصر حينما كان طفـلاً بأنه كان محبطاً على المسـتوى النفسـي وميالًا إلى الوسـاوس والوهم. إنهـم بذلك يعبرون عن حقدهم وعدائهم الشـخصي تجاه قائـد حركة التحرر الوطني العربية، على سبيل المثال قد حاولوا رد الإصلاحات التقدمية التي أجراها عبـد الناصر وكذلك الـدور الذي لعبه في الثورة إلى أنه كان بمثابة شـئ من التنفيـس عـن الكبت الذي لاقـاه في الطفولة، وهـذا في رأيهم حـال كل من يفعـل هـذا فهو تعـس ولا يملك طفولة سـعيدة. إن عدم موضوعيـة مثل هذه الاسـتنتاجات تتضـح إذا رجعنا إلى القاهـرة القديمة حيـث يمكن كل يوم رؤيـة جمال يتجول في حواريهـا الضيقة حيث عرف هنـاك أولًا كيف يعيش غالبية الناس.

لقـد كان علـى جمـال أن يتعلم في المدرسـة اللغة العربيـة ومبادئ علم الحسـاب على يد مـدرس يعتبر صديقًـا قديمًا لوالده، هو محمـد جمعة. حيث تعارفا سويًا في الإسكندرية.

في هـذه الفترة كما يتذكـر جمعة ويقول: لم يكن لـديَّ حتى غطاء للـرأس ولقـد دعانـي عبد الناصـر لأعيش في ضيافته وعشـت في بيته شـهرًا كامـلًا وكأنني أحـد أفراد الأسـرة. بعد ذلك جـاءت زوجتي الـتي أحبت عائلة

عبد الناصر، إن هؤلاء أناس كانت تربطنا بهم صداقة قوية. وقد كنت مثالًا للتمسك بالأخلاق الأزهرية. ولهذا كان عبد الناصر حريصًا على أن يعلم ولده اللغة العربية والحساب. ولم يكن جمال مثل بقية الأطفال الأخرين. ففي إحدى المرات كنا في ضيافة أحد موظفي وزارة المعارف الذي وعد بأن يعطي عشرين قرشًا للتلميذ الذي يستطيع أن يجيب بطريقة صحيحة على سؤال سيسأله:

"نفترض أننا كنا نسير في الصحراء وضللنا الطريق، وكان لابد أن نعرف الاتجاه بواسطة بوصلة وأن علينا أن ندفع عشرين قرشًا لكل اتجاه نعرفه من الاتجاهات الأربعة فكم قرشًا يجب أن ندفع إذن؟"

أجاب الأطفال: ثمانون قرشًا.

ولكن جمال أجاب وحده: عشرون قرشًا فقط.

وسأل الموظف: لماذا؟

فأجاب جمال: لأنه إذا عرفنا أحد الاتجاهات فإنه يمكن تحديد الاتجاهات الأخرى دون أن ندفع نقودًا.

وعادة ما كان الكبار يجدون جمال مستغرقًا في التفكير وكثير السرحان على الأكل وأثناء المذاكرة. وأحيانًا ما كان جمال الصغير يضع الرجال الكبار في مأزق بأسئلته.

لقد سأل مرة أباه: إننا لا نرعى الغنم ومع ذلك نأكل لحمها، فلماذا الراعي نفسه يأكل الفول؟ ولكن عبد الناصر لم يستطع إلا أن يقول: هذه سُنَّة الكون يا ولدي. ولكن الصبي ذا السبع سنوات لم يقبل ولم يقتنع بهذا الرد. ومع ذلك ظل هذا الفتى يوجه المزيد من الأسئلة لأبيه ورغم هذا فلم ينهر الوالد ولده، مجاريًا بذلك عادات "أهالي الصعيد" الذين كانوا يعاملون الأطفال وكأنهم رجال يافعون. وعادة ما كان جمال يسافر في الإجازات أو في الأعياد

إلى منـزل والـده في الخطاطبـة حيـث كان متعلقًا جـدًا بوالدتـه التي كانت دائمـة الكتابـة له حيـث كان خطابها يـؤنسـه في وحدته، كمـا أن جمال كان حريصًـا علـى إرضاء أمه ما وجـد إلى ذلك سـبيلًا، ولكنها كفت عن الكتابة فجأة منذ أبريل سنة ١٩٢٦. وهنا تلقي جمال خطابًا من والده يقول له فيه إن والدته أصبحت مثقلة بأعباء المنزل وأنها مشـغولة بالإشراف على أخويه الصغيرين "عزالعرب، والليثي". وعلاوة على ذلك أخبره والده بأن أمه قد ذهبت إلى الإسـكندرية لزيارة أقاربها.

وعندمـا عاد جمال إلى الخطاطبة لقضاء الأجازة الصيفية علم بأن أمه قد ماتت في الإسـكندرية عندما ذهبت إليها للعـلاج إثر المرض الذي ألم بها عقب الولادة.

لقد صرح جمال عبد الناصر ذاته بعد ذلك في إحدى المقابلات معه بأن موت أمه يعتبر "ضربة موجعة ألمت به ولم ينمح أثرها عنه".

عندئـذٍ طلـب جمـال من أبيـه أن يسـمح له بالسـفر لزيـارة والـد أمه في الإسـكندرية، ذلك لأن الفتى كان يعرف أن أمه تسعد دائمًا حينما تكون في بيتهـم. ووافق عبد الناصر بل ورحب بذلك لأنه رأى في تلك الزيارة عاملًا قد يهدئ من روع ولده.

لقـد كان بيـت الجـد في الإسـكندرية مـن البيـوت التي ينطبـق عليها حينـذاك الأوصـاف الـتي تتضمنها الكلمة الفرنسـية "بيوت محترمـة". فلقد كان مثـالًا للنظافـة والنظام، لقد ذهب جده إلى المحطة ليسـتقبل حفيده في عربـة "أتوموبيـل". لقـد كان جمال من سـنة واحـدة فقط هنـا في منزل جده سـعيدًا بالعيش فيه ومعجبًـا به أيما إعجاب حيث كان مـع والدته في ضيافة جده، وكان يلعب ويلهو مع خالتيه، ولكن في هذه المرة فإن الولد يُشاهد على غـير عادتـه، دائم الملل. لقـد كان في القاهرة حرًا، أما الآن فـإن جدته تلاحقه كظله. إذا أراد أن يأكل وضعت له من الأكل ما يفوق طاقته وشهيته وتلح عليـه، وإذا أراد أن يخرج للتمشـية صحبته إلى وسـط المدينة وجلسـت به في

إحدى المقاهي المملة، وإذا ألقي بسؤال فلا أحد يستطيع الإجابة عليه. ولقد كان مغرمًا بأن يذهب إلى الميناء ليرى السفن وكيف تُفرغ حمولتها، وأن يرى البحارة في ثيابهم البيضاء التي تشبه فستان ابنة خاله المحلى بالدانتيل ولكنه كان عندما يطلب ذلك يردون عليه بأن هناك زحمة وقذارة.

لقد سعى والدا أمه لكي يستبقياه عندهما وفعلًا قاما بكتابة خطاب لوالده في هذا الشأن قائلين: "بأن المدارس في الإسكندرية لن تكون أقل من المدارس في القاهرة" ولكن جمال نفسه أراد العودة إلى الخطاطبة مفضلًا إياها وعاقدًا الأمل على القاهرة التي يحبها حيث هناك عمه خليل الذي ينتظر أن يلقاه لكي يوجه إليه بعض الأسئلة التي يدخرها. وقبل بداية السنة الدراسية عاد إلى والده في الخطاطبة.

وانتهت مرحلة الطفولة بالنسبة لجمال سريعًا. فبعد معرفته بموت أمه رآه والده ذات مرة يحفر حفرة ليست بعيدة عن المنزل، فنهره والده ونهاه عن هذا العمل. ولكن جمال عاود الحفر بعدما انصرف والده، وعندما عاد وجد الحفرة بدت أكثر عمقًا فسأله – ماذا ستفعل بعد ذلك؟ ـ وأجاب الفتى أريد أن أعرف ما الذي يقع تحت هذه الأرض التي يسير عليها الناس. لقد حاولت السلطات المصرية آنذاك – ما استطاعت إلى ذلك سبيلًا – أن تقوم بتشتيت موظفيها وتغيير أماكنهم دومًا كي لا تعطيهم الفرصة لتوطيد علاقاتهم. وبالرغم من أن عبد الناصر كان موظفًا صغيرًا بالبريد فإنه لم ينج من هذا. بل لقد تحول فعلًا إلى ما يشبه المرتحل دومًا وعلى مدى حياته.

فبعد الخطاطبة انتقل إلى السويس وفي هذه الأثناء تزوج مرة ثانية. لقد ساعد ذلك أن يبتعد جمال عن الأسرة إلى حد ما، فهو مازال يعيش ويدرس بالقاهرة. وحالًا ظهر له أخ جديد هو "شوقي" وأخذ عدد إخوته يتزايد إلى أن أصبحوا سبعة إخوة. وكان جمال لا يذهب إلى العائلة إلا في الأجازة الصيفية فقط، ولكن الوالد أصبح أيضًا أكثر انغلاقًا حيث اشترى لنفسه بندقية وأخذ يكرس كل وقت فراغه لرغباته، حتى إن كل العائلة لم تكن مشوقة لعودته إلى المنزل ما عدا جمال وحده المنغمس في تفكيره دائمًا،

والذي لا يُلاحظه أحدٌ . وأخذت أمرأة أبيه تلومه وتؤنبه على عدم تصديه لوالده وتصحيح مساره، وهكذا بدأت تسود العائلة علاقات متوترة.

ولكن جمال بدأ يشعر بمدى ظلم هذا اللوم. إنه يحب أباه ولقد كتب فيما بعد أن عبد الناصر كان محبًا لعائلته. وفجأة رحل عمه خليل عن القاهرة ولم تكن في السويس مدارس صالحة لجمال. ولقد قرر والده أن ينقله إلى حلوان في المدرسة الداخلية، ولكن لم يطل المقام بجمال في مدرسة حلوان حيث بدأ والده عبد الناصر يفكر في إرساله إلى الإسكندرية. وهكذا أصبح جمال يعيش مع جدته في الإسكندرية حيث التحق بمدرسة رأس التين الثانوية التي تقع على مسافة قصيرة من قصر الملك الصيفي.

إن الإسكندرية بما فيها من أحواض لبناء السفن، وأسواق مالية وتجارية للقطن كانت تعتبر مركز مصر التجاري الذي يضم صناعة النسيج في ذلك الوقت. وكانت المدينة تصيب كل قادم عليها بالضوضاء والهموم. وكان وكان الأوربيون يعيشون في قلب المدينة أساسًا من الناحية الشرقية منها في أجمل بقاع منطقة الشرق الأوسط، حيث كان يوجد قصر المنتزه الملكي. وفي غربها كان يوجد الفنار البحري القديم قرب قصر آخر للملك. وفي الجنوب توجد أحياء العرب الفقراء. هذه هي الإسكندرية كما رآها جمال.

لقد كانت الإسكندرية تعتبر مقصدا للقاهريين الذين يملكون القدرة المالية ليقضون فيها وقت المصيف مستمتعين بحياة البحر هناك، مما كان يدفع بسكان الإسكندرية القادرين على الهجرة من مدينتهم في هذا الموسم هروبًا من الضوضاء، حيث يذهبون إلى شاطيء مرسى مطروح الذي يتمتع بالهدوء وجمال البحر بصورة أكثر. هنا تعلم جمال السباحة حيث كانت جدته تسمح له بالذهاب إلى "البلاج" حيث يشتد التيار البحري المتجه نحو الشاطئ. وفي مرسى مطروح كان جمال مطلق الحرية بصورة كاملة. وفي إحدى المرات بعد أن تعلم العوم بطريقة ليست سيئة ذهب إلى البلاج وكان يومًا يعتبر من أكثر أيام السنة التي يبدو فيها البحر هائجًا حيث تصطخب الأمواج حتى في الخليج، ولم يستطع جمال مقاومة رغبته في

النزول إلى البحر، واستهوته فكرة النضال ضد الموج العاتي وكسر عنفوانه، ثم أغلق عينيه لتفادي ضوء الشمس المبهر ولكنه لاحظ أنه لا يوجد حوله أي سابح، ورويدًا رويدًا وجد الجو حوله مطبقًا بالصمت، صمت البحر حيث لا يسمع غير هدير الأمواج وصفير الرياح، والتفت جمال حينما كان على قمة موجة إلى الشاطئ فوجد نفسه بعيدًا عنه.

هكذا أدرك جمال أنه لا أمل له في العودة إذا ألم به الذعر. حقًا إن العوم إلى الشاطئ صعب للغاية ولكنه جمع كل إرادته على هدف واحد هو العوم، وفعلًا بدأ العوم . لا أحد يسمع صياحه ولم يره أحد يطل من الماء. ووصل أصدقاؤه على الرمل وأخذوا ينادونه. وبطريقة صبيانية أخذت الجماعة تمرح، ولاحظ جمال ما يحدث فأدار رأسه عنهم وخلال بضع دقائق من العوم كان بينهم.

حينما عادت الأسرة إلى الإسكندرية من مرسى مطروح سمحوا له بالعوم في الشواطئ المحلية، فجدته الآن أصبحت آمنه على صغيرها المحبوب وهكذا أضحى سباحًا ماهرًا . وفي إحدى الأمسيات، خرج جمال للتمشية على الشاطئ فوجد جمعًا غفيرًا من الناس يتجهون إلى ميدان محمد على. وأراد أن يعرف ماذا يجري فذهب هو الآخر إلى الميدان حيث وجد شخصًا يخطب من شرفة البورصة وحينما تحقق فيه جمال وجد فيه أحد الطلاب الذين يعرفهم جيدًا، ولم يستطع جمال أن يدرك كلمات الخطيب لكنه فهم أنها مظاهرة مضادة للإنجليز.

وبدأ تحرك المظاهرة وبعد قليل سمع جمال صفير عربات البوليس، وفي هذه اللحظة كان البوليس يُمسك به ويلقي به في عربة مقفلة حيث قادوه إلى مكان الحجز.

لقد أفاق جمال من هذا الأمر لينظر حوله حيث وجد جمعًا من الشباب هو بالتأكيد أصغرهم سنًا، وسأل جاره من الذي نظم هذه المظاهرة؟ فنظر هذا الشخص إلى جمال حيث لاحظ بريق عينيه وأجابه: بأن المتظاهرين أعضاء في "مصر الفتاة" ولم يعرف جمال أي حزب يكون هذا.

وفي هـذا اليوم أفتقد عبد الناصر ولده جمال على الغداء وفي العشـاء، وهو أمـر لم يحدث قط ، كما أن جمال يبلغ دائمًا عـن تأخره إذا ذهب إلى الأصدقاء أو تأخر في المدرسـة للعمل. ولهـذا قلق عبد الناصر للغايـة وبدأ يتصل بكل الجيران والمعارف يسأل عن نجله، ثم أخذ يطلب البوليس بالتليفون ومع ذلك لم يسـتطع أن يجد ضالته هنا أو هناك. فقط وفي صبيحة اليوم التالي اكتشف إسـم ولده بين المقبوض عليهم في المظاهرات. وفهم عبد الناصر ماذا جرى وشـعر بالغم الشـديد وقد أصابه. أهو يُعَلِّمُ ولده من أجل هذا. كي يعمل بالسياسـة وهـو في هذه السـن الصغـيرة، لابد أن هـذا من تأثـير أخيه خليـل. هكذا أخذ يفكر عبد الناصر وهو يتجه إلى البوليس.

لقد كانت سـجون مصر مكتظة بمن فيها. لهـذا وجد عبد الناصر أن في ذلـك ما يعظه لكي يصحح تربيـة ابنه، وحينما ذهب أمر المأمـور بإخراج ابنه علـى اعتبار أنه ما زال صغـيرًا. وكانت التقاليد تفـرض عليه "كصعيدي" ألا يعاقـب ولده جهـارًا، ولهذا كتم غيظـه حتى أصبحا منفرديـن وهنا أصبح الحديث غير سـهل إلى أن قرر عبد الناصر أن جمال يجب ألا يذهب إلى المدرسـة عقابًـا له حيث تنعـدم فرصته في لقاء الأصدقاء المريبين، وأن دراسـته يجب أن تستمر في القاهرة.

ولم يعتـذر جمال كمـا لم يعترض ولكنه فهم أنه يجـب أن يتعمق في التاريخ كي يعرف شـيئا عن هذا الحزب "مصر الفتـاة" الذي قابل أعضاءه في المظاهرات ليعرف ما الذي دفعهم لهذا؟ إذن في القاهرة... وليكن في القاهرة...

ولكن في القاهرة لن يسـتطيع جمـال أن يفعل ما عقد عليه العزم فلقد قرر والده في نهاية الأمر أن يضع عينه عليه حيث نقله إلى مدرسـة محمد فريد وهناك لن تسـتمر دراسـته وحيدًا، فسـريعًا ما ينتقل الوالد للعمـل بالقاهرة. وهكذا اضطر جمال إلى تغيير مدرسته مرة أخرى، وأصبح عبد الناصر يعمل بمكتـب بريد باب الشـعرية بالموسـكي حيـث توجد منطقـة تركز ضخم بورش الحرفيين والأسواق الشـرقية، واستأجر الوالد شقة مكونة من أربع غرف بالـدور الثانـي، وأصبح يتقاضـى ١٢ جنيها شـهريًا. وبعد دفع الإيجار للشـقة كان الباقي قليلًا على التغذية خاصة في أسرة كهذه تعتبر كثيرة العدد.

والتحق جمال بمدرسة النهضة وظل يدرس بها حتى سن الثامنة عشرة. في هذه الفترة برز اهتمام جمال بالسياسة. وأصبحت أحب مادة دراسية له في المدرسة هي التاريخ، وازداد شغفه بالقراءة والمعرفة، وخطوة خطوة بدأ يقرأ الكتب. فقد قرأ كتابًا عن حياة نابليون، وآخر عن الإسكندر المقدوني، ويوليوس قيصر، وغاندي، وروسو، وفولتير. وبدأ جمال يزيد من اطلاعه فقرأ رواية فيكتور هوجو "البؤساء"، وقصة مدينتين «لتشارلز ديكنز» . وكتب جمال في مجلة مدرسية مقالًا تحت عنوان "فولتير رجل الحرية" أبدي فيها إعجابه الشديد بفولتير، وكتب يقول: "إن فولتير وروسو قد قاما بالتحضير للثورة الفرنسية عام ١٧٨٩".

وكان المنهج الدراسي يحتوى على مقتطفات من الأدب الأوروبي وبالطبع فإن الشباب يهتمون مبدئيًا بإنتاج الكُتَّاب العرب. لقد أحب جمال وحفظ شعر أحمد شوقي وحافظ إبراهيم، وقرأ كتابات توفيق الحكيم ورواياته، الذي ظل كاتبه المحبوب طول عمره. ولقد كان جمال حينما يقرأ يمسك بقلم رصاص في يده حيث بخطط في الكتاب على كل ما يثيره. ففي قصة "عودة الروح" لاحظ هذا المكان الذي يتكلم فيه عن "أنه من الضروري أن يأتي ذلك الوقت لدى المصريين الذي يظهر فيه من بينهم قائد يستطيع أن يقود الشعب ويدفع به للكفاح من أجل الحرية والبعث الوطني".

إن فكرته عن البطل الشعبي جذبت جمال ولقد كتب فيما بعد في كتابه "فلسفة الثورة" يقول: "إنني لا أعرف لماذا يبدو لي دائمًا أن بلادنا تبحث عن ذلك البطل الذي يلعب دوره الوطني".

وفي نهاية قصة هذا الكاتب المصري نجده يصف الموقف في بيت قاهري، يأتي الطبيب لزيارته فيجد في حجرة واحدة خمسة أسرَّة مرصوصة بجوار بعضها.

ما هذا؟ معسكر؟ ". يريد الطبيب أن يعرف ما الذي دفع هؤلاء الناس للعيش بهذه الكيفية".

إحنا كده كويسين؟ يسمع إحدى الإجابات عليه. المنبعثة بصوت صريح. ويرى كيف أن هذه الوجوه الشاحبة تفيض بالبشر لمجرد أن الخمسة مرضى سويًا، ويتبعون نظامًا واحدًا، ويأخذون جميعهم دواءًا واحدًا، وأن قدرهم واحد. إن هؤلاء السكان الذين يعيشون في حجرة أسوأ من حجرات المعسكرات يحسون أنفسهم شعباً .

هنا يعيش بطل الرواية – الطالب محسن – إن سماته وقدره يذكران بجمال الصبي، ناصر الشاب، الذي يحب أن يكون متعاطفًا مع محسن ومع نمو أفكاره الوطنية التي يجب أن تجعل من روحه ومنه بناءًا أكثر ثباتًا ورسوخًا من الهرم.

وفي هذا الوقت كان الوعي المضاد للإنجليز يزداد انتشارًا، ففي يونيو ١٩٣٤ جرت في القاهرة معركة حقيقية بين البوليس والعمال، وقام الشعب كله بالإضراب احتجاجًا على ظلم وجور البوليس. وحينئذٍ عقد حزب الوفد(١) مؤتمر وطني طالب فيه بالإصلاحات الديمقراطية. وتستر الملك خلف الإنجليز الذين أجابوا بالرفض. فانفجر كل الشعب المصري بالغضب.

وفي هذه الأثناء اختير جمال في وفد الطلبة والتلاميذ الذي سيطوف ببيوت كل المشاهير والشخصيات المعروفة في البلاد للإهابة بهم ومناشدتهم الاشتراك في المظاهرات. وفي نوفمبر ١٩٣٥ بدأت في البلاد موجة جديدة من الاضرابات والمظاهرات.

وعندما حل الخريف في ذلك العام جاءت الأمطار مبكرة عن مواعيدها، واشتدت برودة الجو وزادت المياه بالنيل واشتد فيضانه. وفي أحد الأيام الخريفية اجتمع في فناء مدرسة النهضة الطلبة والمدرسون والتهب الحماس واشتد الحديث، فقام جمال وخطب ودعا إلى ضرورة الخروج للتظاهر. وحاول المدرسون في البداية إدخال الطلبة إلى فصولهم ولكن كلمات جمال التي وجهها كانت قريبة من الجميع مما دعا المدرسون إلى الإسراع بتأييد موقف الطلبة. وفُتحت بوابة المدرسة حيث خرج الجمع الغفير بالصياح والهتاف.

لقد اقترح جمال أن تسير المظاهرة عبر النيل من فوق الكوبري وأن تلتحم بطلبة الجامعة المشتركين في المظاهرات. وعرف كذلك أنهم سيكونون بمثابة الوفود المرسلة التي ستراها المدارس الأخرى فتخرج بدورها في نطاق المظاهرة. ولكن البوليس لم يكن غافلًا حيث قام بفتح الكوبري في وقت مبكر وذلك بهدف جعل الرجوع لا يتم إلا بواسطة السفن الشراعية النهرية. ولكن الشرطة عملت على منع الرجوع، فانهال المتظاهرون عليهم قذفًا بالحجارة في وقت كانت فيه القوات الإنجليزية تساعد قوات البوليس، وانطلق عيار ناري وعلى أثره سقط أحد التلاميذ مخضبًا في دمائه. وقام رجال الشرطة بتطويق المتظاهرين والقبض على الكثير منهم. وهنا انبعث صوت قوي حيث صاح ناصر: إلى "بيت الأمة" واتجه كل المتظاهرين صوب هدف واحد، واستطاع جمال مع بعض رفاقه السير بعيدًا وتفادي البوليس.

إن البيت الذي كان يعيش فيه الزعيم الثوري سعد زغلول كان معروفًا لدى الجميع ببيت الأمة. لقد قاد هذا الزعيم أكبر حركة جماهيرية سياسية في مصر بعد سنوات الحرب العالمية الأولي، لقد كان على المصريين معاونة القوات الإنجليزية في الحرب مقابل أن تمنح بريطانيا الاستقلال الكامل لمصر. ولكن حينما انتهت الحرب ولم تف بريطانيا بوعدها، تَكَونَ وفد بعثة المصريون إلى مؤتمر باريس الذي كان منعقدًا بين الأطراف المنتصرة في الحرب لتقسيم العالم فيما بينهم. وكان على رأس هذا الوفد تلك الشخصية القادمة من متوسطي الفلاحين: سعد زغلول. ومنذ ذلك التاريخ ظلت كلمة «الوفد» – تسمية لأكبر حزب سياسي مصري. قام بتأليفه رفاق سعد زغلول حيث تم القبض عليه ونفيه إلى جزيرة مالطة. مما مهد لاندلاع ثورة ١٩١٩ في البلاد.

وفى النهاية وإزاء ذلك قامت بريطانيا وبصورة شكلية بإسقاط الحماية عن مصر واستبدلتها "بالاستقلال"، وغدًا السلطان أحمد فؤاد أول ملك على البلاد. وفي نفس الوقت احتفظت بريطانيا بسيطرتها على الجيش والبوليس لتأمين مصالحها في البلاد. كما استمر إذعان الملك لإدارة الإنجليز.

ومات سعد زغلول في سنة ١٩٢٧ ووجد الملك والإنجليز أنفسهم مضطرين لاستدعاء الوفد لتكوين حكومة وفدية برياسة زعيم الوفد في ذلك الوقت النحاس باشا. ولكن هذه الحكومة لم تمكث طويلًا حتى سقطت. ذلك أن المندوب السامي البريطاني لم يرتح إلى ما أجرته هذه الحكومة من إصلاحات. ولكن ما لبث النحاس باشا أن أصبح رئيسًا للوزراء مرة أخرى وذلك في يناير ١٩٣٠ حيث طالب في المفاوضات الدائرة مع بريطانيا بالدعوة إلى خروج القوات البريطانية من مصر. وتوقفت المفاوضات وقام الملك فؤاد بتولية مقاليد الأمور لأحد الأشخاص الأقوياء وهو المليونير إسماعيل صدقي باشا الذي اشتهر بالعسف والاضطهاد، ومصادرة الحريات والأفكار المتحررة.

... لقد أحتشد الناس أمام المنزل الذي كان يعيش فيه من قبل الزعيم سعد زغلول انتظارًا لأن يخرج عليهم النحاس باشا خطيبًا.

ونسى جمال - شأنه في ذلك شأن الجميع - أنه منذ الصباح الباكر لم يتذوق الطعام. لقد سُدَّتْ كل الشوارع المحيطة بجماهير المتظاهرين وامتلأ الميدان الفسيح أمام البيت، حيث قام سرادق ضخم تقف فيه أرملة سعد زغلول وزعماء حزب الوفد.

وحينما بدأ النحاس باشا في إلقاء كلمته ظهر جنود الإنجليز يتصايحون يهللون. وَهَبَّتْ الجماهير وانقضت على العصي والأعمدة الخشبية التي كانت تحمل سقف السرادق وتسلحت بها عوضًا عن البنادق ضد الإنجليز. ولم يجد الجنود الإنجليز سوى الانسحاب ولكن أحدهم أطلق عياراً نارياً أردى أحد التلاميذ قتيلًا عند الكوبري.

وأحس جمال بضربة عنيفة على رأسه وسال الدم على عينيه وأنفه، وعلى الفور قام زملاؤه بالالتفاف حوله وحموه بأيديهم وحملوه بين أيديهم بينما خر جمال مغشيًا عليه. وبسبب هذه الحوادث اضطرت الحكومة لوقف الدراسة لمدة شهر.

وقام الملك في نهاية الأمر بالتراجع. وقام المصريون بالاحتفال بهذا الانتصار. وجاءت حكومة الوفد ليوقع النحاس باشا في أغسطس ١٩٣٦ على معاهدة بين مصر وبريطانيا، تم بموجبها الاتفاق على إنهاء الاحتلال البريطاني العسكري لمصر، كذلك وبموجب نفس المعاهدة أبقي على وجود أهم القواعد العسكرية البريطانية في مصر بمنطقة قناة السويس. وعلى هذا قد حققت مصر بموجب هذه المعاهدة استقلالًا صوريًا وهميًا، ولم يمض وقت طويل حتى أحس المصريون بأبعاده الوهمية. كذلك فإنهم لم يروا أي شئ قد تغير في البلاد.

وبموجب معاهدة سنة١٩٣٦ تم وضع قيادة الجيش المصري تحت إمرة المصريين. ولكن تركيبه ظل كما كان في الماضي حيث أراد الإنجليز. لقد اعترفت المفوضية البريطانية بطريقة لا لبس فيها بأن الجيش المصري الذي أنفقت بريطانيا حوالي ٥٠عامًا في إعداده في وضع يرثى له. حيث تتصف كتائبه الإحدى عشر بالتسليح والإعداد السيء. ففي سلاح المدفعية لا توجد الذخائر والطلقات الكافية، كما غابت عنه الدبابات وأسلحة الدفاع الجوي. وكون حوالي ٣٤ طاقم طائرة كل السلاح الجوى المصري، وليس لديهم أي خبرة قتالية أو أي خبرة للمدفعية أو للمعارك الجوية ولقد كان جنود الجيش يأتون من بين فقراء الفلاحين، ولا يوجد أي فرق بين حياتهم قبل وبعد الالتحاق بالجيش. كما كان الضباط يُختارون من العائلات الكبيرة المعروفة حيث يتخذون من الخدمة في الجيش وسيلة لشغل الأوضاع الاجتماعية الراقية.

لقد كتب جمال بحزن شديد لأحد أصدقائه ويدعى حسن النشار: "إن الموقف اليوم أصبح حرجًا، ولقد وصلت مصر إلى طريق مسدود. وإنني أشعر أن البلاد أصبحت توجد في وضع ميئوس منه وفي خيبة أمل واضحة"، واستطرد متسائلًا "من ذا الذي يستطيع أن يزيح عنا هذا الشعور؟ إن الحكومة المصرية تعتمد على الفساد والمحسوبية. فمن ذا الذي يغير هذا الوضع إذن؟ من ذا الذي يستطيع أن يصيح بالاستعمار ويقول له قف دون أن يخر صريعًا كالكلب، أين نجد وطنية سنة ١٩١٩؟ أين هؤلاء الرجال المستعدون للتضحية بأنفسهم من

أجل استقلال الوطن؟ أين هذا الشخص المسئول الذي يعمل لبناء الوطن؟ أين العزة والكرامة؟ أين الوعي والروح الوطنية؟ أين هذه التي تسمى الحركة الشبابية؟ إن كل هذا ضاع وتلاشى، والأمة تغط في النوم وكأنها شخص يعيش في خندق. من الذي يستطيع إيقاظها؟ ومن الذي يستطيع محو هذا النحس المقيم حتى الآن، لست أدري من هؤلاء وكيف سيكونون؟".

هكذا كان وضع البلاد في سنة ١٩٣٦، حينما كان جمال مقبوضًا عليه لبضعة أشهر قبل إتمامه لدراسته في المدرسة الثانوية. لقد بذل عبد الناصر أقصى ما في وسعه من أجل أن يتم ولده الدراسة، ولهذا عمل بأقصى إمكانياته لكي يفرجوا عن ابنه ويصرح له بدخول الامتحان. حيث تمكن جمال من إتمام الدراسة بالمدرسة. ولم يكن مطروحًا أمامه أي خيار عما سيفعله في المستقبل حيث كان يحلم بطريق واحد وهو أن يكون ضابطًا. وما لبث جمال إلا وقد مثل أمام لجنة القبول بالكلية الحربية.

ـ اسمك؟

ـ جمال عبد الناصر.

ـ ما عمل والدك؟ سأله ضابط بعد فترة صمت وهو ينظر إليه متفحصًا وقد اتكأ على مقعد وثير مغطى بسماط أحمر.

ـ يعمل في مصلحة البريد.

ولكن الضباط الجالسين على المقاعد الوثيرة تبادلوا النظرات.

ـ وسأل أحدهم: في منصب كبير؟

ـ لا إنه مستخدم عادي ، أجاب جمال والحمرة تعلو وجهه.

ـ ما هو محل ميلادك؟

ـ محافظة أسيوط قرية بني مر.

ـ إذن فهل أنتم فلاحون ؟

وجهها الضابط وعمل جاهدًا على ألا يظهر أحاسيسه. وفي نفس الوقت ظلت عيناه متعلقتان بجمال مهتمة بفضول واضح لمعرفة الجواب.

ـ نعم، قالها جمال بهدوء :

ـ هل يوجد في عائلتك أي ضابط؟

ـ لا يوجد.

ـ ولماذا اخترت أنت أن تلتحق بسلك الخدمة العسكرية؟

ـ كي أهب حياتي لبلادي.

أردف الضابط: هكذا قال الجميع، شئ عادي. ولكن ما لبث أن صاح: ولكن لماذا هذه الجملة بالذات تتردد على شفاه هؤلاء الشباب. بعد ذلك لف الحجرة صمت شديد ربما كان فيه الممتحنون يفكرون ويتساءلون: لماذا لم يعطوهم حياتهم للوطن؟ و يخدمون فقط من أجل الترقي إلى الرتب الكبيرة.

ـ هل تملكون شيئا؟

ـ لا يوجد، أجاب جمال وهو يحس بالارتباك.

ـ هل أحد أوصى عليك؟

ـ لا يوجد.

ـ هل اشتركت في مظاهرات الطلبة؟ وكان السؤال الأخير والحاسم الذي وجهه رئيس اللجنة.

ـ نعم.

ـ وهو كذلك – ودق رئيس اللجنة على المكتب بإصبعه، وقال: تستطيع أن تنصرف.

وعبثًا أخذ جمال وأسرته يبحثون عن اسمه في كشوف المقبولين بالكلية الحربية. لقد كان هناك أمل في الماضي، ولكن الآن ضاع الأمل وأصبح السؤال الذي يعذبه: ما هو العمل بعد ذلك؟ المدرسة وقد أنهاها، أبواب الكلية الحربية وها هي قد أوصدت في وجهه، وأقاربه يريدون الضغط عليه من أجل أن يدخل كلية (مدرسة) الشرطة فهم معجبون بالبزة السوداء وبمركز ضباط البوليس الذين يأتمرون بأمر الجنرال الإنجليزي راسيل.

لقد تذكر جمال الصدام بين الطلبة والتلاميذ مع البوليس، هذا الصدام القريب الذي شارك فيه هو شخصيًا وما زال بوجهه آثار جروح تركتها طلقة رصاص البوليس، شخص واحد فقط في العائلة هو الذي يؤيد جمال إنه الحاج حسين جده ذلك الرجل الذي يعضد وجهة نظر حفيده في عدم الانضمام إلى البوليس، ولم تكن حتى هذه المساندة تعفي جمال من البدلة السوداء ، ولكن الأساس يرجع إلى هذه الأحداث السابقة حيث كان مقبوضًا عليه. لقد عرف ناصر أن هذه الأحداث هي التي حالت بينه وبين الكلية الحربية. ولكن جمال حسب كذلك أنه لن يحوز مطلقًا ثقة الشرطة، فالكل سيعتبرونه طالما ينحدر من أصلاب الفلاحين مجرد إنسان دخيل عليهم، إن أبناء كبار الملاك فقط هم الذين يستطيعون أن ينضموا إلى صفوف الضباط، هكذا فكر جمال في الحل العسكري بالنسبة له. لذلك وجد أنه لابد من البحث عن طريق آخر.

إن القانون في البلاد العربية ودراسته تمكن الكثيرين من المشاركة النشطة في الحياة السياسية للبلاد، فعلى سبيل المثال المحامون هم الذين يمتلكون الحق فقط في الحصول على تصريحات لإصدار صحف ومجلات* وفي الولوج إلى المنظمات الاجتماعية والأحزاب، ومنذ الوهلة الأولي نجد أن جمال قد شارك منذ سنوات عمره الأولي في الكفاح الذي خلق مجموعة من الشباب الثوري، وبأخذ هذا في الحسبان فإن كلية الحقوق بجامعة القاهرة تعتبر ميزة له في هذا المجال، بل وتفضل في ذلك الكلية الحربية، حيث أنها تعتبر أحد الحقول الديموقراطية الهامة في مصر آنذاك.

(*) هذا التقدير غير دقيق فحق إصدار الصحف والمجلات لا يقتصر على المحامين وحسب.

وفي مصر في الثلاثينات كان هناك كثير من أبناء الفلاحين يتلقون التعليم بالجامعة حيث يذهبون في الإجازة الصيفية لمعاونة أهاليهم بالحقول، وفقط في نهاية سبتمبر حينما يجنون القطن يقوم الأهالي بتسويقه وقبض النقود ثم يسددون المصاريف الدراسية. ولهذا السبب نجد أن السنة الدراسية تبدأ في مصر عادة في الأيام الأولي من أكتوبر، وعليه فإن جمال لم تفت فرصته في الالتحاق بالجامعة ودخل كلية الحقوق حيث ساعدته نوعية الدراسة على إشباع هوايته في الاطلاع، ولكنها رغم ذلك لم تمح حلمه في أن يلتحق بالسلك العسكري. فبعد أن أمضى نصف عام دراسي في الجامعة عرف أن الكلية الحربية تطلب دفعة إضافية.

في هذه المرة نشط جمال لاتباع أسلوب آخر، حيث قرر أن يؤمن دخوله إلى الكلية الحربية باستناده على أي شخصية كبيرة. وفعلًا استطاع بمساعدة عمه خليل التوصل إلى وساطة لدى ممثل سكرتير وزارة الحربية اللواء إبراهيم خيري باشا. ورغم أن جمال كان يمقت هذا المسلك إلا أنه وجد أنه الطريق الوحيد. ولقد عمل بالمثل العربي الشهير "اغضض من بصرك إذا دخلت بيت العميان" لقد أخذ اللواء خيري جمال إلى منزله ودار بينهما حديث مفتوح وطويل. وكان اللواء خيري شخصيًا مهتمًا بتربية كوادر وطنية من الضباط لذلك استمع لجمال بإمعان شديد وأعجب بهذا الشاب وبجديته، لذلك وعده بتعضيده في الدخول إلى الكلية الحربية.

لقد شهدت قاعات المحاضرات وساحات التدريب بالكلية في الثلاثينات ولأول مرة في التاريخ طلبة مصريين قادمين من أصلاب الفئات الوسطى بالمجتمع. فلم يكن جمال وحده. ولكن وجد بجواره عبد الحكيم عامر، وأنور السادات، وحسين الشافعي، وخالد محي الدين، وابن عمه زكريا محي الدين، وآخرون ممن كونوا بعد ذلك قيادة ثورة ١٩٥٢، ودخلوا أساسًا الكلية الحربية في هذه السنوات المشار إليها. إن ناصر ورفاقه كونوا عناصر جديدة في حد ذاتها بالنسبة للنوعيات المتواجدة بالجيش آنذاك. يتحلون بالطاقة والوعي الوطني، كما أنهم مستعدون لأن يهبوا شبابهم من أجل تحقيق استقلال وطنهم.

ومنذ أن التحق جمال عبد الناصر بالكلية الحربية في مارس سنة ١٩٣٧ وهو يضع نصب عينيه هدفًا "محددًا" وهو أن يكون طالبًا متفوقًا لكي يتخرج كأحسن ضابط. وفعلاً ما لبثت قيادة الكلية أن اختارته كرقيب لدفعته. وفي سنة ١٩٣٨ عُين رقيبًا على الدفعة الجديدة حيث تعرف على أحسن فرد فيها وأكثرهم انضباطًا وصار فيما بعد أقرب الناس إلى قلبه، ذلك هو عبد الحكيم عامر. وفي الوقت الذي أطلق فيه الطلاب على جمال "جيمي" وسموا عبد الحكيم عامر "روبنسون" وذلك لصبره وحبه للمغامرة. وبسرعة وإثر امتحان مفاجئ كوفئ «جيمي» بأن أخذ رتبة "الأنباش" عريف. لقد كان المنهج الدراسي للدفعة في الكلية الحربية آنذاك يستغرق ثلاث سنوات، ولكن في سنة ١٩٣٨ احتاج الجيش إلى مجموعة من الضباط الجدد مما دعي قيادة الكلية إلى اختصار المقرر الدراسي بالنسبة لدفعة جمال، وخلال ستة عشر شهرًا فقط كان جمال يتقدم لاختبار الامتحان النهائي للتخرج. ولقد حصل عبد الناصر على مجموع كلي بنسبة ٧١٪ وهو يعتبر أعلى تقدير في الدفعة وبيان درجاته كالآتي، "في العلوم والرياضيات نال ٨١ ٪، وفي القيادة والتنظيم حصل على ٩٥ ٪، وكانت أقل درجاته في التاريخ العسكري حيث حصل على ٦٨ ٪ (ولقد كان هذا غريبًا ذلك أن التاريخ كان مادته المفضلة في المدرسة الثانوية).

لقد كان جمال أثناء دراسته في الكلية الحربية يقضي معظم وقته في المكتبة، وكان مما قرأه بعض الكتب باللغة الإنجليزية. ولقد ركز معظم قراءته في التاريخ العسكري والسياسي حيث قرأ كثيرًا من التراجم عن نابليون، وبسمارك، وكمال أتاتورك، ولقد كان "جيمي" شغوفًا بالاطلاع في المشاكل الاقتصادية الخاصة بالشرق الأوسط.

وفي صيف ١٩٣٨ بعث جمال برسالة إلى جده وباقي أقاربه في بني مر يخبرهم بأنه بمجرد أن يتخرج سوف يعمل ويعيش قريبًا منهم بمعسكر منقباد.

وها هو الملازم جمال عبد الناصر يذهب إلى مكان خدمته في تلك البقعة التي يهفو إليها قلبه والتي تستحق بجدارة صفة الوطن. لقد وقف ينظر من

خلال شباك عربة القطار العسكري ويتذكر طفولته وبني مر ومنزل جده، وأخذ يسرح في ماضيه ويتذكر بل ويكاد يشم رائحة الخبز المنزلي الساخن حينما كان يحشو به جيبه، ومنظر وداعه لأترابه الصغار من أولاد الفلاحين. وكيف كان جمال يسعد وهو يذهب ممتطيًا ظهر الحمار إلى أسيوط لزيارة والده. آه لهذه السنوات التي عايشها بنفسه، والتي يراها الآن حينما يري الفلاحين الذين يكدحون في الحقول "بجلابيبهم" الفضفاضة. لقد كتب جمال بعد فترة من الزمن إلى صديقه حسن النشار يقول: "بالأمس بدأت خدمتي العسكرية بمنطقة منقباد، هذه البقعة الرائعة والشاعرية التي تحتل ركنًا من المعمورة، فحول المعسكر تنتشر الجبال والرمال الصفراء كما تحيط بها الأراضي الخضراء والرياض التي تنساب فيها القنوات الهادئة، ففي الشمال تجد الحقول وفي الجنوب تشاهد سلسلة من الجبال. ترى عندها الصحراء الشرقية وكأنها قد مدت يدها لتصافح بها يد الصحراء الغربية، وأنه لمن دواعي السعادة لي بأن أخبرك أن شخصيتي كما هي لم تتغير، فجمال الذي يعيش الآن في منقباد هو جمال بذاته الذي تعرفه من قبل، ذلك الشخص الذي ما زال يبحث عن بواعث الأمل التي ما تلبث أن تتلاشى كموجات السحب".

لقد أصبح كثير من الذين عايشوا جمال في منقباد أصدقاء له، ولقد استمرت هذه الصداقة ودخلت إلى مجال العمل حيث التحق بعضهم بتنظيم "الضباط الأحرار" فيما بعد.

واعتقد جمال أن الجيش المصري سوف يهب في النهاية للكفاح من أجل الحرية وتنظيف البلاد، ولقد دعم عقيدته هذه نظرته للتاريخ المصري وإلمامه به، فها هو محمد علي القائد المشهور الذي استطاع في النصف الأول من القرن الماضي أن يحرز عددًا من الانتصارات الضخمة على الجيش التركي، ولم ينهزم قط إلا حينما عضدت الجيوش الأوربية الجيش التركي لكي تجهز على قوته الوليدة، ألم يفر نابليون شخصيا من مصر؟.

ففي سبعينات القرن الماضي تكونت في الجيش مجموعة ثورية حيث أطلقت عليها أعضائها أنهم "مجموعة الضباط الأحرار" فكم هي تسمية

رائعة "الضباط الأحرار" هكذا كان يفكر جمال ، هؤلاء الضباط الذين انتظموا حينئذٍ للدفاع ضد التسلل البريطاني في مصر، وللمطالبة ببعض الإصلاحات التقدمية كما أنهم كافحوا بإخلاص لإرساء قواعد النظام الجمهوري للبلاد آنذاك".

ولم يدع جمال أي فرصة أو لقاء يمر عليه حينما يقابل زملاؤه إلا ويذكرهم بانتفاضة عرابي باشا، أول من قال يجب أن يكون الجيش في خدمة الشعب، لقد كانوا دائمي التحدث عما حدث يوم ٩ سبتمبر ١٨٨١ حينما قاد أحمد عرابي باشا قوته واتجه إلى ميدان عابدين حيث يوجد القصر الملكي الذي يسكنه الخديوي الجبان توفيق الذي ظهر من شرفة القصر وبجواره القنصل الإنجليزي العام حيث سألهم الخديوي قائلًا:

- لماذا أتيتم إلى هنا؟

- وكان عرابي باشا يقف مستندًا على سيفه.

- لقد أتينا لكي نعرض مطالب الشعب والجيش العادلة.

قالها عرابي وهو يمسح بيده على شاربه.

- أية مطالب؟ قالها الخديوي والعجب يرتسم على وجهه.

- نحن نطالب بتغيير الوزارة التي يمقتها الشعب وندعوا إلى دعوة البرلمان. هنا حاول القنصل الإنجليزي أن يشجع الخديوي.

- ما أنتم إلا عبيد إحساناتنا وليس للعبد الحق بالمطالبة بأي شئ!

قالها الخديوي وهو يصيح وقد انتابته الهيستريا.

- لقد ولدتنا أمهاتنا أحرارًا، ولا نستعبد أو نورث بعد اليوم، هكذا هتف عرابي باشا.

لقد كان جمال يفكر دائمًا ويتخيل ذلك الوقت الذي يستطيع أن يقف فيه هو ورفاقه بشجاعة ضد الظلم والاستبداد مستكملين بذلك الكفاح الذي بدأه عرابي باشا.

لقد أخذ جمال وضعه في منقباد وسط الحامية التي تتكون من ثلاثة آلاف من الشباب الظامئين لعمل الضباط بعد مللهم من عيشتهم الكئيبة والمملة، وكان الجميع يقضون أوقات فراغهم في النقاش العنيف حول مصير ومستقبل البلاد، وأحيانًا كان جمال يأخذ بعض أصدقائه ويذهبون إلى بني مر حيث يستقبلهم الحاج حسين وهو فخور بحفيده الضابط ويرحب بهم أشد الترحيب، وكانوا غالبًا ما ينتظرون عنده حتى يتناولون الغذاء الريفي الذي يسعدون به و يجعلونه مادة للتذكر والحديث عنه حينما يرجعون إلى معسكرهم.

وفي إحدى أمسيات يناير ١٩٣٩ قام جمال مع أصدقائه للتمشية في الصحراء، وعند سفح جبل الشريف بينما كانوا يجلسون وأمامهم نيران قد أشعلوها بغرض شواء أبو فروة وهم يتبادلون النكات والضحكات هب جمال واقفًا، وقال بصوته الهادي المعتاد:

ـ دعونا يا أصدقاء نفعل ما لا يجعل معرفتنا معرفة اليوم فقط ولكن يجب أن ننمي روح الأخوة الحقيقية بيننا.

لقد كان جمال متأكدًا من أنه لابد وأن يوضع في القائمة السوداء نتيجة لما يطرحه من أفكار تحريرية وسط ضباط الحامية وبطريقة مكشوفة، وأن هذا الوضع سيحمل له بعض الإجراءات التي ستؤثر على دوره في الترقي العسكري. بل لم يقف الأمر عند هذا فإن رئيسه طلب نقله إلى السودان الذي كان يقع آنذاك تحت الإدارة المصرية الإنجليزية. كذلك فقد أضيف إليه فى هذا الطلب عبد الحكيم عامر.

وفعلًا ما لبث الأصدقاء إلا وقد انتقلوا إلى الخرطوم في القيادة العسكرية المشتركة، حيث اعتبروهم هناك من الضباط المغضوب عليهم. لقد وجدوا أنفسهم في وحدة عسكرية يحب قائدها الشرب ولكنه يكره أن يشرب وحده. لذلك فإن الضباط يجدون أنفسهم بحكم التقاليد العسكرية مضطرين لأن يكونوا ندماء له.

وفى إحدى الليالى تم دعوة الملازمين الصغيرين للمشاركة في الاحتفال بعيد ميلاد القائد الذي لاحظ عزلة هؤلاء.

إن منظر الضباط الزري وعيونهم الزائغة كانت تبعث في جمال الشعور بالتقزز، لقد كان يحاول أن يتماسك بصعوبة، ولهذا أجاب بلطف وإن كان ممزوجًا بدرجة من الشدة الكافية بأنه لا يستطيع أن يشرب. وفي هذه اللحظة انغلق باب "الميس" بشدة. وهنا رمق القائد هذا الضابط المبتدئ بنظرة من قدميه حتى رأسه ورفع أليه الكأس وأمره بالشرب. ووقف جمال ممتقع اللون وهو يحمل بيده الكأس ويراقب القائد الذي أخذ يفرغ في جوفه الكأس تلو الآخر، أخذ ناصر يتلفت حوله ثم لمس عامر في مرفقه وقال له انظر ثم أشار إلى الشباك حيث كان أحد الأصدقاء يثب من خلال النافذة لكي يجد نفسه بعد ذلك في الشارع. وخلال بضع دقائق أخذوا يضحكون وهم يشقون طريقهم إلى السينما.

ولكن القائد فهم ذلك على أنه إهانة شخصية موجهة له، وذات مرة حينما ذهب عامر في مأمورية طلب القائد جمال إلى مجلسه وأخبره بأنه سيبعث به إلى حامية بعيدة في جبل الأولياء.

ولم يستطع ناصر أن يتابع الكلام بانتظام حيث أخذ يفكر: ماذا يجري في القاهرة الآن، وبالطبع فإن العيش في الخرطوم له عديد من المميزات. وقد أصبح واضحًا أن مجرد الخروج من الخرطوم هو بمثابة عقاب.

وتم هذا فعلًا، لقد ظل جمال عبد الناصر في هذه الفترة مكدودًا ولم تكن له من تسلية غير مداعبة أحد القرود الذي قد اشتراه من أحد مروضي القرود المتجولين وأحضره معه في قفص.

وحينما عاد عبد الحكيم عامر من مأموريته لم يجد ناصر في الخرطوم. ولكن وجد فقط وظيفة جديدة تنتظره في كسلا. وفي الحال أدرك عامر أن هذه مكيدة من القائد. ولهذا قرر أن يظفر بالانتقال إلى جبل الأولياء ليكون مع جمال. وخرج من عند القائد حيث ذهب إلى نديمه رئيس الأركان وأخبره بفرح شديد من تلقيه لخبر نقله إلى كسلا، وهنا اغتاظ رئيس الأركان، وفي اليوم التالي وجد عامر أمرًا بنقله إلى جبل الأولياء. وهكذا ظفر الأصدقاء بالعيش سويًا.

في هذه الأثناء كانت نيران الحرب العالمية الثانية قد اندلعت في أوروبا، ووضح لدى الإنجليز والألمان على السواء - في تقديراتهم الاستراتيجية - مدى أهمية موقع مصر، وما لبثت نيران الحرب أن امتدت إلى مصر، وبدأت دقات طبول الحرب تدوي، وأصبح كل شئ في مصر موضوعًا تحت تصرف القيادة العسكرية البريطانية: الصناعة، والمواصلات، وحتى الناس، وقامت الحكومة المصرية بقطع علاقتها بألمانيا ثم بعد ذلك بإيطاليا، في الوقت الذي كان فيه الملك فاروق - الذي حل مكان أبيه فؤاد - وعدد من الوجهاء المحيطين به، يتعاطفون مع هتلر.

لقد كان الرأي العام في مصر في أغلبيته مضادًا للفاشية حيث التفت الجماهير حول حزب الوفد المصري، وإن لاحظ الكثير من المحايدين أنه كان يوجد لدى بعض الوطنيين قدر كبير من السذاجة، انعكس في تفكيرهم بأنه طالما يحتل الجيش الإنجليزي مصر فإن أي مساعدة أو عون يقدم لألمانيا الفاشية أو لإيطاليا سيساعدهم على تحرير بلادهم من الاستعمار الإنجليزي، وبالطبع لم يكن هؤلاء يفهمون بصورة جيدة طبيعة الأيديولوجية الفاشية ووحشيتها، وقد لعب العملاء الألمان دورًا نشطًا في مصر آنذاك للتأثير على هذه الأدمغة والرؤى الخاطئة، وتمكنوا فعلًا من إقامة اتصال ما مع "مصر الفتاة" التي بدأت تقوم ببعض الأعمال التخريبية ضد الإنجليز.

وفي عام ١٩٤٠ تمكنت القوات الإيطالية من اقتحام مصر من ناحية الحدود الليبية بادئة باستخدام أسلحتها الميكانيكية وفي مقدمتها الموتوسيكلات، ثم الدبابات والشاحنات، وباقي الآلات الحاملة للمشاة والمدفعية، حيث قامت باحتلال قرية صغيرة اسمها سيدي براني، وبعد ذلك خرجت متوجهة إلى مطروح من خلال الطريق الأسفلتي وذلك في طريقها إلى الإسكندرية، ومن هذا الطريق يمكن بعد ذلك الهجوم على قناة السويس، ولم يكن لدى الإنجليز في ذلك الوقت القوة الكافية للمقاومة الفعالة، لهذا أمر الجنرال ويفل بالتراجع، وتلغيم الطريق، وتفجير الطريق الأسفلتي، وردم الآبار في هذه المنطقة، وقد أنقذ الإنجليز وجود الجنرال الإيطالي المتردد جراتسيان حيث لم يتجاسر على مواصلة الهجوم، بالإضافة إلى هذا قام الأسطول الإنجليزي بسرعة لملاقاة العدو في سيدي براني، وفي نفس الوقت هبت القوات الألمانية لمعاونة الإيطاليين، وذلك تحت زعامة الجنرال روميل الذي كان يستخدم الدبابات ذات المدفعية الثقيلة، وبدأ الفاشيون في شبه هجوم جامح.

في هذه الأثناء قامت دوائر القصر في القاهرة بتنظيم مظاهرات خرجت تهتف "تقدم يا روميل"، هنا حرك الإنجليز الدبابات لمحاصرة القصر الملكي مطالبين إياه بتشكيل وزارة جديدة من حزب الأغلبية "حزب الوفد" وبالطبع خضع الملك على الفور.

ومرة أخرى عاد النحاس باشا إلى السلطة، ولكنه في هذه المرة تقلد هذا المنصب بأوامر الإنجليز، لقد أدرك الإنجليز أنه لا بد من وجود حكومة تحظى بالمساندة الشعبية كي يستتب الأمن والنظام في هذه الأوقات العصيبة، ولقد قام النحاس باشا على الفور بإجراء عدد من الإصلاحات حيث خفض الضرائب على الفلاحين، وأباح تكوين النقابات، وأقر مجانية التعليم الابتدائي.

وحينما وقعت هذه الأحداث كان جمال عبد الناصر بعيدًا عن الوطن حيث كان في جبل الأولياء ولم يستطع أن يقدر الموقف تقديرًا سليمًا، وكان ناصر يؤيد ذلك الموقف الذي تكون فيه مصر على الحياد، ولكنه كوطني متحمس أثارته طريقة تعيين الوزارة الوفدية التي جاءت إلى الحكم بواسطة

الإنجليـز الذين لا يحرصـون إلا على مصالحهم بالطبـع، وفي اليوم الذي كان فيه الإنجليز يوجهون إنذارهم النهائي إلى الملك فاروق انتقل ناصر إلى القاهرة .

أثناء ذلك تعقد الموقف العسكري على الجبهة، ففي مايو ١٩٤٢ قام روميل بشـن هجوم على القوات الإنجليزية اضطرها فيه للانسـحاب إلى العلمين التي شهدت فيما بعد المعركة الفاصلة التي اندحر فيها جيش روميل.

ذات يـوم وصل ضابطان مصريان من مرسـى مطروح والتقيـا بناصر وقالا لـه أنهما قد حضرا إليه بناء على أمر من أنور السـادات، فتفحصهما ناصر وبعد ذلك اسـتمر في رعايتهما. وبمجـرد عودته إلى مصر بدأ يلتـف حوله مجموعة مـن ضباط الجيش مـن الذين تجمعهم وحـدة الموقف والنقمة على الاسـتعمار الإنجليـزي. ففـي ضاحيـة أبـو زعبل التي خـدم فيهـا ناصر بمجـرد رجوعه من السـودان تمكن مـن الالتقـاء بمجموعة من شـركاء الرأي الذيـن وجدوا فيه أيضًـا شـريكًا لهـم. ولقد عرف ناصـر أثناء ذلك أن السـادات مقبـوض عليه. ولقد اسـتطاع البوليس أن ينشر عملاءه، وفي هذه الفترة ما كان ناصر يغفر لنفسـه لو أن مجموعة الضباط الوطنيين قد سـقطوا في يد البوليس. ولهذا أخذ يلتمـس الظروف ليعرف من الضباط ما إذا كان أحدهم يمتلك شـقة بالقاهرة ليدبـروا فيهـا عمليـة التقائهـم، وفعلًا تمكنوا مـن الحصول علـى منزل أحد الشيوخ بالأزهر.

وفي صبـاح اليوم التالي توجه ناصر إلى العنـوان المذكور، وقبل أن يدخل البيـت أخذ يستكشـف المـكان بمنتهى الحـرص. لقد كان المـكان يبدو مريحًا له. فالبيت يقع بجوار أحد المسـاجد في حي شعبي قريب من الأزهر، ونادرًا مـا يتجول فيـه الإنجليز، ومع ذلـك فقد كان مالـك المنزل يعتبر أحـد الموالين لرجال السلطة.

وظل ناصر ينتظر في غرفة صغيرة خانقة كان لابد لمن يصل إليها أن يعبر ممرًا شبه مظلم بعد أن يجتاز السلم للطابق الثاني. إلى أن أتى زملاؤه وهكذا، وفي تلك الحجرة المحبوسة الهواء اجتمع خمسة أشخاص.

وبدأ جمال الاجتماع مهنئًا بانضمام ضابطين جديدين ثم طلب إغلاق الباب، ثم قام بتقديم الزملاء الجدد للقدامى وبالعكس وذلك حتى يتعرفوا على بعضهم:

- لقد قلتم أنكم تودون المشاركة في الكفاح من أجل حرية الوطن. هكذا قال ناصر. ورد الضباط بالإيجاب وبالإيماء برؤوسهم علامة على الموافقة.
- هل تفهمون ماذا سيعنى هذا وكم سيتكلف من أعباء .
- نعم نحن نعرف هذا جيدًا ونعلم أيضًا أن بعض رفاقنا الآن معتقلون.
- حسنا إذن دعونا نتناقش سويًا في هذا. قال ناصر هذه الكلمات ثم استطرد بأن تسمية "الضباط الأحرار" تصلح تمامًا كإسم للتنظيم القائم فعلًا في الجيش. حيث يتسع لكافة العناصر الوطنية والتي تهتم بعالم الأفكار وتتبنى منه ما يصلح لتحرير الوطن، كما أن هذا التنظيم على استعداد لتدعيم كافة الاتجاهات الوطنية وأن ليست هناك أيديولوجية معينة ينجذب إليها ناصر في هذه الفترة.

ثم أضاف ناصر قائلًا لأحد الضباط: بأنه تنظيم يقوم على ثلاثة مبادئ أساسية هي:

أولًا: الصداقة التي يجب أن تسود بين جميع الضباط الأحرار بصورة أكثر من رابطة الدم.

ثانيا: السرية التامة.

ثالثا: الحب غير المحدود لشعبنا ووطننا.

وهكذا أقدم ناصر على أعمال قد يدفع حياته ثمنًا لها حيث أخذ يستغل وجوده بالقاهرة ويقوم بالتحدث مع الضباط التي تربطهم به معرفة قديمة، وبصفة خاصة هؤلاء الذين يحسون بالاستياء من الأوضاع السائدة، ويفاتحهم على أنه ممثل لتنظيم "الضباط الأحرار" الذي يكافح من أجل تحرير مصر.

وهكذا خطوة بخطوة تمكن من ضم بعض الأعضاء الجدد إليه، وبعد ذلك أدرك ناصر أنه يجب على تنظيم الضباط الأحرار أن يبدي نشاطًا أوسع خاصة في جمع التبرعات لأسر الرفاق المعتقلين. ولقد كان جمال يخشى الانتقال مرة أخرى إلى مكان آخر مما سيؤثر في عمل التنظيم، ولكن سريعًا ما عُيِّن محاضرًا في الكلية الحربية، وفعلًا تسلم جمال وظيفته الجديدة وأصبح عليه الآن أن يستعد لدخول امتحان أركان حرب، وبدأ يسهر الليالى بالمكتبة، وكان جمال في نهاية الحرب قد أصبح نقيبًا "يوزباشي".

لقد أصبح جمال بذلك شخصًا مشغولًا تحفل حياته بكثير من الأعباء، فعليه أن يستعد للامتحان من جهة، ومن جهة أخرى عليه أن يواصل عمله في تنظيم الضباط الأحرار، ولهذا كان لا يظفر بأي وقت من الفراغ. في الوقت الذي تمارس فيه كل هيئة التدريس بالكلية حياتها بلا أي طائل وبعدم مبالاة واضحة، فمنهم من ينفق وقته في لعب القمار والورق، ومنهم من يقضي كل وقته في مطاردة النساء ويستمتع بمصاحبتهن في الرقص.

ولكن ناصر كان يشغله شئ واحد هو استقلال وطنه، فقط كان يسمح لنفسه ولمرة واحدة في الأسبوع بأن يذهب إلى صديقه القديم عبد الحميد كاظم المتقد وطنية، والذي كان جمال قد تقرب منه أثناء إقامته مع عمه خليل في القاهرة، وقد جمعتهم الظروف مرة ثانية حيث تقابلا بعد أن تسلم جمال عمله كمدرس في الكلية الحربية. كان عبد الحميد كاظم يسكن في منشية البكري ويمتلك ورشة متواضعة لصناعة البسط والسجاجيد، حيث يقوم فيها بتجديد السجاجيد العجمي المشهورة، والسجاجيد المصرية ذات النقوش والزخارف الفاطمية، والسجاجيد الأخرى ذات الأنسجة المشجرة وارد أسبانيا.

سنوات عديدة مرت على معرفة ناصر بعبد الحميد كاظم، وها هو ذا الأخير قد أصبح الآن أرمل وَزَوَّجَ إحدى بناته، أمَّا الأخرى "تحية" فكان جمال يعرفها ولكنه لم يرها منذ كانت صغيرة، ولكنها الآن قد شبت وتحولت إلى فتاة جميلة سوداء العينين، وكانت تحية قد تلقت قدرًا من التعليم الكافي بالقياس إلى عامة فتيات مصر آنذاك، ومع ذلك فقد كانت تربية تحية قائمة على بعض الأسس القديمة، فلم تكن تجرؤ - شأنها في ذلك شأن كافة النساء اللاتي يعشن حولها - أن تحضر مجالس الرجال أو مناقشتهم. ولكنها تستطيع فقط أن تحضر للحظة أمام الضيوف، ولهذا فإن كاظم لم يعبأ بأن ناصر صديق له حينما قدم إليه تحية ثم أمرها على الفور بأن تغادر الحجرة.

وكثيرًا ما كان جمال يصطحب معه عبد الحكيم عامر أثناء زيارته لعبد الحميد كاظم، وكانا يقضيان وقتهم في النقاش حول ماضي مصر وحاضرها ومستقبلها، وفي هذه الأثناء كان كاظم ينادي ابنته ساعة النقاش واحتدامه لكي تعد لهم الشاي، وكانت تحية تدخل حينئذٍ خافضة عينيها لكي تقدم الشاي للضيوف، وفي إحدى المرات كانت تحية تقدم الشاي فلمست يدها يد جمال الذي نظر إليها فلاحظ عليها الارتباك الكامل والارتعاد الذي بدا في عينيها. في هذه اللحظة تذكر أمه لسبب لا يدريه.

ومرت عدة أسابيع ولم يذهب جمال لزيارة عبد الحميد كاظم، وفي أحد الأيام بينما كان الرجل يقترب من بيته الحبيب لمح شخصًا غريبًا يجلس في رداء ضابط وقد خلع سترته ووضعها على مسند الكرسي الذي اتكأ عليه وفي يده كوب من الشاي.

- استمر في جلستك. هكذا طلب كاظم من جمال، ولكن جمال تململ في جلسته ومع ذلك لم يلحظ كاظم أي شئ ولم يلبث أن دخل إلى المطبخ حيث حضر ومعه الشاي.

- هنا سأله جمال: إذن أين تحية اليوم؟

ـ فأجاب كاظم: لقد ذهبت لزيارة أختها. واستمر في التحدث إلى الضابط الذي لم يُبد أي ميل لمقاطعته في الحديث.

ومضي أسبوع وأتى جمال إلى زيارة كاظم، وفي هذه المرة – وكالعادة – أحضرت تحية الشاي وعيناها تفيضان بالحزن.

عندئذٍ قرر جمال ألا يذهب مرة أخرى إلى بيت كاظم، ولكن عيني تحية الحزينتين كانتا تطاردانه دائمًا خاصة حينما يخلو إلى نفسه وتلح عليه في تذكر أمه.

وما هي إلا أسابيع حتى ذهب ناصر ليشرب الشاي مع صديقه القديم كاظم، ولكن هذه المرة كان مصممًا على شئ جديد، لم يسمح فيه لنفسه هو والآخرين أن يأخذوا رشفة شاي إلا وقد فاتح كاظم في خطبة ابنته تحية له.

هنا أجابه كاظم على الفور بأنه يرحب بذلك.

ولكن جمال أردف: ألا تأخذ رأي تحية فقد لا يعجبها الضابط، وأنها هي شخصيًا لا تريده؟

ولقد كانت عادات المصريين آنذاك لا تسمح لشباب أن يفاتحوا بعضهم بعضًا في أمور زواجهم، كما كان الزواج عن حب من الأشياء النادرة جدًا تلك الأيام، وغالبًا ما كان الأبوان يقومان باختيار العريس لإبنتهما.

ولهذا قال كاظم:

ـ "إن تحية ليس لها رأي في مثل هذه الأمور" ولكن جمال تمسك بهذا المبدأ وقال:

ـ اسألها وسيكون الأمر كما تريد هي.

وعلى الفور سألها والدها، وأجابت تحية وهي خافضة ناظريها وغير قادرة على النظر إلى الرجل بـ "نعم".

بعد ذلك تم إعلان الخطوبة وأصبح الاثنان قادران على الجلوس معًا بمفردهما، وخلال شهرين كان عرسهما، ولقد كانت أول هدية قدمها جمال لتحية هي شراؤه "جرامافون" لأنها كانت تحب الموسيقى، وكان الاثنان يصطحبان بعضهما ويتجولان لشراء الاسطوانات التي يسمعانها سويًا في المساء.

وقال لها جمال: لا يهمك حينما تتوافر لدينا نقود سوف أشتري لك بيانو.

وهكذا ولأول مرة لمس جمال أنه ومنذ وفاة والدته قد أصبح يملك بيتًا. فكان بمجرد انتهاء عمله يسرع إلى زوجته حيث كانا قد أخذا شقة منفردة تحتوي على أربع غرف وتقع في حي منشية البكري، وكانت تحية تخرج بنفسها وبسعادة واضحة لشراء احتياجات منزلها، وتقوم بإعداد أحب الأطباق لجمال.

وأحيانًا ما كان يأتي أقاربه لزيارته في منزله فتقابلهم تحية بالترحاب وتبدي لهم كامل الاهتمام، ولهذا كان هؤلاء الأقارب يكثرون من زياراتهم لبيت جمال. كذلك فقد تزوج عبد الحكيم عامر هو الآخر، وقام جمال بشراء سيارة ليست كبيرة سوداء اللون ومماركتها أوستن، وكانوا جميعًا يذهبون بالعربة للتجوال بالمدينة في المساء.

وسرعان ما توفي عبد الحميد كاظم ولكنه مات وهو على يقين بأن ابنته تحية على وفاق وسعيدة مع هذا الضابط "جمال عبد الناصر". وبعد ثلاثة أشهر من زواج جمال وتحية اكتشفت تحية أن هناك ثمة أشياء غامضة تجري حولها بالبيت وتدعو إلى الشك، ومع ذلك لم توجه بشأنها أي سؤال، وظلت تؤدي مهامها كربة منزل وهي مشغولة بهذا إلى أن جاء الأطفال، فتعاونت هي وجمال على تربيتهم. ففي سنة ١٩٤٥ ولدت أولى أولادهم هدى، ثم جاءت منى، بعد ذلك

هنـأوا جمال بمولد نجله خالد، ثم عبد الحميـد، إلى أن جاء أصغر أولادهم عبد الحكيم الذي ولد بعد قيام الثورة في سنة ١٩٥٥.

بعد ذلك توقفا عن الإنجاب رغم أن تحية لم تكن تعمل، ولكنها كانت دائمـة الحرص على أن توفر الهدوء والسـكينة لبيتها مـن أجل زوجها، وهذا ما كان جمـال يحتاجه بالضبـط، فلكـم كان مظهره يوحـي بالتعب حينما كان يجلـس إلى عجلـة قيادة عربته الأوسـتن الصغـيرة وهو يتجـول أحيانًا وحتى بزوغ الفجر ليوصل أعضاء منظمة "الضباط الأحرار".

بـدأ الاقتنـاع في الجيش يتزايد بأن الإنجليز لن يتأهبـوا للخروج من البلاد رغـم انتهاء الحـرب العالمية الثانية، فشـوارع الليل لا تخلو من السـكارى منهم الذين يتسـكعون ويتمايلون وهم ينتقلون من بار إلى آخر ويواصلون السباب والشتائم على المصريين.

لقـد كان أنور السـادات وحتـى نهاية الحـرب العالمية الثانية حبيسًـا في السـجن وخرج لتوه ولكنه ظل موضوعًا تحت مراقبـة البوليس، ومع ذلك فقد قام جمال بمقابلته عدة مرات.

وفي النهايـة قام ناصر الـذي يتمتع بديناميكية القيـادة لكل منظمة الضبـاط الأحـرار بتقسـيمها إلى خمسـة أقسـام، أحدهـا يختـص بالشـئون الاقتصاديـة، والثانـي بالأمـن، والثالث بالدعايـة والتثقيـف، والرابع لكفاح الشخص "الذاتي"، والأخير خاص بالإرهاب.

وكان القسـم الاقتصـادي يختـص بالقضايا الماليـة للتنظيم، أمّا قسـم الكفـاح الذاتي فكان يختـص بجمع المعلومات والتخابر. وقسـم الأمن يقوم بالتعرف على الضباط الجدد.

وقسـم الدعاية كان يقوم بإعداد المنشورات وإصدارها – أمّا قسم الإرهاب فلقد كان عمليًا متوقفًا عن العمل، ذلك أن ناصر كان يعتبر أن الإرهاب لن يأتي بالنتيجة التي من أجلها تم تكوين التنظيم.

وكانت كل خلية من خلايا تنظيم الضباط الأحرار تتكون من ٣-٥ أشخاص لا يعرفون غير بعضهم فقط والشخص المكلف بتشكيل الخلية، وكان ناصر وعبد الحكيم عامر هما فقط الشخصان اللذان يقومان بتنسيق أعمال الخلايا من حيث اللقاءات، والإعداد، والتكوين، وحتى قيام الثورة في سنة ١٩٥٢ كان عدد الأشخاص الملتصقين بالتنظيم حوالي ألف شخص. على رأسهم عدد من الأشخاص النشطاء ليست أكثر من ثلاثة أفراد. وكان كل ضابط في التنظيم يدفع اشتراكًا شهريًا، وبهذه الاشتراكات تمكن ناصر من إنشاء ورشة سرية لتحضير القنابل.

وأخذ الوضع في مصر يزداد حرجًا مع كل عام يمر. فلم يكن يمر يوم على القاهرة دون أن تشهد واقعة اعتداء على الضباط والجنود الانجليز، وتخويف المسئولين الحكوميين الكبار من مجرد السير في الشوارع. حتى أن رئيس بوليس القاهرة "رُسل باشا" اعترف بأنه كان يحس بالخوف من مجرد السير في اتجاه المدينة. ولقد لعبت "جماعة الإخوان المسلمين" المتعصبة دورًا خاصًا في هذه الأعمال الإرهابية، وكانت هذه الجماعة ترتبط ببعض عناصر الضباط الأحرار. ومع نهاية الحرب العالمية الثانية استمرت جماعة الإخوان المسلمين في إصدار صحيفتها التي ارتفع توزيعها إلى أكبر عدد من النسخ في البلاد، واتهمت هذه الصحيفة الملك بخرق تعاليم الإسلام ونظامه – وإفساد ونسيان مصالح الشعب. ففي كتابه "ثورة وادي النيل" يذكر أنور السادات أنه اقترح ذات مرة على ناصر أن يأخذ بأسلوب الإرهاب المسلح، الذي كان الأسلوب الرئيسي لجماعة الإخوان المسلمين، ونسف السفارة الإنجليزية، ولكن ناصر لم يوافق على ذلك مع أنه لم يكن معترضًا على التعاون مع الإخوان المسلمين.

وذات مرة تعرف ناصر على طالب جامعة القاهرة خالد محي الدين. الذي أثار فورًا اهتمام زعيم الضباط الأحرار. لقد كان خالد وطنيًا متحمسًا، بالإضافة إلى أنه كان يمتلك نظرة ثورية للحياة، وضاعف من إعجاب ناصر به أنه علم بأن خالد إلى جوار كونه طالبًا فهو ضابط في سلاح الفرسان "المدرعات"، وأنه في أجازة فقط من الجيش لكي يؤدي الامتحان في الجامعة.

إن الجيـل الجديد من الضباط أكثر تعلمًا منـا – لاحظ عبد الناصر ذلك وسأله متي سترتدي رتبك العسكرية من جديد؟.

ـ ولكن خالد ذكر بأنه لا يريد ذلك مطلقا واستطرد قائلًا:

ـ أنا لا أحب الحرب وأنا ضد الجيش.

ـ وهل أنت أيضًا ضد الجيش الذي يحارب من أجل تحرير شعبه؟

ـ أنا لا أقبل الدكتاتورية العسكرية، كما لا أقبل حكم الظلم والاستبداد، أجاب خالد.

ـ ولكننا لم نجتمع من أجل الوثوب على السلطة.

قال ناصر وهو مستغرق في تفكير عميق :

د ع السياسيين ينشغلون بالسياسة، ولكن فلنصحح لهم المسار وبعد ذلك يعود الجيش إلى ثكناته .. هذا ما نبتغيه وحسب ، ذلك لأن السلطة مرفوضة لدى المصريين الوطنيين الواعيين .

لقد رغب ناصر في أن يتكلم أكثر إلى هذا الضابط الغريب الذي يرتدي بزة مدنية و يحتفظ ببطاقة طالب في جيبه.

ـ فلابـد أن تأتـي إلي مرة ثانية – قال ناصر ذلك – ضروري أن تأتي. اعطني وعدًا بذلك.

هذا هو خالد الذي أحبه ناصر لدرجة أن أسمى ولده الأول على أسمه، فأصبح خالـد بعد ذلك ضيفًـا وزائرًا دائم التردد على منشـية البكـري. وأخذ يحمل معـه لناصر الكتب الـتي تتحدث عن الموضوعـات الأيديولوجية والاقتصادية، ويكلمـه و يحكـي لـه عن الاتحـاد السـوفيتي، وأعطاه مـا يقرأه عـن ثورة أكتوبـر. لقـد وجد جمـال في الكتب الإجابـات على كثير من الأسـئلة التي كانت تعذبه.

وعرف خالد جمال على الكاتب المصري الماركسي راشد البراوى الذي قام بعمل أول ترجمة لكتاب رأس المال لكارل ماركس إلى اللغة العربية. وبعد ذلك جاء لجمال بالاقتصادي المصري أحمد فؤاد. لقد كان لخالد مجموعة كبيرة من الأصدقاء. وكان ناصر يسمع ويسأل. ولكن جمال في الوقت ذاته وباعتباره مولودًا لأسرة تمت بأواصر الصلة للفلاحين المصريين لم يكن يستطع أن يتصور الدور التاريخي للطبقة العاملة.

وغالبًا ما كان يجتمع الأصدقاء في شقة ناصر، وألفت تحية زيارة خالد. كما ألفت زيارة الجميع من قبله. وكانت كثيرًا ما تتلقى الرسائل التي يقوم بتوصيلها أحد أصدقاء جمال إلى المنزل في غيابه وتسلمها لزوجها بمجرد وصوله.

وفي كل مرة، كان يفتح ناصر فيها الصحيفة - حيث يقرأ أخبار الإضرابات وأعمال المواطنين ضد المحتلين - يأسف لأن عمل الضباط الأحرار لا يسير بالسرعة والحسم اللذين يريدهما.

لقد راجع مواقع التنظيم في كل مكان، وأخذ يرتب المعلومات عن كل عضو فيه، وماذا يفعل التنظيم وأعضاؤه في البلاد. وفي إحدى المرات قام وزير الحربية حيدر باشا بالشكوى إلى قريبه عبد الحكيم عامر من سوء الانضباط داخل الجيش حيث قال له:

- إن الجنود بل وحتى الضباط يخدمون وكأنهم متبرمون من جزاء وقع عليهم، ولست أدري ماذا سيحدث حقًا حينما يتلقون أمرًا هامًا.

هنا قرر عبد الحكيم عامر من فوره أن يستغل هذه اللحظة ولا يجعلها تمر هباءًا حيث قال له:

يمكنني أن أوصي سيادتك بمعرفة ضابط شاب حازم وممتاز. وفعلًا وجد صلاح سالم نفسه مطلوب بطريقة رسمية إلى قيادة الأركان.

لقد علم ناصر بميل صلاح نحو اليسار. ومع ذلك لم يكن زعيم التنظيم يعبأ بمثل هذه الأمور حيث كان يرى أن أهم شئ في الشخص الذي يوكل إليه عمل هام هو أن يكون مجرد شخص شريف، ووطني مخلص. وفي هذا الصدد كان جمال يثق بصلاح سالم باعتباره شخصًا يتحلى بمثل تلك الصفات، ولنفس السبب رحب عبد الناصر بانضمام بعض الضباط الماركسيين إلى التنظيم. وفي النهاية أصبح تنظيم الضباط الأحرار يملك اتصالًا ببعض المنظمات السياسية الأخرى التي تعمل ضد الإنجليز.

وهكذا وجد تنظيم الضباط الأحرار نفسه مرتبطًا بصورة مباشرة من خلال بعض أعضائه بالإخوان المسلمين وبالجماعات الماركسية، وكذلك يملك اتصالًا ما بالوفد.

وعلى سبيل المثال استعار جمال عبد الناصر فيما بعد، مطلب موقف الحياد بالنسبة لمصر من برنامج الوفد. واعتمد على هذا الشعار في محاربة الإمبريالية. ولكنه عندما أعلن ذلك في مؤتمر باندونج رفض فكرة الحياد البورجوازى السلبي، وأكد أنه يتمسك بالحياد الايجابي الذي بمقتضاه يرفض الدخول في نطاق سياسة الأحلاف العسكرية مع الدول الاستعمارية. وبمقتضي تلك السياسة أيضًا تقف مصر وتساند بنشاط نضال الشعوب والبلاد الأخرى من أجل استقلالها الوطني.

وحتى بداية سنة ١٩٤٦ لم تكن المظاهرات، والإضرابات قد منعت، ولذلك كثيرًا ما اشترك العمال، والموظفون، والطلاب في المظاهرات والإضرابات التي كانت تنادي بخروج القوات الإنجليزية وجلائها عن مصر.

وذات مرة تحرك حشد ضخم من طلاب جامعة القاهرة يحملون عريضة ويبغون تسليمها إلى الحكومة. ولكن قوات البوليس قامت بتطويق مشارف النيل، فلجأ المتظاهرون إلى الدوران في اتجاه كوبري "عباس" وأصبح واضحًا أن حراس النظام لم يكونوا قد تمكنوا بعد من تطويق هذا الطريق، بينما على الجانب الآخر من الكوبري أخذت قوات الأمن تظهر في صفوف متراصة.

وكانت السماء مصفرة في هذا اليوم من سحابات الرمال الكثيفة التي حملتها رياح الخماسين، وعندما وصل المتظاهرون إلى منتصف الكوبري

لحقتهم أوامر مفاجئة بأن "يتوقفوا". ولكنهم واصلوا التقدم ولم يتوقفوا حيث وجدوا أنفسهم مطاردين. ودوت طلقات نارية. وسقط بعض الأشخاص.. "اضربوا !". وأخذت الطلقات تلمع فوق رؤوس الحشد. هنا ساد الذعر والفزع. فقفز البعض من على سور الكوبري ملقيًا بنفسه في النيل. ومع ذلك ظلت فرقعة النيران تدوي.

وفي هذه اللحظة انبعث صرير معدني وبدأ الجزء الرئيسي من الكوبري يتحرك في بطء وينفصل في اتجاه النيل. وأصبح من عليه من المتظاهرين وكأنهم ذبائح أو ضحايا فاجعة رهيبة. إن هذا الحكم الإجرامي بإطلاق الرصاص على المظاهرة السلمية أثار موجة من الاعتراض والاحتجاج في مصر أخذت تتسع. مجبرة الحكومة على الخروج على الفور من الحكم. وامتدت الإضرابات التي جاءت بدورها بموجة جديدة من التنكيل. ووجد الأهالي أنفسهم مضطرين إلى الاشتباك مع قوات الإنجليز. وأخذت تظهر في القاهرة المنشورات التي تتحدث عن قتلة الطلبة الأبرياء، وأن هذه العملية كان يقودها سليم زكي العميل السافر لقائد البوليس الإنجليزي "رُسل" باشا. لقد حدثت بعد ذلك محاولة حقيقية لاغتيال «رُسل» باشا مما أفزع الإنجليز. وهكذا عاشت البلاد في ظروف توتر غير عادي.

وفي هذه الظروف أخذ بعض الأصدقاء المقربين من جمال عبد الناصر يتكلمون معه حول ضرورة البدء بالاغتيالات السياسية. ولكن عبثًا حاولوا إقناعه فهو لم يرض بذلك.

وفي ظل هذا الموقف أخذت الحكومة تحضر للاحتفال بعيد ميلاد الملك فاروق لسنة ١٩٤٦، وكانت خطة الاحتفالات تقضي كما حددها رئيس الديوان الملكي "رئيس التشريفات" أن يقوم الملك فاروق بالحضور إلى الجامعة لإشعال الشعلة هناك التي من المفروض أن تنتقل بالتتابع إلى وسط المدينة، وفي هذه الحالة فإن جامعة القاهرة – التي شيدت بأموال الشعب ومع ذلك حملت اسم

فـؤاد والد الملك فـاروق – أخليت بدقة وإتقان وزينت بالأعـلام الوطنية وبصور الملك، وأخذت كافة الاحتياطيـات اللازمة وكان مدعوا إلى الاحتفال المفتوح أعضاء السـلك الدبلوماسـي. كما كان من المفروض أن يشـترك في العرض قـوات من الكلية الحربية وكان من ضمنها المدرس الشـاب بالكلية النقيب جمـال عبد الناصـر. ولكن الطلبـة تسـللوا إلى الجامعة ليلًا واسـتطاعوا أن يخترقوا هـذا الحصار وهذه التحصينات، ودمروا الزينـة المرصعة بالأنوار وقاموا بإحراق صورة ضخمة للملك فاروق بملابس الاستعراضات البهية.

وفي اليـوم التالي عمت المظاهرات الحاشـدة مدينة الإسـكندرية، وعمل البوليـس بكل جهـده لكي يمنـع الاتحاد بين العمـال والطلبـة، ولكن لم تسـعفه في ذلك هراواته ولا حتى نيران طلقاته، وحينما سقط أحد الطلاب من المتظاهرين شـهيدًا حمله رفاقه علـى أيديهم وأخذوا يجوبون بجثته الشـوارع، وهكذا لم يكن بد من أن تسقط الحكومة وتخرج من الحكم.

لقـد رأى كل من الإنجليز وفاروق أن الأحداث التي أخذت تنتشـر في البلاد ذات طبيعـة خطرة. لهذا وجدوا أن المخرج يكمن في إسـناد السـلطة إلى رجل حديدي، ولذلك أعادوا إسماعيل صدقي باشا رئيسًا للوزارة مرة ثانية.

وفي هـذا التوقيـت بـدأ عمل اللجنـة العليا لـكل طلاب مصـر، ولم تهدأ الحركة داخل أوساط العمال. وأنشئت في وحدات الإنتاج والمشاريع الصناعية لجان للإضراب. وفي النهاية تم تكوين «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة» التي ظهـرت من خلال مؤتمر وطـني وأخذت تقود حركة المظاهـرات. كذلك أخذت قرارها ببدء إضراب وطني عام.

وفي يـوم الإضـراب هـذا ومنـذ الصبـاح الباكر أخـذت مظاهـرات العمال والطلبـة تجوب شـوارع القاهرة. وفي نفس الوقت بدأ تنفيـذ الإضراب. فتوقفت المواصلات العامة وأغلقت المشاريع في الجيزة، وفي شبرا الخيمة، وفي العباسية. وعلـى الفور امتدت المظاهرات إلى وسـط القاهرة وأخـذت تتوافد من كل جهة لكـي تتجمع في ميـدان الأوبرا حيث كان من المقـرر أن ينعقد هناك مؤتمرًا

شـعبيًا. لقد كانت المواكب تسـير في نظام واضح، حتـى انعقد المؤتمر الذي طالب المشـتركون فيه بخروج القوات الإنجليزية من كل وادي النيل، وإلغاء معاهـدة ١٩٣٦ بين مصر وبريطانيا، وعرض القضية المصرية على مجلس الأمن بالأمم المتحدة.

وبعد انتهاء المؤتمر الشـعبي بميدان الأوبرا رجعت مظاهرات الطلبة والعمال إلى ميـدان قصر النيل وإلى معسـكر قـوات الاحتلال الإنجليـزي الموجودة به، ولكن انبعثت سـيارة مسـرعة من باب المعسكر محملة بالجنود الذين أخذوا في إطلاق النيران التي خلفت وراءها عشـرات من الجرحى والقتلى الذين تناثرت جثثهم على أرضية الميدان .

لقـد ألهـب هذا الحـادث مشـاعر كل أبناء الوطن. وفي مسـاء نفـس اليوم أعلن صدقي باشـا حظر المظاهرات. ومع ذلك امتدت الموجة وتصاعدت وتقرر أن يكـون يوم ٤ مـارس ١٩٤٦ يوم حداد وطـني عام يعبر عنه بالإضراب الشـامل. وعمومًـا فلقد قاسـى أغلب سـكان العاصمة في هذا اليـوم فأغلقت المصانع، والورش، والمدارس، والمحلات التجارية، والمقاهي، والمطاعم. وإذا قلنا أن هذا اليوم مـر دون صخب في القاهـرة. فالعكس جـرى في الإسـكندرية حيث انبعثت المظاهـرات ولجـأ البوليس مرة أخرى إلى اسـتخدام السـلاح، غـير أن المتظاهرين تمكنوا من اختراق حصار البوليس لهم. ومرت المظاهرات أمام أحد الفنادق حيث كان ينـزل به مجموعة مـن البحارة الإنجليـز فلمح المتظاهرون على سـارية العلم علمًا إنجليزيًا. وتمكن أحد العمال من اعتلاء السـطح حيث مزق العلم وأعطاه للمتظاهرين الذين قاموا بحرقه وداسوه بأقدامهم.

وأخـذت الطلقات تلمع وتدوي وتنبعث من الأماكن التي يعيش فيها جنود الاحتـلال البريطاني داخـل المدينة، وحاول المتظاهرون أن يسـتولوا على المبنى الذي يقع فيه قسـم الملاحة. ولكن قوات ضخمة من البوليس أبعدتهم. وعندئذٍ توجه المتظاهرون إلى ميدان سـعد زغلول حيث يوجد معسـكر صغير للقوات الإنجليزيـة وبمجـرد أن رأى جنـوده قـدوم المتظاهرين حتى أطلقـوا النيران في اتجاههم. ولكن في لحظة واحدة تحطم المعسكر فوق رؤوس الجنود. وانقلبت

الإسكندرية في هذا اليوم إلى ميدان معركة بين الشعب من جانب وجنود الاحتلال البريطاني من جانب آخر.

وفي هذه الأيام أخذ ناصر ينتقل في كل أحياء القاهرة يريد أن يعرف ويرى كل ما حدث.

لقد أخذ التنافس يشتد بين كل من بريطانيا والولايات المتحدة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية للتأثير في منطقة الشرق الأوسط، حيث نقلت الولايات المتحدة إليها مركز الحركة الصهيونية الدولية وأخذت تدعمها وتقدم لها المساعدات التي تمكنها من دعم مواقعها داخل المنطقة الغنية بالبترول، وأخذ الصهاينة يقدمون العون للدول الإمبريالية لتنفيذ سياستهم الجشعة في الشرق الأوسط، ويؤلفون العصابات العسكرية التي تهاجم المواطنين العرب في فلسطين وتستخدم معهم أساليب الإرهاب العسكري، وأخذ الصهاينة يروجون أنهم يعودون إلى مقدساتهم الدينية، وإلى جيل صهيون، وإلى أورشليم أرض الميعاد.

وأخذت الطائفة اليهودية الموجودة في فلسطين تعد العدة من أجل اغتصاب الأرض التي تدعي كذبًا أنها لها، على أساس الحق التاريخي اليهودي فيها. وذلك كما يشهد الكاتب الصحفي الإنجليزي جون جريج "كان السلاح والأدوات اللازمة لإنتاجه تأتي سرًا إلى فلسطين، معبأة في أجهزة البيانو التي تصل من الولايات المتحدة الأمريكية. لقد كانت القضية الفلسطينية معروضة أمام الأمم المتحدة، وفي مناقشتها طالب الاتحاد السوفيتي بضرورة إنهاء السيطرة الإنجليزية من عليها ورفع الحماية، وإنشاء دولة فلسطينية مستقلة وموحدة على أساس فيدرالي يكفل مختلف الحقوق لكل من العرب واليهود على قدم المساواة. وفي الوقت الذي كان فيه الاتحاد السوفيتي يطالب بإنشاء الدولة الديموقراطية الفلسطينية كانت كل من بريطانيا والولايات المتحدة تستمران في حبك الدسائس. وكانت الدول العربية وعلى رأسها مجموعة من الأنظمة الرجعية – آنذاك – لا تشجع الاقتراحات السوفيتية. بينما العصابات الصهيونية تزيد من نشاطها الإرهابي. في كل هذه الظروف

قام الاتحاد السوفيتي بالدعوة إلى إنهاء الحماية الإنجليزية من على فلسطين وقيام دولتين مستقلتين إحداهما عربية، والأخرى يهودية.

لقد قابل الصهيونيون قرار الأمم المتحدة بالتقسيم باستياء بالغ لأنهم كانوا يأملون في مزيد من الأرض ومساحة أكبر منها حتى يتمكنوا من إقامة الدولة اليهودية عليها، ولهذا ومع إقرار التنظيم من قبل الأمم المتحدة فإن الصهاينة ظلوا مستمرين بل وأخذوا يجهزون لصدام جديد مع العرب. لقد كان يخدم في المواقع القيادية في الجيوش العربية بعض العناصر الاستعمارية مثل عميل المخابرات الجنرال جلوب الذي قاد الفيلق الأردني في القتال.

وكان مثل هؤلاء أعداء حقيقيون لمصالح العرب. ولقد عرف الصهيونيون جيدًا كيف يبقون على مثل هذه العناصر التي تخدم مصالحهم هم. وفي مايو سنة ١٩٤٨ تم إعلان قيام إسرائيل التي آلت السلطة فيها إلى الصهيونيون. وقد تسببت الدوائر الإمبريالية البريطانية والأمريكية من جهة، والدوائر اليمينية الحاكمة في إسرائيل من جهة أخرى في قيام الحرب بين العرب وإسرائيل.

وفي هذه الأثناء كان يوجد بالعاصمة المصرية حوالي ١٥ ألف يهودي، وفي الإسكندرية حوالي ١٤ ألف يهودي. لقد أتى كل هؤلاء من بلاد مختلفة واحتلوا المواقع البارزة في جهاز الإدارة المصرية وفي الحياة الاقتصادية للبلاد، وآخرون أتوا إلى مصر مع بداية القرن العشرين من روسيا، ورومانيا، وفرنسا، وألمانيا، والنمسا، وتركيا. وكان كل هؤلاء يعتبرون مصر مكانًا آمنًا وملائمًا لهم. وكان الإنجليز يتخذون اليهود عن طيب خاطر للخدمة في مستعمراتهم وفي مشاريعهم هناك. كل هذا مهد السبيل لقيام علاقات لصيقة إلى حد ما في زمن الحرب العالمية الأولى بين كل من قيادة الحركة الصهيونية وبين الحكومة البريطانية. وبغض النظر عن أن اليهود كانوا يعيشون حياة طيبة في مصر، إلا أن الصهيونيين كانوا ومنذ زمن بعيد يتطلعون لأن يأخذوا جزءًا من الأرض المصرية.

لقد اقترح تيودور هرتزل الذي يلقب "بأبي الصهيونية الروحي" في فترة

الحرب العالمية الأولى على وزير المستعمرات البريطاني تشمبرلن مشروعًا يسمى بمشروع العريش على أن تمنح بريطانيا المنظمة الصهيونية ٦٣٠ ميلاً مربعًا من أراضي سيناء لكي يقوم عليها الوطن القومي لليهود. ونالت هذه الخطة استحسان المندوب السامي الإنجليزي لمصر آنذاك اللورد كرومر. ومع ذلك فلقد ظهر الوفد الصهيوني الذي يضم هرتزل شخصيًا فيما بعد على ضفاف النيل. هذا الوفد الذي قدم إلى مصر ليؤمن هدفه بموافقة الخديوي. لقد سافرت فعلًا مجموعة من الصهيونيين إلى العريش لدراسة المشروع على الطبيعة ورافق الوفد الصهيوني ممثل شخصي لكرومر.

ومع ذلك رفض الخديوي المشروع المقترح من قبل هرتزل وعندئذٍ استخدم الصهيونيون العلاقات المتشابكة للطائفة اليهودية في مصر، واتصالاتهم الواسعة في الضغط على الخديوي.

وبعدها أعلن الخديوي عن استعداده لإعادة النظر في قراره السابق. لقد أحرز الوفد الصهيوني بذلك انتصارًا واضحًا، ولكن سرعان ما تحلل الخديوي من وعده.

ومع ذلك فلم تذهب زيارة هرتزل للشرق الأوسط هباء. فإثر زيارته لمدينة الإسكندرية تأسست أول منظمة صهيونية تحت اسم "بن صهيون" هذه المنظمة التي رفعت شعار المطالبة "بإنشاء الوطن القومي لليهود في فلسطين". وبعد ذلك بعام تأسست جماعة صهيونية أخرى تحت اسم "زابيرزيون" ضمت بصفة رئيسية اليهود القادمين من روسيا. ورغم تكوين هذه المنظمات الصهيونية، فلم يحل أحد دون إنشائها في مصر. بل أكثر من هذا، حينما اندلعت الحرب العالمية الأولى ودخل الصهيونيون إلى جانب إنجلترا، أصدر السلطان التركي أوامره بإغلاق كافة المنظمات الصهيونية وحظرها في كل الولايات العثمانية. كذلك أمر بإغلاق البنوك "الانجلو- صهيونية" ومع ذلك لم يستجب أحد في مصر لذلك. وحينما بدأ إرسال الحشود الصهيونية إلى فلسطين وإدخالهم في صفوف المنظمات الإرهابية التي تم إنشاؤها، بدأ يهود مصر البحث عن ملجأ لهم في مصر يغذي صفوف تلك المنظمات الإرهابية

العسكرية، وفعلًا شرع أثرياء الصهيونية الموجودين في مصر في المشاركة في بناء هذا الملجأ المبتغى. وتقرر إنشاء فيلق تحت اسم فيلق باتيرسون، وهو اسم ذلك الشخص الذي عمل الصهيونيون تحت قيادته لتأمين مصالح بريطانيا في الشرق الأوسط أثناء الحرب العالمية الأولي.

وبالطبع لم يكن في استطاعة جمال أن يعرف أبعاد هذا المخطط في نهاية الأربعينيات، خاصة وأن المنظمات الصهيونية لم تكن تكشف عن طابعها في ذلك الوقت.

ولكن على الجانب الآخر لم يكن خافيًا على جمال أو بعيدًا عن ملاحظته ذلك الاهتمام الواضح الذي تبديه إدارة المستعمر الإنجليزي في إعطاء المزيد من المزايا كل يوم لكبرى الأسر اليهودية العاملة في قطاعي التجارة والصناعة، والمالكة للشركات في هذين القطاعيين أمثال: رولو، موصيري، قداح، عدس، قطاوي، شيكوريل، جاتينيو، جرين، مزراحي. لقد عرف من خلال ما حكاه الكبار كيف أن أسرة قطاوي مثلًا تسيطر على كثير من الشركات والبنوك، وأن لها ممثلًا في شركة قناة السويس، وأنها ترتب بيدها وزارة المالية، وكذلك عائلة شيكوريل التي تحتكر وحدها تجارة التصدير بل ويمتد احتكارها للتأثير في السوق الداخلي للقطن المصري. بل أكثر من هذا حينما كان جمال يدخل دارًا للسينما تطارده الإعلانات التي توضح أن الأفلام المصرية تنتج بواسطة شركات تملكها الأسر اليهودية.

لقد كان الصهيوني روبرت سيمون رولو يسيطر ويقود أضخم الشركات المصرية الصناعية والذي استطاع أن يحوز على لقب "سير". كذلك هناك رجل أعمال آخر من هذه العائلة و يحوز كذلك على لقب "سير" هو روبير جاك رولان. إن هذين الرجلين نالا شكر الصهيونيين على تدعيم مواقعهم داخل الصناعة المصرية.

كذلك أصدر الصهيونيون في القاهرة "المجلة الصهيونية" وبعد ذلك سميت "مجلة إسرائيل" وقد صدرت بثلاث لغات. وعلى صفحات مجلتهم هذه أخذوا يروجون دعواهم عن الأرض العربية وأحقيتهم فيها، مستغلين آلام اليهود في سنوات الحرب العالمية الثانية وملوحين بها. فعلى سبيل المثال أراد الصهيونيون أن يأخذوا شبه جزيرة سيناء التابعة لمصر لإنشاء الوطن القومي لليهود. وهاهم آنذاك يعلنون نيتهم في إنشاء "إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات".

وحينما وجه رئيس الاتحاد العربي في القاهرة فؤاد عباس رسالة احتجاج إلى السفارة البريطانية بشأن نشاط المخطط الصهيوني في فلسطين بدأت الصحافة تضطهد شركته، ذلك لأن كثيرًا من الصحف كانت تعتمد على التمويل المادي من الصهيونيين.

وأما ليون كاسترو المسئول عن المنظمة العامة الصهيونية للسلام في مصر فقد أعلن أن فلسطين يجب أن تكون كلها لليهود أما المنظمة الصهيونية المسماة "كيرن كايميت" وتعني "الصندوق اليهودي القومي" فقد ظلت تعمل في جمع التبرعات من أجل شراء الأراضي في فلسطين وتوطين اليهود هناك. وسرعان ما وقع المعبد اليهودي في مصر تحت تأثير ليون كاسترو. ومن فوق منبره أخذت تنبعث الدعوات المفتوحة والعلنية التي تروج للصهيونية. وهكذا بلغت ذروة المأساة حينما قدمت الأموال المنهوبة من عرق الفلاحين المصريين لتمكين الصهيونيين من شراء الأرض في فلسطين.

لقد بدأ المصريين يفهمون آنذاك أن الصهيونيين الأغبياء سويًا مع المستعمرين الإنجليز ينهبون الوطن ويتاجرون بمصالحه.

في مايو سنة ١٩٤٨ ترقى ناصر إلى رتبة الرائد "صاغ" وتقدم إلى كلية الأركان لنيل صفة أركان الحرب. وفي ذلك الوقت أخذت إسرائيل تنظم مجموعة من الاستفزازات ضد الأقطار العربية، ووجدت الدول العربية (سوريا – لبنان – شرق الأردن – العراق – مصر) نفسها مضطرة لأن تعلن التعبئة العامة، وكانت أولى المعارك لصالح العرب ولكن سرعان ما بدأوا يخسرونها.

لقد دخلت مصر المعركة وهي غير مستعدة حيث أرسلت جيشًا يتكون من عشرة آلاف جندي. كان إمداده بالذخائر والمأكولات غير منضبط، وكانت وسائل اتصاله غير فعالة، وتضاربت أوامر قادته. ورغم ذلك فقد استطاع الجيش المصري أن يسيطر في البداية على غزة ثم على بير سبع، وأخذ يزحف إلى أن التحم بفيلق شرق الأردن. ولكن ذلك لم يدم طويلاً . ذلك أن القيادة الإسرائيلية بمساعدة من الجنرال جلوب علمت بالخطط العربية، وسرعان ما بدأ الجيش الإسرائيلي في تنفيذ هجوم معاكس انتزع بواسطته الجزء الأكبر من الأراضي الفلسطينية.

في هذا الوقت تلقى ناصر أمرًا بالتوجه إلى الجبهة، وفي إحدى الأمسيات ظهر في صالة محطة السكة الحديد ليستقبل القطار المتجه إلى العريش وهو يحمل في يده حقيبة صغيرة، رتبت أشياءها زوجته تحية التي بكت عند رحيله شأنها في ذلك شأن كل السيدات اللاتي يودعن أزواجهن حينما يتجهون إلى ساحة الحرب.

وفي عربة القطار تقابل ناصر مع كل من عبد الحكيم عامر، وزكريا محي الدين، فهما الآخران متوجهان إلى الجبهة، ولكن إلى قطاع أخر "أو وحدة أخرى" وجلس الضباط الثلاثة وأمامهم خريطة، ولكن حتى تلك المعلومات الضرورية لكي يحددوا بها أماكن كتائبهم لم تكن كافية، وفعلاً لم يستطيعوا ذلك على ضوء ما تسلموه من أوامر ومعلومات.

وفي مطلع النهار وصل القطار إلى محطة العريش، وخرج الركاب شبه النيام ومن بينهم كثير من الضباط، ونزلوا على الرصيف الرملي. ولم يكن هناك أي شخص في استقبال جمال، أو عبد الحكيم، أو زكريا. لقد ولى أو سار كل من يملك أن يقول لهم ماذا بعد. وأخيرًا ظهرت عربه جيب قديمة ومتربة.

- ها أنا قد جئت أوامر لمقابلة سيادتكم!

قالها الملازم لجمال وهو يرفع يده بالتحية حيث أردف: إن كتيبتنا موجودة في الفالوجا.

وسلم جمال على أصدقائه مودعًا، ثم دخل العربة. وما هي إلا لحظات حتى أخذت السيارة تنهب الطريق وسط تلال صفراء.

ولاحظ جمال أن الضابط الذي جاء لاستقباله لم يحلق ذقنه أو شعره لمدة طويلة، وأن ملابسه غير نظيفة وغير مطابقة للأصول العسكرية في مثل هذا المجال، فلفت نظره لذلك. وأجاب الملازم:

ـ نحن نعيش في أكثر الظروف صعوبة يا سيدي الصاغ. واستطرد قائلًا: المياه لا تكفي، والهجمات الإسرائيلية مستمرة. والمراسلات البريدية مع ذوينا منقطعة. والكثير منا لا ينام بعض الليالى.

لذا أتيت لاستقبال سيادتك على هذه الحال فنحن نسير طوال الليل في طريق متعرج وموحش. وسأله جمال:

ـ هل تناولت فطورك إذن؟

ـ وأجاب الضابط: ـ لا.

وكانت لدى جمال في حقيبته مجموعة من السندويتشات التي أعدتها له تحية فأخرجها وأكلوا سويًا.

كان الوضع في الفالوجا أسوأ مما حدثه الضابط عنه. والجنود مرهقون في المعارك المتواصلة، والفالوجا تقع تحت الحصار.

وهكذا ارتبط تفكير عبد الناصر في مصير وطنه بأحداث حرب فلسطين فكان دائم الرجوع إلى تجربة تلك الحرب، وخير شاهد على ذلك أن كثيرًا من صفحات كتابه "فلسفة الثورة" تنبض بتلك الحقيقة. إن ناصر ورفاقه في الثورة لم ينسوا أبدًا الكلمات التي قالها أحد أبطال هذه الحرب، وهو الفقيد "أمير لاي" أحمد عبد العزيز الذي أكد لهم قبل استشهاده في أغسطس سنة ١٩٤٨ "تذكروا جيدًا أن هذه الحرب كان أولى أن نخوضها في مصر ذاتها" (وكان يقصد خيانة وإفلاس النظام اليميني الحاكم).

وفي يوليو أصيب جمال بشظية في معدته، وحينما نقل إلى المستشفي بدا وكأنه سيموت. ذلك أنه نزف كثيرًا من دمائه واستمر في حالة سيئة لمدة طويلة. ولكن بفضل بنيته القوية تغلب على هذه الصعوبات وسرعان ما استرد صحته وشفي نهائيًا. وبعد إجازة قصيرة في القاهرة عاد مرة أخرى إلى جبهة القتال.

وفي أكتوبر سقط ما يقرب من ثلث الجيش المصري في مصيدة بين الفالوجا وعراق المنشية. وأصبح الموقف غير مبشر بالأمل...

وأعطت الحكومة المصرية أوامرها للقيادة العسكرية بضرورة إيقاف المقاومة وتسليم الفالوجا. ولكن هذه الأوامر أثارت ناصر وبقية الضباط الذين يتصفون بالوعي والوطنية. لقد كان جمال موقنًا أن الجنود في كتيبته على استعداد للاستمرار في مقاومة العدو، ولهذا قرر ألا يطيع تلك الأوامر.

وجاء شهر ديسمبر وظهرت السحب الرمادية المنخفضة فوق الصحراء. وأخذ المطر ينزل رذاذًا خفيفًا بدت معه الملابس القطنية خفيفة لا تقاوم البرد. كذلك الحال بالنسبة للمأكولات الموجودة في مؤخرة الجيش بدت هي الأخرى غير كافية. وفي هذه الظروف أخذت القوات الإسرائيلية تغير المرة تلو المرة على المواقع القريبة من عراق المنشية. ولكن المصريين رغم ذلك لم يستسلموا، وفي ٢٣ ديسمبر شنت القوات الإسرائيلية هجومًا جديدًا تمكنت خلاله من الاستيلاء على نصف الفالوجا. وأخذ الإسرائيليون يقتنصون القرى التى تحت سيطرة القوات المصرية جزءًا وراء الآخر. وعند ذلك اتصل ناصر عن طريق جهاز اللاسلكي بكتيبة زكريا محي الدين وطلب منه تأمينه بمعاونة المدفعية.

ـ لكن هذا سوف يضعنا تحت الضرب، هكذا أوضح زكريا.

ـ وما العمل؟ لا بد لنا من الخسارة، أجاب ناصر.

وخلال بضع دقائق عبرت الطلقات اللامعة من فوق رؤوس المدافعين عن الفالوجا.

وأعطى ناصر أوامره للكتيبة ببدء الهجوم، وتكبد العدو خسائر فادحة. وفي الصباح ظهرت أمام الفالوجا عربة إسرائيلية وهي ترفع راية بيضاء.

ومن خلال مكبر الصوت انطلق صوت:

- ضابط إسرائيلي يريد أن يتقابل مع مصري!

- أوقفوا الضرب. قالها ناصر وركب هو، وضابطين، ورقيب العربة الجيب.

- أنا ممثل قيادة هذه المنطقة. ومعي أوامر بأن أوضح لكم أنكم محاصرون بصورة كاملة وستؤسرون حتمًا وعليكم أن تسلموا أنفسكم - نطقها الضابط الإسرائيلي بالإنجليزية وهو يرفع من نبرات صوته ويطل برأسه خارج العربة.

- نحن نعرف موقفنا جيدًا. ولكن لدينا في أيدينا السلاح وسوف نقاتل حتى النهاية. أجاب ناصر بلهجة حاسمة.

انتقل الضابط الإسرائيلي إلى التخاطب باللغة العربية، وحينما أصر ناصر على رفض الاستسلام بدأ الضابط الإسرائيلي يطلب إتاحة الفرصة حتى يتم إخلاء المصابين والقتلى من أرض المعركة إلى المؤخرة، ولم يرفض ناصر ذلك، ومثل هذه المقابلات تكررت في بعض الحالات.

وأصبح أمر هذه المقابلات معروفًا بواسطة النشر، فلقد ظهرت على صفحات الجريدة الإسرائيلية "جويش أوبزيرفر" بواسطة الضابط الإسرائيلي الذي قابل ناصر، وكان ذلك الضابط برتبة نقيب أثناء تلك المقابلات، ثم خدم بعد ذلك برتبة عقيد في الجيش الإسرائيلي في أركان إيجال آلون، واسم هذا الضابط هو موردخاي كوجن. كذلك نوه عبد الناصر عن تلك المقابلات شخصيًا في كتابه "فلسفة الثورة". ويلاحظ إيجال آلون أن تلك المقابلات أعطته في حينها انطباعًا عن قوة ناصر.

لقد تأثر ناصر ورفاقه بهزيمة الجيش المصري تأثرًا بالغًا. وأدركوا العلاقة بين حصار الفالوجا وحصار الدول الإمبريالية لوطنهم، وبدأ ناصر يعي بدقة

وتحديد ذلك الرباط الموجود بين الإمبريالية والصهيونية العالمية. ولم يعد عنده أي شك في أن الحكومات العربية الرجعية ما هي إلا مجرد صنائع طيعة لتحالف جبار.

وبعد عودته من الجبهة قرأ ناصر أحد أعمال الصهيوني المعروف ويتسمان الملقب "بأبي إسرائيل" تحت عنوان "التجربة والخطأ". لقد أكد هذا الكتاب النتيجة التي وصل إليها قائد منظمة "الضباط الأحرار" كيف يمكن مواجهة هذا الاتحاد؟

لقد حلت خيبة الأمل المريرة بعد الهزيمة. ولم يهتم الملوك العرب بمصير الفلسطينيين، ولكن الكثيرين من الجنود والضباط الوطنيين احتفظوا بروحهم المعنوية المرتفعة ووقفوا موقفًا مختلفًا.

إن الهزيمة وخيانة الجنرالات والخبراء الأجانب أجبرتهم على التأمل في مستقبل الوطن. إن جلوسهم في الحفر في صحراء فلسطين قد جعلهم يبحثون بعناء شديد عن المخرج من هذا المأزق الذي تعيش فيه الشعوب العربية.

لقد انتظر المصريون بعد انتهاء حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ حدوث أي تغيير في البلاد. فقبل الحرب كان هناك الكثيرون ممن يرون ثمة بارقة أمل تتعلق بشخص الملك، ولكن الآن أصبح الجميع على يقين من أن الملك يقضي الوقت خلف طاولة الروليت، وحينما مني الجيش بالهزيمة تكشفت الحقيقة أنه ليست تلك هي الطريقة الصالحة لقيادة البلاد.

ففي حفر صحراء سيناء الفلسطينية "جبل صهيوني" وتحت وابل الرصاص الإسرائيلي فهم ناصر ورفاقه أن الشعوب العربية مصيرها واحد، وأنها جميعًا تقف إزاء عدو واحد ألا وهو الاستعمار، وأن الكفاح العام يجب أن يعمل على إقامة الوحدة فيما بينهم.

لقد استمر ناصر صامدًا في الفالوجا حتى يناير ١٩٤٩. وفي هذا الوقت بدأت في جزيرة رودس المباحثات بين الدول المتحاربة، الإسرائيليون يأملون أن

تمكنهم الهزيمة الكاملة التي لحقت بالعرب من إملاء شروطهم. وتقديرًا للموقف قرر ناصر البدء في توجيه ضربة مفاجئة. وكان الهجوم الناجح من الفالوجا.

وأخيرًا انتهت مباحثات رودس إلى توقيع الهدنة، واستقرت نتيجة الحرب الفلسطينية عن ضم إسرائيل لستة آلاف كيلومتر مربع من الأراضي العربية في فلسطين، وتم الاستيلاء على كل الأراضي المخصصة لقيام الدولة العربية في فلسطين "حسب قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة" ، وسارعت مملكة شرق الأردن بوضع قواتها في الضفة الغربية لنهر الأردن، ومصر في غزة.

ولكن الأمر لم يتوقف عند حد تقسيم فلسطين إذ أسرعت إسرائيل في اتخاذ مجموعة من الإجراءات التأديبية ضد الفلسطينيين الذين يعيشون في الأراضي المحتلة، حيث أرغمهم الاضطهاد الدموى على هجر أراضيهم والبحث على ملجأ لهم فى الأقطار العربية المجاورة. وفى مكان القرى العربية أخذت تقام المستعمرات "الكيبوتس" الإسرائيلية، وأصبح هناك ٨٠٠ ألف فلسطيني يعيشون كلاجئين في الخيام داخل مخيمات تنصب لهم في الصحراء.

وفي هذه الأوقات استقبلت القاهرة المدافعين عن الفالوجا بحفاوة، وبكت "تحية" من فيض السعادة حينما رأت زوجها العائد ونفضت عنه غبار الصحراء. أمَّا الأطفال الذين لاحظ نموهم، فقد عاملوه على استحياء لبعض الوقت وترددوا إزاءه في البداية.

لقد جاءت هذه الأيام بالأسى إلى ناصر. فبمناسبة إنتهاء الحرب كان من المفروض أن يجرى عرض في القاهرة. تشترك فيه كتيبة الفالوجا التي أدت أعمالًا بطولية. ولكن الملك منع الكتيبة من السير وهي تحمل السلاح الذي استولت عليه من العدو.

وفي هذا البلد أدان من خسر الحرب المنتصرين فيها. لقد أصبحوا مطعونين وطالبي ثأر. وأحس ناصر هو ورفاقه أنهم أهينوا إهانات عميقة.

وما هي إلا فترة قليلة حتى أحس ناصر بأنه في موضع الاشتباه من قبل السلطة. لقد كان رئيس الوزراء إبراهيم عبد الهادي يتحسب منذ مدة من وجود علاقة وثيقة بين جماعة الإخوان المسلمين التي اضطلعت بأعمال الإرهاب بصفة رئيسية – وبين تلك المنظمة السرية التي كان مقتنعًا بأنها تعمل في الجيش.

وفعلاً في مايو ١٩٤٩ استدعى رئيس الوزراء إبراهيم عبد الهادي الرائد "الصاغ" جمال عبد الناصر إليه. لقد كان يظن أن الصاغ ناصر يعرف بعض من أفراد "الضباط الأحرار".

وبدون مواربة اتهم رئيس الوزراء ناصر بالاتصال بمنظمة سرية وأنه يمولها بالأسلحة، ولكن ناصر أجاب بأنه خلال الفترة الماضية ولمدة حوالي سنة كان على جبهة القتال في فلسطين، ولهذا فليس بمقدوره أن يعلم شئ عن المنظمات التي تعمل في القاهرة.

وسأله رئيس الوزراء:

ـ ولكنك كنت على معرفة بمحمود لبيب عضو منظمة الإخوان المسلمين؟

وأجاب ناصر: طبعًا – وبدون خوف استطرد قائلًا – كنا نقاتل سويًا في فلسطين.

ـ ولكن من الذي عرفكما ببعضكما؟ سأله إبراهيم عبد الهادي وهو يظن أنه قد حاصر ناصر بهذا السؤال وأحكم عليه الحلقة.

وأجاب ناصر: النقيب أنور السياجي.

ـ أين يسكن؟

ـ عفوًا يا سيدي الرئيس، إن النقيب أنور السياجي استشهد في الحرب.

هنا كاد صبر إبراهيم عبد الهادي أن ينفذ، خاصة حينما ارتسمت ابتسامة شفاه جمال عبد الناصر، وقال محتدًا:

هل تضحك علي! وأنا رئيس الحكومة والشرطة؟ هل تفهم كيف تتعامل معي أو تفهمك الشرطة؟

- أفهم.

ولكن رئيس الوزراء لم يكن يمتلك أي وقائع يستطيع بها أن يدلل على اتهامه لجمال عبد الناصر.

ولم تمض غير فترة وجيزة، وعلى وجه التحديد في نوفمبر ١٩٤٩ حتى كانت القوات المسلحة تقرأ المنشور الذي كتبه جمال عبد الناصر، وقال فيه ما يلي:

"إننا نفكر ما هي العبرة التي يجب أن يستخلصها الوطن من حرب فلسطين، وما هو الدرس الخطير الذي يجب أن يتلقنه أي شخص مسئول ويبسطه أمام الجيش وينبه أفراده إليه: الدرس الذي يستقيه من إعداد الجيش وتسليحه.. إن على الجميع واجب، الحكومة والشعب عليهم أن يستخلصوا العبرة من تلك التجربة، ولكن ما العمل وليس هناك غيرنا في مصر قادر على ذلك. السلطات تستمر في عيشها وسط مظاهر الترف والسعادة تتمتع بالأعياد بل وتخلق المناسبات لها متناسية الشعب الذي يئن تحت وطأة الفقر، والجوع، والمرض".

وفي نهاية المنشور التوقيع باسم "الضباط الأحرار" ومنذ ذلك التاريخ ظهرت المنشورات داخل القوات المسلحة واستمرت دون انقطاع.

في أكتوبر ١٩٥١ كان هناك ٦٠ ألف عامل ومستخدم يعملون لدى القوات البريطانية في منطقة قناة السويس. ولقد اجتمع هؤلاء جميعًا على موقف واحد هو الامتناع عن التعاون مع قوات الاحتلال. بل أكثر من هذا اتخذت الأحزاب السياسية العاملة بالبلاد قرارًا بتكوين جماعات مسلحة من الفدائيين. لقد استفاد ناصر من تلك الأجواء. واتخذ تنظيم الضباط الأحرار قرارًا بضرورة المشاركة في إمداد وتجهيز جماعات الفدائيين في عملياتهم ضد الإنجليز في منطقة قناة السويس. وبسرعة فائقة ما لبثت مقاومة المصريين أن اتخذت طابعًا عنيفًا مما دعي "لندن" إلى أن تزيد من عدد قواتها في منطقة قناة السويس. لقد كان الفدائيون يشنون كل ليلة غاراتهم على الوحدات العسكرية البريطانية، وعلى مخازن المؤن والذخائر، وعلى تحركات العسكريين الإنجليز في المنطقة.

واستمرت قوات الشرطة المصرية "بلوكات النظام" في تأييدها العلني للفدائيين. وفي يومي١٧-١٨ يناير ١٩٥١ حدث صدام بين قوات الاحتلال وقوات الشرطة المصرية في الإسماعيلية وبعد ذلك وخلال ما يقرب من نصف شهر نشبت معركة كبيرة من الجانبين في مدينة السويس وكفر عبده. سالت فيه دماء آلاف من المصريين. لقد قتل فقط في الفترة من ١٦ أكتوبر حتى ٥ ديسمبر ١٩٥١ في منطقة القناة ١١٧ مصريًا، وجرح ٤٣٨ شخصًا، ومع ذلك لم توقف هذه الإجراءات العنيفة حركة الفدائيين.

وذات مرة وقف اثنان من الفلاحين يرتديان جلبابين فضفاضين أمام مدخل الإسماعيلية على الكوبري ومعهما حمار ينوء بجر عربة محملة بأجولة مليئة ببرتقال ذهبي اللون. ورغم طول وقوفهما النسبي لم يعرهما الحراس الإنجليز من الجنود الذين يتناوبون حراسة الكوبري أي اهتمام، ولكن إزاء تلكؤهما ووقوفهما وهما يقتربان من الجانب الأخر، تقدم منهما ضابط إنجليزي مهندم وسألهما عن سبب توقفهما.

أجاب أحد الفلاحين: لا شئ غير أننا نسعى إلى القرية المجاورة لنشتري بيضًا.

وما إن أغلق شفتيه بتلك الإجابة, حتى همًا بالبدء في المسير.

ولكن الضابط قرر أن يفحص الحمولة للتحقق منها، ومد يده ليمسك بالبرتقال الذي انسحر بلونه الفاقع. في تلك اللحظة اندلع انفجار هائل. لقد كانت تلك الواقعة في يوم ١٩ يناير ١٩٥٢.

لقد كان انفجار كوبري الإسماعيلية بمثابة الشرارة التي اشتعل بعدها الحريق. فخلال عدة أيام هاجم الفدائيون مخازن الأسلحة في الإسماعيلية. وبدأ الإنجليز يبحثون عن كيفية تطهير المدينة. وأعد الإنجليز حملة تأديبية اشترك فيها سبعة آلاف مقاتل قامت بأسر آلاف المصريين، ووضعهم في معسكرات بالصحراء.

ومع ذلك ففي اليوم التالي لتأليف تلك الحملة أغار الفدائيون مرة جديدة على مخازن الأسلحة الإنجليزية. فقرر القائد العام للقوات الإنجليزية في منطقة القنال الجنرال أرسكين أن يقوم بتلقين المصريين درسًا خطيرًا لن ينسوه.

ففي ٢٥ يناير ١٩٥٢ دعا قوات "بلوكات النظام" الموجودة في الإسماعيلية للانسحاب، بينما أخذت الدبابات الإنجليزية تزمجر في شوارع المدينة بعد أن تركت مخابئها وسط حدائق الما نجو. وأخذ الإنجليز يجوبون شوارع المدينة وبنادقهم معلقة على أكتافهم.

وحـول وحـدات بلوكات النظـام أخذ الإنجليـز يصدرون الأوامـر إلى تلك القوات بأن تلقي سـلاحها. هنا اتصل قائد بلوكات النظام بالقاهرة تليفونيًا. فأعطـاه وزيـر الداخليـة في حكومة الوفـد فؤاد سـراج الدين الأمـر بالمقاومة. ولم تكـن قـوات البوليس هذه تملـك غير أسـلحة الدفاع الشـخصي الخفيفة مثـل البنـادق، في الوقت الذي أحكمت فيـه القوات الإنجليزيـة الحصار حول معسـكر بلوكات النظام وطوقته بدباباتهـا. ولكن الضابط المصري تصرف كبقيـة المصريين حيث أرسـل إلى الجنرال أرسـكين بأنه سـيقاوم حتى آخر طلقة. وهنا بدأت القوات الإنجليزية الهجوم.

واسـتمرت المعركـة ثـلاث سـاعات متواصلـة اسـتخدم فيهـا المصريـون أسـلحتهم حتى آخر طلقـة بل أخذوا يسـتخدمون الحجارة أيضًـا. وفي النهاية أسفرت هذه المعركة الدامية عن ٤١ قتيلًا و ٧٢ جريحًا.

وفي لمـح البصـر ذاع نبأ هذه المذبحـة التي قام بها الاحتـلال الأجنبي في أرجاء الوطـن كله. وكما كتب عبد الناصر في أحد المنشـورات "على أرض مصر، وبأيدي المحتل الأجنبي يستشهد المصريون."

اسـتعد الوفد للقيام بمظاهرة احتجاج في اليوم التالي. وكان من المحتم أن يـؤيدها طلبة جامعات مصر الثلاث. وطالب قومندان "بلوك النظام" في القاهرة من البوليس الاشتراك في هذه المظاهرة. وفي اجتماع طارئ عقده مجلس الوزراء تقـرر فيه المطالبة بقطع العلاقات الدبلوماسـية مع إنجلترا، والقبض على مئة شـخصية إنجليزيـة معروفة، ممثلـة للإنجليـز في مصر كرهائـن. وأوصت القنصلية البريطانية في تلك الأيام الجالية البريطانية بعدم مغادرة المنازل.

كان الملـك فـاروق كعادتـه يقضـي شـهور الشـتاء في القاهـرة بقصر "القبة" وتطل شرفة القصر على منظر رائع للحقول الخضراء، ولصفوف النخيل الممشـوقة. وكان الجو مشـبعًا برائحة الـورد، وفي أراضي القصـر كان الملك يقوم بجولات يومية في الصباح على حصانه.

وعـادة ما كان فاروق يسـتقبل زواره من الأجانب والـوزراء في قصر آخر، عابدين، في قاعة خاصة تطل نوافذها على الحديقة.

حينمـا ظهـرت البـوادر الأولى للمظاهرة أمام قصـر عابديـن، كان الملك يسـتعد للاحتفال بمناسـبة ميلاد ابنه. فخدم القصر يجربون وضع الوشاحات الحمـراء التي خيطت على أكتاف الخدم النوبيين السـود فارعـي القامة. ووزع رئيس الديوان الملكي على المراسـلة بطاقات الدعـوة المطبوعة على ورق غالٍ مكتوب عليها أسماء عائلة الملك فاروق.

دخل يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ تاريخ مصر تحت اسم "السبت الأسود". هاجت الجماهير أمام القصر هاتفة:

"اعطونا السلاح! إننا ذاهبون لندافع عن إخواننا".

وسرعان ما امتلأت كل الطرق المؤدية إلى القصر بالمتظاهرين الذين اتجهوا إلى ميدان الأوبـرا. وهناك عند "كازينو الأوبرا" حيث كان الضباط الإنجليز يفضلون الترويح عن أنفسـهم فيه، كانت راقصات فرقة بديعة، يتلوين شبه عاريات بالرقص الشرقي، وهنا وقع الحادث الذي على أثره بدأت حوادث الشغب.

ويروي الشـهود أنه عندما دخل المتظاهـرون إلى الميدان وأمام الكازينو لمح شـخص منهم ضابـط بوليس مصري يجلـس وبجواره راقصة مـن راقصات فرقة بديعة. فصاح أحد المتظاهرين قائلًا:

"عـار عليـك أن تجلـس هنـا وتلهـو مـع الفتيـات وإخوانـك يموتـون في الإسماعيلية".

رد عليـه الضابـط بوقاحة. فمـا كانـت إلا دقائق معـدودة حتى كانت كراسـي وترابيزات "كازينو الأوبرا" محطمة. وسـرعان مـا اضطرمت النيران تصحبهـا صرخات استحسـان الجماهـير. وكان موقع قوات الإطفـاء يبعد عن مـكان الحـادث بخطـوات. وإلى أن تحركت عربـات الإطفـاء إلى الكازينو كانـت النيران قـد تطايرت إلى المباني المجـاورة وفي النهاية بـدأ رجال الإطفاء عملهم. في هذه اللحظة قام أحد المتظاهرين بقطع خراطيم الإطفاء.

وبعد بضع ساعات أشعلوا النيران في دار سينما "ريفولي، ومترو"، وطاف أناس في المدينة ممسكين بالمشاعل في الأيادي وأحرقوا المحلات، ودور السينما، والبارات، والفنادق والنوادي المملوكة للأجانب. وتصاعد الدخان من شرفة محلات "شيكوريل" كما أحرقوا محل "جروبي"، ومبنى "باركليز بنك"، وشركة "كريزلر للسيارات".

اقتحمت مجموعة أشخاص النادي البريطاني بغتة، حيث كان يجلس فيه أربعة أفراد، سكبوا البنزين على الكراسي والمناضد، وأحرقوا النادي. وعندما حاول البريطانيون الأربعة الإفلات إلى الشارع، أعادوهم ثانية إلى النادي، أعيدوا إلى الموقد. كما حاول أحد البريطانيين الموجودين في الطابق العلوي الهبوط بحبل من الملايات، فوقع على الرصيف محترق القدمين، بعد اشتعال النيران في الحبل.

فندق "شبرد" بالقاهرة مبني على الطراز العربي، وكان مشهورًا في العالم أجمع. حيث فرشت في صالاته أغلى الموبيليات المطعمة بسن الفيل. ويرتدي الجرسونات فيه القفاطين البيضاء، حاملين القهوة العربية في فناجين غالية من الخزف. وأمام مدخله عادة ما كان عشرات الحرفيين يبيعون مصنوعاتهم. دخله نفس هؤلاء الأشخاص، فأدخلوا النزلاء حجراتهم، وانتزعوا ستائر النوافذ. وفي الحال تحولت الموبيليا إلى حطب، صب عليه البنزين وأشعلوا فيه النيران.

ويلتصق بالفندق مبنى كان مكانًا تجتمع فيه الطبقة العليا في المجتمع القاهري. كان هذا المبنى هو نادي المهاجرين الروس، وفيه حضر الملك بنفسه بعض حفلاته. وكان الضباط البريطانيون الشباب منهم يعتبرون أن حمل بطاقة عضوية النادي الروسي ميزة. وأمكن الحفاظ على المبنى من الحريق.

وأنقذ السور الحديدي المرتفع المحيط بالقنصلية البريطانية المبنى من التحطيم، إذ دار حوله قتالًا متلاحمًا.

حـاول عمال أحد المشـاريع بضواحـي القاهرة الدخول إلى وسـط العاصمة لإخماد الحرائق، أوقفتهم في منتصف الطريق دورية إنجليزية.

ولنفـس هذا السـبب لم يتمكـن الأشـخاص المرتبطون بالضبـاط الأحرار الوصول من وسط المدينة إلى هيليوبوليس لإبلاغ عبد الناصر بالأحداث المحزنة.

مـع الليل بدأت عمليات نهب عامة في المدينة، فسـرق من فترينات المحلات النجف الكريسـتال القيَم ، وصناديق الشمبانيا والويسكى، بروايز الصور المذهبة، أثواب القماش، الموبيليا.

وصل الجنود ... فأبعدوا مشـعلي النيران ومحرضي الشـغب، حيث زجوا في عربـات الجيـب الواقفة في حالـة اسـتعداد، ولم تتمكن قوة مكونـة من مئة وخمسـين جنديًا من التصـرف حيال تلك التجمعات الهائجة في الشـوارع، والتي وصل عددها إلى الآلاف.

هنـاك من حاول اسـتخدام غضب الجماهـير لتحقيق أهدافـه، فأعد حريقًا منظمًـا بالقاهرة، ولـذا لم يحدد تحديـدًا قاطعًا إلى أي تجمع ينتمي مشـعلو الحرائـق. فأرجع الماجور "سينسـوم" الذي كان يعمـل في المخابرات البريطانية الذنـب على الضباط الأحرار، على حين أنه لا الضباط الأحرار، ولا الشـيوعيون الذيـن لصقت بهم أيضًـا التهمة، ولا التنظيمات اليسـارية الأخـرى كانوا في حاجة إلى مثل هذا الحريق.

فاسـتغل الحريـق ذريعة للإرهـاب. إن التعصب الذي تتميـز به تنظيمات الإخوان المسـلمين يُمكّنها من الإقدام على مثل هذه الخطوة غير العاقلة، وهو ما كان القاهريون يصدقونه. وأكد الصحفي السـويدي فوشـيه الذي كان يعمل مراسلًا في القاهرة لـ "جرنال دي جنيف"، وواحد من أوائل من كتبوا عن عبد الناصر بالإضافة إلى كونه شاهدًا شخصيًا لأحداث "السبت الأسود" أكد أن لندن استخلصت من تلك الحوادث فوائد مباشرة.

بعد حريق القاهرة أوقف نشاط "الفدائيون"، ولم يبد الملك بدوره أي نشاط حتى يقضي على أي إخلال بالأمن. كان كل شئ يشير إلى تواجد اتفاق بينه وبين المخابرات البريطانية. فكتب فوشيه بأنه كانت هناك ضمن الذين شاركوا في الحريق وجوه معروفة بعملها مباشرة في خدمة قوات الأمن الإنجليزية.

وعن مشاركة كل من الملك والإنجليز في حريق القاهرة كتب أيضًا اللواء محمد نجيب في مذكراته، فهو يعتقد بدوره أن الملك أراد عن طريق هذا التدخل أن يضع أكثر الأشخاص قرابة له على دفة الحكم.

في هذه اللحظة، لحظة تشبث آلاف الأيدي بنوافذ القنصلية الإنجليزية، كان السفير «سير رالف ستيفنسون» لم يقرر بعد سحب القوات من قناة السويس. كان مترددًا، مدركًا أن القوات المصرية في هذه الحالة يمكنها أن تلجأ للمقاومة، حاول السفير الاتصال بالرادار، وأجيب بعد ذلك بأن وزير الداخلية مشغول بشراء بيت. فطلب رقم تليفون رئيس الوزراء النحاس باشا (وهو الذي تولى في يناير ١٩٥٠ رياسة مجلس الوزراء الوفدي) فكان عند رجل المانيكير.

بينما ثارت الملكة ناريمان، في قصرها عدة مرات من الفزع، مما أساء إلى صحتها بعد الولادة. كان كل من حولها يصور لها أن القصر يحترق، وأن اللهب سيلتهم المولود الجديد أحمد فؤاد.

ومن نافذة القصر وقف الملك فاروق يشاهد الدخان الأسود المتصاعد في سماء العاصمة المصرية، وكان عليه أن يقرر ماذا سيفعل مع الوزارة. كان واضحًا أنه لا يمكن أن يظل النحاس باشا في السلطة. فاقترح أحد الأشخاص تشكيل وزارة عسكرية يرأسها قائد مصلحة السجون السابق حيدر. ورأى الملك أن هذا ليس بالقوة الكافية لتغيير الوضع.

وقال: "لا جدوى من أن أعهد إلى حيدر بمصير البلاد".

وسكت الحاضرون بإجلال.

ـ "هـل تسـتطيع أنت أن تشـكل حكومـة؟" وجه الملك كلامـه للحاج إسماعيل. سكت السياسي القديم ومدبر الدسائس.

ـ "أنتم جميعًا جبناء. ولهذا سيشكل على ماهر الوزارة."

ولم يكن بين الحاضرين واحد يرغب في رؤية رئيس الوزراء على ماهر.

ـ الأستاذ الهلالى يمكن أن يأخذ على عاتقه تلك المسئولية، قال أخيرًا ذلك رئيس الديوان الملكي حافظ عفيفي.

ـ "من هو هذا الأستاذ؟" سأل الملك بعصبية.

ـ "نجيب باشا الهلالى" أجاب شخص ما.

وقطع الملـك الحديـث قائـلاً: "فليكـن كلامكم هكـذا. أنـا أعرف المستشار الملكي نجيب الهلالي. أمّا الأستاذ الهلالى فأنا لم أتعرف عليه".

كلـف حافظ عفيفي بالذهـاب فورًا إلى نجيب الهـلالى باقتراح تكوين الحكومة. وخيل إليه وسـيارته تمرق بشـوارع العاصمة إلى المعادى، كما لو أن المدينة قد تعرضت لقصف جوي. حيث تتصاعد إلى السماء سحابات الدخان، وفترينات المحلات محطمة، والسـيارات محترقة، وتسـمع أصـوات الطلقات في كل مكان.

وعـاد حافظ عفيفـي وكان الاجتماع في القصر الملكـي لم ينته بعد، فنظر إليه الجميع بتلهف.

فقال: "اقترح الهلالى بأن يشكل الحكومة علي ماهر".

فأعلن الملك "فليكن إذًا علي ماهر".

وكان علـى حافـظ عفيفي أن يغـادر ثانية القصـر. وكان طريقه في هـذه المرة من خـلال العاصمة إلى جزيرة الزمالك، حيـث كان يعيش الإنجليز

والأرستقراطية المصرية. والزمالك كان يخيم عليه الهدوء الواضح، وكان المصري لا يستطيع أن يصل إلى هنا إلا إذا أبرز بطاقة خاصة. هنا كان كل شئ هادئًا مريحًا حقًا كما لو أن شيئا لم يحدث.

تولى علي ماهر رياسة الوزارة بمساندة الإنجليز عشية الحرب العالمية الثانية. ولكن عندما استعد روميل لوثبته على إفريقيا، في تلك اللحظة غير علي ماهر من اتجاهه، وأصبح يعمل على "حياد" مصر. وعزله الملك تحت ضغط الإنجليز، فقام علي ماهر في البلاد بحملة معادية للإنجليز، وعاود الملك شجبه، فكف علي ماهر عن ذلك. إلا أنه بعد انتهاء الحرب عمل بأقصى قواه لكي يزكى في أعين الإنجليز. وكان كل المحيطين بالملك يخشونه، ولكنه الآن والآن بالذات أصبح مفيدًا ليس فقط للإنجليز بل وللملك أيضًا.

دخل حافظ عفيفي منزل علي ماهر مساءًا، مقترحًا عليه باسم جلالة الملك منصب رئيس الوزراء.

في اليوم التالي إثر مقابلته مع الملك، وفي لحظة وصول علي ماهر عائدًا إلى الفيلا مع مساعديه بعد أن أعد نداءًا للشعب، رن جرس التليفون، قال المتحدث: طلب الملك أن يؤجل علي ماهر فورًا تشكيل الحكومة.

وعلق أحد أصدقائه على ذلك بقوله: "يجب عليك – وفي الحال إبلاغ جلالته هذا الشرط ..."

"إذا لم تشكل الحكومة الليلة، فلن تصبح بعد ذلك رئيسًا للوزارة".

فطلب علي ماهر حافظ عفيفي، وقال له: "صاحب السعادة – من الضروري تشكيل الحكومة فورًا".

"ولكننا اتفقنا على أن يؤجل ذلك للغد".

"أخبر جلالته بأنه إمًا أن تشكل اليوم. وإمًا لا ...."

وكان فاروق مضطرًا للرضوخ للإنذار. وبدأ اثنان وثلاثون يومًا من إدارة حكم علي ماهر، فوقع مزيد من الاضطهادات على عاتق المصريين.

كتب الكاتب المصري المعروف عبد الرحمن الخميسي

"بدأ شركاء الملك فاروق بعد حريق القاهرة متابعة أثر الفدائيين الذين انضموا لصفوف المقاومة فزج بهم في السجون. ووضعت السلطات هؤلاء الذين اتحدوا من أجل المعركة العسكرية ضد الإنجليز في منطقة قناة السويس- تحت المراقبة والتجسس.

فانتشر البوليس السياسي في المنازل، في المؤسسات، في الأماكن العامة، وعثر على أعضاء المنظمات، وتم القبض عليهم وترحيلهم إلى المعتقلات الموجودة بالصحراء".

وعلى الرغم من ذلك لم يقبض على عضو واحد من "الضباط الأحرار"، فالسرية التامة التي حرص عليها عبد الناصر كانت هي محور أمن التنظيم.

وعندئذٍ بدا أن آمال الملك في "شخص قوي" يستطيع إنقاذ الموقف لا طائل من ورائها، وفشلت كل الإجراءات التي اتخذها علي ماهر، فلم يعد الشعب يثق في أي حكومة يمثلها الباشاوات والإقطاعيون، وسرعان ما اضطر علي ماهر إلى تقديم استقالته، وبدأت لعبة التغيير المستمر في الوزارات، فتم تغير ٦ وزارات في فترة ما بين يناير إلى يوليو ١٩٥٢، وفقد الملك السيطرة على البلاد.

مع بداية سنة ١٩٥٠ تكون مجلس قيادة الثورة لتنظيم "الضباط الأحرار" والذي اختير فيما بعد عبد الناصر رئيسًا له، وبدأ الاستعداد الفعلى للقيام بانقلاب ثوري، وقدر "الضباط الأحرار" أن البداية ستكون ما بين سنة ٥٤، ٥٥ ولكن ما جرى من أحداث في سنة ١٩٥٢ جعلت الثوار يغيرون من خططهم.

فكر عبد الناصر متسائلًا: "ألم يحن بعد وقت العمل؟" هل "الضباط الأحرار" مستعدون؟ - هل قوتهم كافية؟.

وأجاب بنفسه على تلك التساؤلات " لا ".

في هـذه الأيام كان عبد الناصر يدرك أنه من الضروري تنشـيط الإعداد التحضيري.

ورد "الضباط الأحرار" على حريق القاهرة بمنشور جاء فيه:

"يأمـل الخونـة في إحـراز نصر بمسـاعدة الجيـش، بينمـا دور الجيش هو المعركة من أجل الحرية والاستقلال، وإذا ما خرج الجيش إلى الشارع فلمقاومة الخونـة فقط، ولا يجب أن تطلق بندقية رصاصة واحدة ضد المتظاهرين، وأن لا يقبض على متظاهر واحد بمساعدة الجيش، هذا ما يجب أن يدركه الجميع، ومنذ اليوم فالجيش مع الشعب وسيقف معه إلى النهاية".

رأى ناصر أن رئاسة قيادة الثورة يجب أن تكون لشخص عسكري برتبة عالية، حتى يفيد في كسب احترام الشعب والجيش.

وتساءل أحد "الضباط الأحرار":

ما رأيك في اللواء المصري؟

"أليس مسنًا". علق بذلك جمال عبد الناصر.

واقـترح البعض اللواء فؤاد صـادق، المعروف بنزاهته وبطولته التي برزت في الحرب الفلسـطينية سـنة ١٩٤٨، قرر عبد الناصر إرسـال صلاح سـالم للتشاور مـع صـادق، وأتضح أن اللواء المبجـل يطمع في أن يصبح قائـدًا للأركان، قال له سـالم: أنه يمكن العثور في الجيش على مجموعة من الأشـخاص يمكنهم أن يحققـوا له مثل هذا الأمل، وفجأة رن التليفون، رفع صادق السـماعة وخرج ليتحدث في غرفة أخرى، وبعد دقيقة عاد وهو مشرق الوجه.

لقـد أخبروني بـأن جلالتـه يرغـب في تعييني قائـدًا للأركان، قـال ذلك باعتداد.

واتضح أن اللواء لا يمكن أن يصبح زعيما للثورة.

ثم وقع اختيار عبد الناصر على اللواء محمد نجيب، الذي حصل أيضًا على شعبية في حرب فلسطين.

بدأ عبد الحكيم عامر يتحدث مع نجيب تدريجيًا على تنظيم "الضباط الأحرار" دون الكشف عن أهدافه، وتصادقا سويًا مع مرور الوقت، حتى إن عامرًا أصبح يمر على نجيب في منزله، بينما كان عبد الناصر يؤمن بأن نجيب لا يملك كل الصفات الضرورية للقائد، حقيقة أن عامر أكد بأن عمله في "تربية" اللواء تسير بنجاح.

وقرر الملك – ما كان غير متوقعًا – تعيين اللواء حسين سري عامر قائدًا لحرس الحدود بدلًا من اللواء نجيب، وكان "الضباط الأحرار" يعتبرون سري عامر عدوًا خطيرًا، فها هو يحتل أحد المناصب الهامة في الجيش.

ورغب الملك أيضًا في أن يجعله رئيسًا لنادي الضباط بالجزيرة، وهو ما يتم عن طريق الانتخاب، وقرر عبد الناصر أن لحظة إظهار قوة التنظيم قد جاءت.

اصطحب عبد الحكيم معه عبد الناصر في إحدى زياراته لمحمد نجيب، وشعر اللواء محمد نجيب بأنهما يدرسانه، "... ولكنني لم أصب بخيبة أمل" – كما تذكر هو فيما بعد – لأنني كنت قد وصلت لنتيجة، وهي أن خلاص مصر مرهون بهؤلاء الضباط الشبان".

ثم تعددت اللقاءات بين عبد الناصر وعامر باللواء محمد نجيب في شقته، وبالتدريج تعلموا كيف يتفاهمون معًا، وسرعان ما اختير محمد نجيب رئيسًا لقيادة تنظيم "الضباط الأحرار"، ولكن بهدف السرية لم يشترك في الاجتماعات السرية ولا في عملية الإعداد للانقلاب، وفي اللحظة التي وقع فيها الانقلاب كان اللواء نجيب لا يعرف إلا خمسة أعضاء فقط من الأعضاء التسعة لمجلس قيادة الثورة.

واتصل عبد الحكيم عامر بتكليف من ناصر باللواء نجيب وأقنعه بترشيح نفسه في انتخابات رئاسة نادي الضباط، وأقنع "الضباط الأحرار" زملائهم بالتصويت لصالح نجيب.

وفي الاجتماع الاستثنائي اقترح ناصر أن يقفوا دقيقة تكريمًا لذكرى أحد الضباط الأحرار الذي قتله البوليس بإيعاز من الحاشية، وتكهرب على الفور الجو كله.

ظهر بعد فرز بطاقات الانتخاب أن ٨٠٪ من مجموع الأصوات كانت في صالح محمد نجيب.. بخلاف دخول عضوان أيضًا من الضباط الأحرار في المجلس وكان هذا تحديًا مكشوفًا للملك. وهو ما شعر به الملك نفسه، وطالب بإعادة الانتخابات، وفي نفس الوقت ألغى القرض الذي رصد لإنشاء مبنى جديد للنادي. أمَّا اللواء محمد نجيب فعين في أحد مواقع الجيش الموجودة بالصحراء.

وسرعان ما عرف أن اللواء حسين سري عامر مشترك في خديعة كبرى "فالذخيرة التي أودعت المخازن المصرية كانت مباعة عن طريق مهربين إسرائيليين، ونشر "الضباط الأحرار" على وجه السرعة منشورًا طالبوا فيه بالإسراع بمحاكمة سري عامر أمام محكمة عسكرية. ففي الوقت الذي كان واضحًا فيه أن الملك لا يرغب في معاقبة أحد قادة جيشه، كان "الضباط الأحرار" قد قرروا إعداد محاولة لاغتيال اللواء الفاجر. فدرسوا عادات اللواء سري عامر وبرنامجه اليومي جيدًا، وفي اليوم المحدد اختبأت المجموعة المكلفة بالقيام بالمحاولة في مكان ليس ببعيد عن منزله، وعند خروجه للشارع دوت الطلقات، وكان ناصر مشتركًا بنفسه في تلك المحاولة، وتمكن هو وزملاؤه من الإفلات من متعقبيهم.

ولم ينم ليلتها عبد الناصر بعد عودته إلى بيته، فظل يدخن سيجارة وراء الأخرى، ولكنه أيقن الآن أن فكرته عن الإرهاب صحيحة – فالإرهاب يعتبر مجرد وسيلة قاصرة في المعركة، وأن الأعمال الخطيرة لا تفيد إلا من حيث كونها عامل يساعد البوليس في بحثه عن أعضاء التنظيم.

وعندما أحضرت له زوجته في صباح اليوم التالي الصحف، أخذها منها بلهفة شديدة، وما أن علم أن سري عامر ما زال حيًا حتى هدأ ناصر قليلا، "... وفي الليل إلى المؤرقة وأنا أتذكر نفسي وأنا أجوب من طرف في غرفة النائب العمومي إلى طرفها الأخر، كنت أسأل نفسي سؤالًا: "هل يمكن تغيير مصير البلاد تغييرًا حقيقيًا إذا ما اغتلنا شخصًا أو آخر؟"، كتب ذلك ناصر فيما بعد في "فلسفة الثورة"، وكانت إجابتي عن قناعة كاملة: يجب علينا أن نغير التكتيك..إن جذور المشكلة تمتد أكثر عمقًا في التربة، إنها أكثر جدية..."

حاول البوليس معرفة المشتركين في تنظيم "الضباط الأحرار" ولكن عبد الناصر كان منظمًا ممتازًا للأمور السرية، فهو على سبيل المثال لم يذكر مطلقًا اسمه الحقيقي في أي محادثة تليفونية مع زميل له في الحركة، وعادة ما كان ناصر يسمي نفسه في مثل تلك الحالات بزغلول، وكان المستجدون على التنظيم يتعرضون لتجارب دقيقة للغاية قبل أن يسمح لهم بإنجاز أية مهام، "وعندما اقترح واحد من قادة إحدى المجموعات الثورية ضم منظمته إلى تنظيم "الضباط الأحرار" أجابه عبد الناصر بأنه من بعد الفالوجا أبعد نفسه تمامًا عن هذه الأعمال ... "أريد أن أعيش وآكل عيش فقط." قال ذلك لأنه كان لا يثق في هذا الشخص.

أدرك "الضباط الأحرار" جيدًا ما يحدث في الجيش وفي البلاط، استغل صلاح سالم ثقة وزير الحربية وأبلغه عن عمد معلومات كاذبة، كما قام أنور السادات بعمل نفس الشئ في البلاط عن طريق الدكتور يوسف رشاد.

عين خالد محيي الدين عضو مجلس قيادة الثورة مسئولًا عن الدعاية في الجيش، «كتبنا المنشورات الأولى - كما يذكر - بالاشتراك مع ناصر، وكان علينا لطبعها ونسخ عدد منها أن نستخدم آلة طبع أحد عمال السكك الحديدية، وعندما اكتشفه البوليس أصبحنا نطبعها في منزل الضابط حمدي عبيد، فكنا نذهب إليه على أننا نسمع الموسيقي، على حين أننا في الحقيقة كنا نقوم عنده بكتابة المنشورات بحضور عبد الناصر،

ثم تنسخ وتوزع على الضباط ويتم توزيعها عن طريق البريد، وهي ليس بالعملية السهلة. ومع الوقت كان من الضروري تكوين مجموعة خاصة تنحصر مهمتها فقط في كتابة العناوين على الأظرف وحملها إلى البوستة، وأوكلت هذه المهمة إلى أربعة ضباط ماركسيين».

ولكن لم يكن البوليس غافلًا. وسرعان ما اضطررنا إلى تغيير مكان "المطبعة" إلى شقة سرية لإحدى المنظمات الماركسية، التي كان لها نشاط في مصر في ذلك الوقت، وهي منظمة "حدتو". وأصبح العمل جاريًا على الوجه التالي: نحضر الموضوعات، فيقوم إخوان من "حدتو" بطبع المنشورات، ثم نقوم نحن بتوزيعها في الجيش، وكان يتولى أحيانًا كتابتها أحمد فؤاد أحد الماركسيين المصريين المعروفين والذي أصبح فيما بعد مستشارًا لعبد الناصر.

كان برنامج "الضباط الأحرار" يطبع في نسخة واحدة فقط كلفت أنا بمسئولية حفظها. وعند انضمام ضباط جدد إلى التنظيم كنا نعطيهم النسخة لقراءة البرنامج، ثم تعاد إلي مرة أخرى، وتقوم بعد ذلك زوجتي بإخفائها.

سميت هذه الوثيقة "ببرنامج العمل" وتضمنت عدة مبادئ:

القضاء على الاحتلال والإقطاع، إنهاء سيطرة رأس المال على الحكم، العدالة الاجتماعية، الحياة الديمقراطية، إنشاء جيش وطني قوي.

ولم يكن تنظيم "الضباط الأحرار" التنظيم الوحيد داخل الجيش فكان يعمل بجانبه تنظيم آخر يعتبر فرعًا من "حدتو" وكان يرأسه أحمد فؤاد.

كان بتنظيم صغار الضباط عدد غير قليل من الماركيسين وكان اسم قائدهم عبد القادر طه، الذي قتل قبل قيام الثورة بشهرين برصاص الرجعيين وأطلق المصريين اسمه بعد الثورة على أحد شوارع القاهرة.

وكانت الأفكار السياسية لتنظيم "حدتو" وهي إحدى المنظمات الماركسية العديدة الموجودة في البلاد منتشرة بقدر كبير في الجيش.

فكان للماركسيين دور دائم حتى وسط "الضباط الأحرار".

بعد تقييم الوضع في البلاد طالبت "حدتو" بتحقيق ثورة ديمقراطية، وإنهاء الاحتلال الأجنبي وهو ما جعل برنامج التنظيم الماركسي قريبًا ومفهومًا من "الضباط الأحرار".

وعندما قامت الثورة أيدتها "حدتو" منذ اليوم الأول لقيامها.

كتب كثير من المؤرخين الغربيين، وكتاب سيرة عبد الناصر ومنهم على سبيل المثال "روبرت ستفنس"، كتبوا عن علاقات "الضباط الأحرار" و"الإخوان المسلمين" وهي علاقات كانت في الحقيقة قائمة. ولكن تأثير "الإخوان المسلمين" على "الضباط الأحرار" كان أقل بكثير من تأثير التنظيمات اليسارية الديمقراطية. وفي هذا يمكن الرجوع لبرنامج العمل الذي اتخذه مجلس قيادة الثورة.

حدد ناصر بدء العملية في مارس سنة ١٩٥٢. ولكن حدث أن تخلى رشاد مهنا - وهو أحد الضباط الأحرار - عن التنظيم وهرب. فوقع بذلك عبد الناصر ورفاقه تحت التهديد. فتقرر تأجيل الانقلاب إلى سبتمبر.

مع بداية يوليو إلى نهاية سبتمبر اعتاد الملك الاستجمام في المنتزه، وكانت تصحبه إلى هناك أسرته وكل الحاشية، من حلاقين، ورجال "ماساج"، والطهاة والسائقين، والحرس.

فكان الملك يجلس مساء في الشرفة مستمعًا للأوركسترا الذي يعزف بهدوء موسيقى حديثة. وكان يتردد على القصر ضيوف كثيرون، خاصة السيدات الشابات الجميلات. وتخفت الأنوار في منتصف الليل ويهيم الملك راقصًا. وفي فترة السكون تلك التي اعتاد عليها الملك ينسى جلالته كل المآسي التي تحيط به.

وكان الوزراء ينتقلون إلى الإسكندرية جريًا وراء الملك. ويتوقف العمل في المؤسسات الحكومة فعليًا في هذه الفترة.

وغادر عبد الناصر القاهرة بجوها الحار بعد أن تسلم تصريحًا بالإجازة. وفي مكانه المريح الجديد كان يفكر ويتأمل تفاصيل العملية. ولكن في ١١ يوليو وصل إليه استدعاء يطلب منه العودة إلى الأكاديمية لإعداد أوراق الامتحانات. وكانت الزوجة والأولاد غير راضيين عن قطع الإجازة.

أمَّا عبد الناصر فقد كان سعيدًا؛ لأنه كان يرغب في العودة للقاهرة سواء بهذا الأمر أو بغيره. إلا أن تنقل الضباط كان مراقبًا ومتابعًا بشدة. وإذا بهذا المخرج المقبول للغاية للعودة للقاهرة.

تواجد بالقاهرة أربعة أشخاص فقط من الأعضاء التسعة لمجلس قيادة الثورة، وسرعان ما لحق بهم العضو الخامس عبد الحكيم عامر، الذي منحته القيادة أجازة قصيرة بسبب مرضه، وطلب منه عبد الناصر أن "يطيل في مرضه".

كانت المعلومات التي وصلت من مصادر التحري تفيد بأن الملك يعد العدة لضرب "الضباط الأحرار" فأعطى أمرًا في ١٥ يوليو بحل مجلس نادي الضباط وعزل الضباط من مناصبهم. وكان من المتوقع إذن إجراء اعتقالات.

ـ "والآن يتحدد السؤال: من يعتقل من؟" قال ذلك عامر.

في ١٦ يوليو طالب عبد الناصر باجتماع هام لمجلس قيادة الثورة. واجتمعوا في منزل ثروت عكاشة، وجاء كل من جمال ومحي الدين، وطالبا كما هي العادة بإدارة إسطوانة "شهر زاد" وسرعان ما سحرتهم الموسيقي. جلس عبد الناصر بعيون حالمة مستمعًا باهتمام وعندما انتهت، نهض جمال وأغلق الجهاز قائلًا.

ـ "سنبدأ مع بداية الشهر القادم". تذكر ذلك ثروت عكاشة. نوقشت في الاجتماع مسألة كيفية تحرك "الضباط الأحرار" في الظروف الجديدة. فاقترح البعض القيام بعدة اغتيالات للمقربين من الملك والمحتلين الإنجليز. وكان عبد الناصر مازال يذكر حتى هذا الوقت محاولة اغتيال سري عامر. ورفض عبد الناصر نهائيا عمليات الإرهاب. وفي ١٨ يوليو عقد اجتماع جديد أعلن فيه صراحة أن الإرهاب لن يصل لشئ. وشرح عبد الناصر ضرورة إعداد الجيش للثورة.

واتفق على أن يذهب ناصر وعامر و يجلسا مع نجيب ويشرحا له أهدافهم. وتوجها في اليوم التالي إلى شقة اللواء نجيب. ولكن كان عند نجيب ضيفان أحدهما ضابط شاب، والثاني صحفي محمد حسنين هيكل. فجلسا قليلًا وسألا عن اللواء نجيب وصحته، ثم غادر الصديقان المنزل.

توجه ناصر إلى مبنى القيادة، ولحق به هناك عامر، وكمال الدين حسين. وجلسوا يعدون طوال الليل تفاصيل خطة الثورة.

قال عبد الناصر: "تكفينا كتيبة واحدة من ضمن التسع كتائب الموزعة في القاهرة".

ـ هذه لعبة كبيرة. علق ملاحظًا كمال الدين حسين.

ـ ولكن ليس لدينا إلى الآن ولا دبابة واحدة. مضيفًا عامر. وليس لدينا سوى عشرة أشخاص من قوات الطيران".

أضاف جمال مؤمنًا على الكلام قائلًا: "ولهذا فالنجاح يتوقف على سلامة توقيت تنفيذ الخطة".

وقال عامر: " يجب أن يدعى أنور السادات من سلاح الإشارة".

ولكنه في سيناء. قال مذكرًا كمال الدين حسين.

فلنرسل له طائرة – قال عبد الناصر – وإذا لزم الأمر ليخطف حسن إبراهيم طائرة.

وطار حسن إبراهيم بعد ساعات معدودة إلى سيناء. في نفس الوقت الذي أبلغ فيه عبد الناصر كل الأعضاء الموثوق بهم في تنظيم "الضباط الأحرار" ليتواجدوا في القاهرة في ٢٢يوليو بدون تأخير. وأخبرهم باحتمال قيام الثورة، وطالبهم بالبقاء في منازلهم في الساعة الثالثة ظهرًا حتى صدور أوامر أخرى.

ويروي خالد محي الدين أن الخطة التي اقترحها عبد الناصر كانت واضحة وبسيطة. ففي الساعة المحددة كان يجب على "الضباط الأحرار" أن يدخلوا الثكنات، وأن يقبضوا على قيادات الجيش ووضعهم تحت التحفظ. كما كان بالتالي من المهم إبعاد الذين لا علاقة لهم بالحركة، وحدد لكل مشترك في الثورة الأماكن التي يجب الاستيلاء عليها. اقترح ناصر أن تحتل كتيبة المشاة الثالثة عشرة القيادة بينما على الفرق الأخرى الاستيلاء على مطار ألماظة، والإذاعة، والكباري، ومكتب البريد والتلغراف، على أن يتقابل الثوار جميعًا في القيادة.

كان ناصر ينام دقائق معدودة في تلك الأيام. وقلقت عليه زوجته، شاعرة بأن هناك ما يشغل زوجها. وكان يرد على أسئلتها بابتسامة.

وفي إحدى الليالى عندما وصل زوجها رأته وهو يضع تحت السرير سلة بها برتقال. وبكرت تحية في الاستيقاظ كما هي عادتها لإعداد الإفطار. وقررت إعداد عصير برتقال. وعندما كشفت السلة، عثرت على قنابل تحت البرتقال، وقالت تحية لجمال وهي تضع الإفطار:

"أظن أنك أصبحت قوي العضلات منذ أن بدأت تحمل هذه السلال".

سكت جمال، فهو في البداية لم يخبر زوجته بنشاطه السري. ولكنها كانت تستطيع أن تتنبأ بذلك.

وفي القاهـرة صيفًـا وتحت قيـظ أيامه ينتشـر الضباب. وفي المسـاء فقط تعمل نسـمة الهواء الخفيفة على تلطيـف الجو. ومع بداية حلول الظلام تضاء المدينة بأنوار الإعلانات. ويجلـس المرهقون من قيظ النهار على الكازينوهات الممتـدة على شـاطئ النيل المنسـاب. وكانـت الشـوارع الرئيسـية للمدينة مكتظة في تلك الأيام بمن يلبسـون الماس والذهب اللامع، بينما كان هناك من لا بيوت لهم ينامون على الأرصفة في الحواري المظلمة والرطبة.

وفي المنتزه وليلة ٢٢ يوليو كان هناك عيد. إذ أتم وريث العرش احمد فؤاد سـتة أشـهر من عمره. فالملكة ناريمان سـعيدة منتعشة بعد اسـتحمامها في البحـر، وبـدأت بعد أن أخذت "دوشًـا" في إصدار آخر أوامرها. فهي قد نسـيت في فترة وجودها في البحر الأحداث الحزينة ليوم "السبت الأسود".

عقد "الضباط الأحرار" في ٢٢ يوليو – أي في عشية الانتفاضة آخر اجتماع، في شـقة خالد محي الديـن. حددت فيه مرة أخرى الدقائق والتفاصيل المرسـومة للخطـة، ووقع اختيار المشـتركين في العملية على كلمـة "النصر" كلمة السر.

وأعد عبد الناصر كشف ال٩٩ عضوًا الذين كان يجب أن يكونوا على علم بكلمة السـر، أمّا بخصـوص الأعضاء الآخرين في التنظيـم فلم يعلموا بالثورة. وتحدث عبد الناصر في هذا اليوم إلى الـ ٩٩ عضوًا في الحركة شخصيًا. موضحًا أمامهم المهام المحددة والدقيقة. وكانت سـيارته الأوستن السوداء تمرق في شوارع القاهرة طوال اليوم.

وكان لدى أعضاء الثورة كشـف آخر بأسماء العشرين لواء الذين ينبغي اعتقالهم.

منـع الثوار بعد أن اسـتتبت لهم السـيطرة على الثكنات دخـول الضباط حاملي رتبة رائد فأعلى.

تم الإبقاء على صلاح سـالم في سـيناء حتى لا يسـمح بإيفاد أية قوات من هناك لإخماد الثورة.

بينما كانت مسئولية خالد محي الدين هي الاستيلاء على منطقة العباسية ذات الموقع الإستراتيجي الهام، حيث كانت تتواجد ثكنات الجيش. و يحاصر عبد الحكيم عامر القيادة العامة. وعبد الناصر يقود العملية بأكملها.

وكان من الضروري إبلاغ أعضاء التنظيم بالإسكندرية حيث يوجد بها الملك، والحكومة، والعديد من القنصليات الأجنبية. وقرر ناصر إرسال أخيه إلى هناك.

وبعد الاجتماع ذهب عبد الناصر إلى السادات، ولكنه لم يعثر عليه في بيته. ولم يكن من الممكن انتظاره. فترك له بطاقته، واتجه جمال لإخبار الضباط الآخرين.

واجتمع ضباط كتيبة المدرعات بمنزل ثروت عكاشة. وأعلنوا أنهم في حاجة إلى رشاشات، ووعدهم عبد الناصر بالمساعدة.

ولم يبق إلا العثور على الضابط المسئول عن مستودع الذخيرة السري. وكان بدوره غير موجود بمنزله.

وأكمل عبد الناصر طريقه. ووقع ما لم يكن متوقعًا، إذ استوقفه ضابط بوليس.

ـ ما الأمر؟ سأل جمال.

ـ الفانوس الخلفي عندك لا يضئ.

وبعد مهاترة طويلة ركب الضابط في النهاية الموتوسيكل. واستمر عبد الناصر في المرور على الضباط. وقرر العودة للمنزل بعد أن أرهق إرهاقًا شديدًا. كانت زوجته قد نامت هي والأولاد. بينما جلس أخواه الليثي وشوقي بجوار الراديو.

وأخذ جمال "دوشًا". وأثناء ارتدائه لملابسه دق الباب، وأيقن جمال على الفور أن الطارق عسكري. ودخل الملازم أول سعيد توفيق وهو لم يكن ضمن كشف الـ ٩٩، وخشى عبد الناصر أن يعتمد كلية عليه وسأل سعيد وهو يقف أمام المدخل.

ـ جمال ماذا يحدث؟

فهز جمال رأسه دلالة على عدم فهم معنى السؤال.

ـ ماذا سيتم مساء اليوم؟

وعاد جمال وهز رأسه مدخلًا إياه داخل الشقة.

ـ لماذا إذن ترتدي الزى العسكري؟

ـ هل جئت تستجوبني؟ سأله جمال بحزم.

ـ بل جئت لأقول لك، يجب تأجيل الهجوم.

ـ تأجيل ماذا؟

ـ الهجوم ـ الذي أعددته.

ـ لماذا؟

ـ لقد أبلغوا.

ـ من ذا الذي أبلغ؟

ـ إن فاروق يعلم بالانقلاب. واتصل بالقائد العام.

ـ هكذا إذن. ومن أيضًا.. تكلم بسرعة؟

وكانت تلك ورطة جديدة.

ـ أمر القائد العام باستدعاء جميع قادة الألوية والفرق في قيادة الجيش إلى كوبري القبة.

ـ وكيف علمت بذلك؟ سأله جمال وهو مازال مأخوذًا من كلامه.

وشرح له سعيد قائلًا:

ـ إنـني الضابط النوبتجي الليلة في قيادة المخابرات وانتهزت بالكاد دقيقة لكي أحضر أليك، إنني أستسمحك – بإرجاء العملية.

ـ لا. هذا مستحيل – أجابه جمال مصدقًا أخيرًا سعيد. إن الترس بدأ يدور. هل يمكنك إعادته؟

ـ لا – أجابة سعيد بطريقة مفاجئة. إنني سأبقي معك. فأنا مثلك "ضابط حر". فطلب عبد الناصر من سعيد الإسراع بالعودة إلى منزله لاستبدال ملابسه، على أن يحمل سلاحه، وينتظره في المكان المحدد.

وبعد ذلك تحدث جمال لإخوته قائلًا:

ـ " إنـني أملـك مائتي جنيه. مئة أخذتها لنفسي، والمئة الثانية أعطيكما إياها. فإذا حدث لي شئ فلترعوا أسرتي..."

ثم ركب سيارته واتجه إلى عامر. وفي لقائه بـه أخبره بالاجتماع العاجل للقيادة.

ـ لـو نتمكن مـن اعتقالهم جميعًا وفورًا ! قال ناصر ذلك .. وكان الهجوم محددًا في الواحدة مساءًا. وتشير ساعة جمال إلى الحادية عشرة و٤٢ دقيقة. واقترح عامر "فلنذهب إلى الثكنات، ونثير الجنود".

وكان بـاب الدخول الرئيسي للمدينة العسكرية مغلقًا. وعلى غير المعتاد تواجدت أعداد كبيرة من البوليس الحربي أمام المداخل لحراستها. كما أغلقت الأبواب الأخرى التي مروا عليها.

وتساءل جمال :" فمن عمل هذا؟".

فأجابه عامر: "فلنحاول الدخول من الجهة الأخرى".

وتذكر جمال الآن فقط أنه لم يذهب لسعيد توفيق، وكانت الساعة الحادية عشر وخمسون دقيقة، فقرر أن يكون عند كلمته وأن يعود إليه، وبجوار جامعة عين شمس، شاهد ناصر وعامر أمامهم صفًا من العربات المدرعة.

إن الأعداء يتحركون بسرعة، قال ناصر ذلك ضاغطًا على الفرامل.

أعتقد أنهم الثوار، قال عامر.

وتوقفا جانبًا، وعندما اقتربت العربات الأولي أدرك ناصر وعامر أنها الكتيبة الثالثة عشرة.

وعلى غير المتوقع أمر ملازم بمحاصرة عربة ناصر "الأوستن".

يمكنك أن تذهب من هنا..صاح بوقاحة في عامر وهو بملابسه المدنية..أمَا أنت أيها الضابط فأنت معتقل، وحرك المسدس أمام أنف عبد الناصر.

ففي هذه الليلة كان محظورًا تجول الضباط في شوارع المدينة، وبدأ يظهر عبد الناصر نفاد صبره، ومرَ الوقت، كان من المفروض أن يكون القادة قد انتهوا من اجتماعهم، ويستطيعون إعطاء الإشارة.

قال جمال للضابط: إني أعرف قائدك.

أنت لا تعرف أحد، أنت لا تعرف ما هي تلك الليلة. وفي هذه اللحظة مرت سيارة جيب.

ـ جمال – سمع صوتًا يناديه – ماذا تفعل هنا؟.

تعرف جمال على القائمقام يوسف صديق قائد الكتيبة، وكان جمال قد طلب منه في الصباح عدم الاشتراك في الانقلاب، لأنه كان مصابًا بالسل، وكان صدره ينزف عشية تلك الليلة، ولكن يوسف كان ماركسيًا مولعاً بالثورة، وهو الآن يبتسم سعيدًا، وكان أغلب الضباط الموجودين في الكتيبة طلبه عند ناصر في الماضي.

قال جمال:

ـ لقد قبضوا علينا.

ـ وقائد فرقتنا أيضًا قبض عليه، أضاف يوسف محدثًا جمال. اجلس في عربتي، فالمجموعة المكلفة بتنفيذ المهمة مستعدة. وتصور عبد الناصر الموقف كله في خطوطه العامة.

فقال جمال: على كتيبتك الآن أن تعتقل القادة المجتمعين حتى الآن دون إبطاء.

وأعطى الأمر، وتابعت الكتيبة مسيرتها، وحاصرت مجموعة صديق القيادة، حاولت قوات الحراسة المقاومة، واستمر إطلاق النار عشر دقائق، على إثره خرج القادة من المبنى رافعي الأيدي.

قال جمال:

ـ بزيادة ثمانية من العدد المكتوب في الكشف.

في هذا الوقت ظهر أنور السادات، منفذًا لتكليف ناصر استطاع حسن إبراهيم أن يتواجد في سيناء وأخبر السادات بأن الثورة ستقوم في الفترة ما بين ٢٢ يوليو و٥ أغسطس، فركب السادات القطار بعد أن ادعى للقائد أن والدته مريضة، فوصل القاهرة يوم ٢٢ يوليو، ولهذا لم يجده ناصر في هذا اليوم في بيته، فكان من الضروري إسناد هذه المهمة إلى ضابط آخر.

كتب السادات يقول:

«وصلت القاهرة في الرابعة والنصف، فقررت قضاء الليل مع الأولاد في سينما صيفي، وهي تقع على مقربة من المنزل، على أن أتواجد صباح اليوم التالي عند عبد الناصر لأتسلم منه التكليف الموكل إلي. في هذا الوقت حضر عبد الناصر إلي بعربته المعروفة "الأوستن" فلم يجدني بالمنزل، ثم عاد ومرَّ علي بعد ساعة، وترك "كارت" مكتوبًا عليه "الخطة ستنفذ اليوم مساءًا. عند عبد الحكيم عامر في الحادية عشرة».

«وبعد عودتي من السينما – مستطردًا السادات – أسرعت إلى عامر، ولكنه لم يكن موجوداً».

في البداية أردت الذهاب إلى القيادة العامة، فإذا كانت العملية ستبدأ فمعنى هذا أن الثوار سيتوجهون بالضرورة إلى هناك. فمرقت في شوارع القاهرة بأقصى سرعة يمكن لسيارتي السير بها. وبجوار نقطة حراسة العباسية أوقف ضابط العربة. وعلى الرغم من أنه ما زال ملازمًا إلا أنه قال لي بصوت صارم عندما نظر إلى أكتافي:

- اذهب إلى فرقتك وانتظر في الصباح أوامر أخرى.

تابعت سيري إلى نقطة السواري، ولكن الطريق كان مغلقًا، ترامت إلى أصوات طلقات من ناحية القيادة. فأدركت أن العملية بدأت، قررت أن أعبر مسرعًا من خلال قواتنا، ولكن الضابط لم يسمح لي لأنني كنت لا أعرف كلمة السر، فكان موقفي حرجًا للغاية، فأنا لا أعرف كلمة السر، كنت أستطيع فقط أن أجتاز طريقي على جثة الضابط الشاب، فماذا يمكن إذن عمله؟

فعدت بالسيارة، واتجهت إلى كوبري القبة لكي أصل إلى المدخل الآخر للمستشفي العسكري، فوجدت الطريق مغلقًا هو الآخر، ولكن تعرف علي ضابط الحراسة إذ كان ملازم ثانٍ خدم معي في رفح، وأمضينا معًا فترة طويلة

هناك. هدأت.. وسرت بالعربة إلى البوابة. وبدأ الأمل يعود إلي. إذ أنه رغم كل هذا الذي حدث فسأشترك في العملية.

وما كدت أقترب من البوابة حتى سمعت صوت صديقي الملازم يأمرني بالتوقف. ثم اقترب مني محدقًا في وجهي. ولكن وجهه لم ينبئ بشئ طيب، فصديقي هذا لم يكن يعلم أنني من "الضباط الأحرار" وأمر باعتقالي.

وشعرت بضيق في صدري. وكان رأسي على وشك أن ينفجر. وبدون جدوى حاولت أن اشرح له، ولم تنفع تلك الصداقة التي كانت تربطنا.. فهو لم يصدقني لعدم معرفتي لكلمة السر، لم أستطع أن أفكر في شئ، وأصوات الطلقات أصبحت أكثر وضوحًا.

وفجأة دب في الأمل. عندما ترامى إلي وأنا واقف مع الضابط الذي اعتقلني على الكوبري صوت عامر. ! وانتعشت، ومرت عربات حاملة الجنود والضباط. وكانت تلك هي قواتنا العسكرية الثائرة.

ـ عبد الحكيم، عبد الحكيم. أنا أنور.

واتجه نحوي عامر. فقط في تلك اللحظة أفرج عني الملازم. وسرت مع عامر. وأعطاني عامر مسدسًا إذ كنت بلا سلاح. كان عبد الحكيم في هذه الليلة مسلحًا حتى أخمص قدميه.

قال عامر:

ـ استسلمت القيادة العامة.

* * *

لا ينـام سـكان القاهـرة في ليالى الصيـف الحارة. ولا تهـدأ الضوضاء في الشـوارع حتى سـاعات النهار الأولى، ولكـن في هذه الليلة انقضت الشـوارع، وخبـت الأنوار في المنازل، وأسـرع أصحـاب المحال بالإغلاق ووضـع المزاليج على أبوابهـم. ففي هذه الليلة زمجرت أصوات الدبابات في شـوارع العاصمة المصرية. وتحركت طوابير الجنود. وظن الناس أن الجيش الإنجليزي المرابط على القناة سيدخل القاهرة.

ـ في هـذه الليلـة المشـهودة – يحكـي خالد محي الديـن – «كان علي أن أتحـرك بالكتيبة المدرعة للاسـتيلاء على المراكز الهامـة الواقعة في منطقة العباسية – هليوبوليس. كان الجنود يعرفونني، ولهذا لم تكن هناك صعوبة كبيرة في إقناعهم بالحركة.

قلت لهم: أيها الجنـود إن وطننا في موقف صعب، في هذه اللحظات الحرجة يطلب منا مجلس قيادة الثورة بأن نقوم بواجبنا.

كان هذا كافيًا لتتحـرك الكتيبة في ثوانٍ تحت قيادة ضباطها. إلا أنه ظهـر في الثكنات ضابطًا، كان في إمكانه أن يفشـل العملية كلها، فما كان منا إلا أن اعتقلناه.

ونفذ السـهم. وأمرت الجنود بالاسـتيلاء على الأماكـن التي حددها ناصر، واستولينا عليها جميعًا تقريبًا بدون مقاومة».

بعـد أن تأكـد ناصر أن العملية تسـير وفـق الخطة الموضوعـة، اتجه إلى مبنـى القيادة وجلس علـى المكتب وبجواره التليفـون. ولم يكن قد نفذ أمر قطع الاتصالات بعد. ولكنها الآن أصبحت في أيدي الثوار، فهم يستطيعون من خلالها معرفة ما يدور في مناطق البلاد الأخرى. وبعد دقيقة واحدة رن التليفون. اتصل اللواء النجومي من الإسكندرية طالبًا معرفة مكان القائد العام.

ـ الباشا يتفقد المواقع. أجابه ناصر.

ـ مع من أتشرف بالحديث؟ ـ سأله اللواء الذي لم يهدأ.

ـ الضابط النوبتجي.

واستمر اللواء في حديثه قائلًا:

ـ لقد تمكنوا من إبلاغي بالتليفون بأن طلقات الرصاص تسمع في الشوارع، ثم قطع الاتصال. ما الذي يدور في العاصمة؟

ـ لا شئ غير عادي. مهدئًا إياه جمال.

وانتصر الثوار. ولكن كان ناصر يعتقد بأنه يجب الاحتراس, خاصة وأن السلطة مازالت في أيدي الملك. وإن كان "الضباط الأحرار" المحليون قد تسلموا رسالة عبد الناصر، إلا أنهم تشككوا في صدقها.

وكان جرس التليفون يرن بلا انقطاع. فما كان من جمال إلا أن يرفع السماعة ويرد بآلية:

جمال عبد الناصر. من المتكلم؟

ـ ماذا تفعل عندك يا جمال؟ سأله صوت مندهشًا، وكان في هذه المرة صوت لواء سابق كان أستاذًا لجمال.

ـ "سيادة اللواء – من الأفضل في هذه اللحظة أن تكف عن توجيه الأسئلة. اذهب واخلد للنوم. "راميًا" بغيظ سماعة التليفون".

وظهرت أمام مبنى القيادة العامة للجيش فرقة من الجنود. أراد اللواء المهان مهاجمة الثوار، ولكنه أدرك أن قائد الفرقة أعلن تأييده للثورة.

وبعد دقائق عاد رنين التليفون مرة أخرى. فرفع جمال السماعة وكان المتحدث اللواء نجيب.

ـ "لقد اتصلوا بي من الإسكندرية يستفسرون، ويريدون معرفة ما الذي يدور في القيادة العامة للجيش." بادئًا نجيب الحديث.

ـ ثار الضباط الأحرار..اليوم مساءًا. ولقد أرسلت لك سيارة..

ووصل محمد نجيب في الثالثة صباحًا. دخل وهنأ جمال بالنصر ثم جلسوا للتشاور حول الموقف في البلاد.

* * *

تم تكليف علي صبري قائد مخابرات القوات الجوية بالتواجد في القيادة، كلفه ناصر بإبلاغ السفارة الأمريكية على وجه السرعة بالانقلاب. وأنه تم تعيين اللواء محمد نجيب قائدًا للثورة. "وأخبر الأمريكان أن الثورة ليست موجهة ضد الحكومات الأجنبية. واطلب منهم أن يبلغ السفير الأمريكي هذا للسفير البريطاني".

وخلال بضع دقائق اتصل علي صبري وقال أنه تم الاتصال بالسفارة الأمريكية تليفونيًا، وأن السفير الأمريكي "كافري" وعد بإبلاغ كل شئ للإنجليز.

وبهذه الطريقة هدأ عبد الناصر من توجس الأمريكان. وهي خطوة ذكية إذ تصور الأمريكان أن بإمكانهم أن يتوقعوا التعاون مع النظام الجديد؟ حيث أن ممثليه اهتموا بإبلاغ سفارتهم، وهو بدوره ما دعى لندن إلى الحذر لكونها علمت بالانقلاب عن طريق السفارة الأمريكية.

وجاء من فرق الاستكشاف الموجودة على طريق السويس أخبارًا سارة. فأبلغت بأنه لا توجد أية تحركات مقصودة من جانب القوات الإنجليزية.

وظهر في الرابعة صباحًا اليوزباشى المجهد حسين الشافعي الذي روى:

"خرج القائد العام من الإسكندرية لمعرفة حقيقة الأمر فوقع مباشرة في أيدينا، حاول في البداية التهديد فقبضنا عليه، واستولت قوات الثوار على المواقع الإستراتيجية، من بينها الإذاعة، والمطار، ومحطة السكة الحديد..

ولكن في نفس الوقت تمكن اللواء سري عامر من الهرب وهو ما أقلق قليلًا عبد الناصر.

وفي الخامسة صباحًا جاءت مكالمة تليفونية من الإسكندرية. وكان المتحدث رئيس الوزراء نجيب الهلالي. فأعطى ناصر السماعة لنجيب. وبعد محادثة طويلة ومملة اقترح رئيس الوزراء أن تشكل حكومة جديدة على أن يعين فيها نجيب وزيرًا للحربية. وكان هذا يعني أن الملك قد بدأ يتنازل. وكان القصر في فزع، ورفض نجيب الاقتراح بعد تشاوره مع ناصر وعامر.

أعد عامر نص بيان الثورة لنشره في الصحف. واجتمعوا اجتماعًا قصيرًا لمناقشة مسألة تقديم محمد نجيب للشعب. ونصح عبد الناصر بأن يلقب "بالقائد العام للقوات المسلحة المصرية". ووافق الجميع.

وفي السابعة من صباح يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢، توجه أنور السادات إلى مبنى الإذاعة وأذاع نيابة عن اللواء نجيب بيان الثورة التاريخي، والذي بدأه صورة مهيبة:

"أيها المصريون - إن بلدكم يعيش الآن أعظم لحظات تاريخية". وتحدث اللواء نجيب أمام مجموعة كبيرة من الصحفيين الذين اجتمعوا بعد إعلان البيان في الراديو.

واستدعي ناصر أحد أصدقائه وخاطبه قائلًا:

- "اذهب إلى زوجتي وارو لها كل شئ. وقل لها إنني قد أقسمت بأن لا أعود إلى بيتي إلا بعد مغادرة فاروق أرض مصر"..

ثم اجتمع مجلس قيادة الثورة حيث نوقشت فيه المشاكل المتعلقة بتشكيل الحكومة. واقترح جمال أن يكلف بها علي ماهر أو شرح وجهة نظره قائلاً:

- "من المهم أن يكون شخصًا له مكانه كبيرة لدى القصر. "شخص في إمكانه أن يجعل فاروق يوقع على وثيقة التنازل عن العرش".

وكلف أنور السادات بالاتصال بعلي ماهر فوجد أن رئيس الوزراء المقبل يأخذ حمامًا. ولكن قبل أن يفهم السياسي المخضرم أي شئ عن ماهيه هذه الثورة التي حدثت في البلاد، بدأ يفند الاتهامات ضد الملك الواحدة تلو الأخرى باستفاضة ومهابة كما هي عادته، ووعد في النهاية بأن يفكر في الأمر..

وظهر اسم اللواء محمد نجيب على الصفحات الأولى لصحف العالم أجمع، وخرج صباحًا في المدينة، وفي كل مكان ظهر فيه التفت حوله جماعات القاهريين الفرحة تهنئه. ولكن كان القليلون هم الذين يعلمون أن هناك زعيمًا سريًا للثورة. وظلّ عبد الناصر ضابطًا متواضعًا غير معروف في نظر الأغلبية المطحونة من المصريين.

وقد كتب ناصر فيما بعد:

"لقد أمرت بأن لا يكشف النقاب عن أي فرد إلا اللواء نجيب. كنت أريد أن يركز الضوء كله حوله. والسبب الرئيسي في هذا يرجع إلى خوفي من حدوث انقسام في صفوف "الضباط الأحرار". كنا جميعًا سننا يتراوح بين الثانية والثلاثون، والرابعة والثلاثون، باستثناء خالد محي الدين فقد كان أصغرنا".

كنا جميعًا في نفس الرتبة تقريبًا. وكنت أدرك أن الإنجليز وأعداءنا في الداخل سيحاولون ضرب بعضنا بالبعض الآخر إذا ما أعطيناهم نحن هذه الفرصة. ولكني حرصت على أن أجعل شخصًا يكبرنا جميعًا كنجيب رئيسا لنا، بذلك افترضت أننا سنبقي على الوحدة فيما بيننا».

وتم فرض رقابة شديدة في البلد لمتابعة عدم تسرب أسماء أعضاء مجلس قيادة الثورة للصحف.

وكتب اللواء نجيب خطة عمل للثورة . وعندما مرَّ على الانقلاب بضعة أسابيع تمكن أحد الصحفيين الإنجليز المعروفين من الحديث مع عبد الناصر، واندهش الصحفي!

إنه يناقش كأنه شيوعي - أسرَّ الصحفي الإنجليزي بانطباعاته تلك إلى هيكل - ألا تستطيع تنظيم مقابلة مع نجيب؟

فلقد كان ناصر قليل الاهتمام بالصحفيين الأجانب.

وانتصرت الثورة. ولكن تسربت إشاعات بأن الملك الموجود في الإسكندرية يعد تحركًا ضد الثورة. وكانت سرعة التحرك واجبة. فأصدر عبد الناصر أمرًا بتوجه فرقتين إلى الإسكندرية تحركت واحدة عبر الصحراء، والأخرى عبرت عن طريق دلتا النيل. وجاءت في اليوم التالي أخبار فحواها أنه قبض على سري عامر في الصحراء، وهو الآن في طريقه إلى القاهرة تحت الحراسة.

وقرر ناصر أن يرسل أنور السادات إلى الإسكندرية، وقال له وهو يودعه: لا تنس أنه على الملك أن يغادر البلاد فورًا.

وخلال عدة ساعات رن جرس التليفون. وعلم "الضباط الأحرار" أن نجيب الذي طار مع السادات إلى الإسكندرية قد قوبل بابتهاج.

بيد أن شيئًا ما أوجب اليقظة. إذ أن لا أحد ممن كانوا في الإسكندرية كان على علم بالمكان الذي يوجد فيه الملك.

وأمر عبد الناصر بأن تبدأ التحريات بسرعة. وعن طريق بعض التحريات عرف أن الملك يجري اتصالات مع الإنجليز وطلب استدعاء قوات من القناة.

ووصلت قوات الثورة الإسكندرية في الليلة التالية لتحركها. وعين عبد الناصر خالد محي الدين قائدًا للعملية، أمّا السادات فعليه إعداد الوثيقة التي سيقدمها علي ماهر للملك.

وفي نفس الوقت كان مجلس قيادة الثورة يبحث موضوع الخلافات التي أثيرت حول المصير النهائي للملك. فصلاح سالم كان يؤيد حكم الإعدام. والسادات كان يهدف إلى إتمام أمر ناصر بمغادرة الملك للبلاد فورًا. بينما زكريا محي الدين كان مترددًا. ولم يشترك نجيب عامة في المناقشة. ووصل القاهرة في صباح اليوم التالي جمال سالم، الذي طالب بدوره بالإعدام.

وعقد الأعضاء الخمسة المتواجدون في مجلس قيادة الثورة اجتماعًا. تحدث في بدايته جمال سالم، ثم تلاه ناصر قائلًا:

ـ إذا أعدم الملك فاروق فسيمزق الشعب غدًا أكثر من ٣٠٠ شخص من أتباعه، وهذا يجرنا إلى مجازر جديدة لا يمكن إيقافها.

وبعد نقاش حاد استمر عدة ساعات وقفت الأغلبية في صف ناصر.

كانت هناك من اليوم الأول بعد نجاح الثورة صفات ساعدت أكثر من مرة على أن يتماسك جمال ويبتعد عن حافة الضياع: الحذر، الاعتدال، التقدير. مبديًا الحسم والصلابة في لحظات الهجوم الثوري، فلم يرغب ناصر بالمقامرة الآن بعد أن نجحت الثورة.

ـ من الضروري التخلص من فاروق بأقصى سرعة ممكنة، حتى يمكننا الالتفات إلى ما هو أهم. وهو إزالة الفساد في البلاد.. يجب علينا أن نمهد الطريق لعهد جديد عندما يمارس الشعب حقوقه في السيادة.

ـ العدالة – إنها أحد مبادئنا. إننا لا نريد معاقبة فاروق دون محاكمة. ولكننا لا نستطيع أن نبقيه معتقلًا طوال فترة إجراء التحقيق إذا كنا لا نريد أن نخاطر بالثورة. فلنتخلص إذن من فاروق، على أن يطرد، والتاريخ هو الذي سيحكم عليه بالموت.

وكان قرارًا سليمًا. فيه استبعد التدخل الإنجليزي. وبدا ناصر رجل تكتيك جيدًا لتبنيه هذا القرار. وكتب فيما بعد نجيب يقول:

"إنني لم أشعر بإعجاب شديد بعبد الناصر مثل ما شعرت به في هذه اللحظة." وهو الذي كان دائمًا يثور، و يختلف مع عبد الناصر حول كثير من المسائل، وأخذ منه مواقف متماثلة.

وعند ظهور الملك فاروق فيما بعد في أوروبا، وعن سكره وحياة العربدة التي كان يحياها، كتبت الصحافة في كل أنحاء العالم. وهو ما أفاد الثورة المصرية أيما إفادة، وكان أفضل من الإعدام الذي طالب به البعض من "الضباط الأحرار".

وسرعان ما جاءت مكالمة من الإسكندرية إلى مكتب جمال. أبلغ "الضباط الأحرار" بأن الثوار قد استولوا على كل من قصر المنتزه وقصر رأس التين، وحلقت الطائرات في الجو منعًا لأية محاولة يقوم بها الملك للهرب.

* * *

عاد فاروق إلى مصر – وهو مازال شابًا – من انجلترا، حيث كان يدرس هناك لكي يتوج ملكًا بعد وفاة والده الملك فؤاد. وبشر البعض بأنه سيكون للملك الشاب مستقبل كبير. ولكن "أمل مصر" ظهرت مواهبه فقط في "التجميع"، فكانت ترسل له من النمسا والبرازيل صناديق من الفراشات. وكان أشهر علماء المسكوكات في باريس وروما يتبادلون من أجله أندر العملات النقدية وطوابع البريد.

وتزوج بعد ذلك بقليل فتاة من عائلة إقطاعية كبيرة وهي عائلة ذو الفقار. وأضيف إلى حرفي "ف" (فؤاد – فاروق) اللذان كان يرمز بهما إلى حاجياته الخاصة حرف "ف" ثالث إشارة إلى اسم "فريدة" (وهو اسم الملكة الجديدة). وسيظهر الحرف الرابع عندما يجئ (فؤاد الابن).

وبدت الملكة الجديدة أمرأة ذات شخصية قوية. ففي البداية مارست تأثيرًا كبيرًا على رخاوة فاروق. ومع الوقت أصبحت عالة مضجرة على عاتق الملك. وفي المقابل كان الوفي "بولي" الإيطالى يستطيع دائمًا أن "يقيم" ليس فقط حفلات الخمر المعتق، بل كان يجند معسكرًا كاملًا من الشقراوات ذوات العيون الزرقاء من مختلف الدول الأوروبية. وفقد فاروق عقله في حياة العربدة. وطالبت فريدة بالطلاق.

وكان الملك في حاجة إلى وريث. في الوقت الذي كان الأطباء يخشون من إهمال صحته من أن تعوقه فلا يكون له نسل. وعلى الرغم من هذا تزوج للمرة الثانية، وفي هذه المرة كانت الملكة من عامة الشعب. وكانوا ينادونها بـ "ناريمان".

ولم يغير الزواج الجديد من حياة الملك. وأصبح "لبولي" السيطرة الكاملة عليه.

وعند علمه بالانقلاب وقع الملك في حيرة كبيرة. فتارة يأمل في إيجاد مخرج جيد وبمعجزة، وتارة أخرى يقال أن أحدًا ما سينقذه. وحاول يائسًا إنقاذ نفسه فلجأ إلى كل من الإنجليز والأمريكان. لدرجة أنه طلب من "كافري" أن يرسل له سفينة حتى أن السفير (كما كتب أنور السادات) أخذ عليه بأن الهرب لا يليق بملك.

وعلى إثر محادثة "كافري" وفي لحظة مغادرته المسكن الملكي، وصل لقصر التين مجموعة من "الضباط الأحرار".

وحذر الملحق العسكري لسفارة أمريكا في صباح ٢٦ يوليو "الضباط الأحرار" من أن واشنطن مصرة على الإبقاء على حياة الملك وأفراد أسرته، وحمل اللواء نجيب شخصيًا مسئولية أمن فاروق.

وعد "الضباط الأحرار" بأن يتم عزل الملك "بطريقة لائقة" وسمحوا للملك بأن يبحر إلى نابولي على يخته "المحروسة".

ولكن لم تجب كل مطالب الملك. فقد رفض ناصر أن يأخذ الملك معه كل ما هو قيمَ ، فلم يسمح له بأن يأخذ معه مجموعات العملات، وطوابع البريد والتي أعلن "الضباط الأحرار" بأنها ستعود للشعب، وأن يخت "المحروسة" سيترك الملك في نابولي على أن يعود ثانية لمصر.

ولم يكن أمام الملك خيار. ووقع الملك بيد مرتعشة على وثيقة التنازل عن العرش. وأخطأ في كتابة أسمه. إذ أنه لم يكن متمكنًا من لغة بلاده التي حكمتها أسرته مئة عام، بينما كان يتقن الإنجليزية والفرنسية بطلاقه.

" نحن نعلن أنه بقدر ما نهدف إلى سعادة وسلامة شعبنا دائمًا، ونعمل بإخلاص على إنقاذه من الصعاب التي نشأت في هذه الأوقات العصيبة، فإننا خضوعًا لإرادة الشعب نقرر التنازل عن العرش لصالح وريثنا الأمير أحمد فؤاد. بمقتضي هذا المرسوم نعطي حقوقنا لفخامة علي ماهر باشا رئيس الوزراء..".

في البداية أراد الملك حذف جملة "خضوعًا لإرادة الشعب" ولكن القانوني الذي أعد خطاب التنازل أصر على الإبقاء على تلك الكلمات. وأعطيت لعائلة فاروق ست ساعات للاستعداد. وفي هذه الفترة تمكنت العائلة المالكة من حزم ٢٠٤ حقيبة. ولم ينس الملك أن يحضر من مخازنه صناديق الشمبانيا.

وجاءت ساعة الرحيل. دخل الملك فاروق الصالون في الزى الأبيض للأميرالية البحرية المصرية لتوديع رئيس الوزراء، والسفراء الأجانب. ويتذكر اللواء محمد نجيب أن الملك عندما جاء دوره قال له: "إن مهمتك صعبة. أنت تعلم أن قيادة مصر ليست سهلة".

ويطرح البعض أحيانًا سؤالًا: لماذا لم تتحرك القوات الإنجليزية الموجودة في منطقة قناة السويس للدفاع عن فاروق؟ لماذا لم يتدخل السفير الإنجليزي الذي كان من قبل يعزل ويعين رؤساء وزراء مصر؟

والإجابة عن هذا السؤال تسمح لنا بأن نقيِّم الصفات الرئيسية لناصر لا كزعيم للثورة فقط، ولكنه أيضًا كدبلوماسي ورجل سياسة. فبفضل

السرية التامة التي توافرت في تنظيم "الضباط الأحرار" وهي ربما تكون المرة الأولي التي لم تعرف فيها مسبقًا المخابرات البريطانية ما يحدث في البلاد. كما أن السفير الإنجليزي ولندن أصبحوا في مأزق من تتابع الأحداث. فلم يعرف الإنجليز أن الجيش ثار في القاهرة إلا في صباح اليوم التالي أي ٢٤ يوليو. ثم ضللت تحركات "الضباط الأحرار" فيما يتعلق بفاروق. السفارة الإنجليزية تمامًا.

وكما وضح فيما بعد أن لندن كانت تعتقد أنها لم تفقد بعد كل شئ، وأنه يمكنها الاتفاق مع قادة الثورة. وانهارت هذه الآمال. فحتى عندما كان الملك المخلوع يغادر أرض مصر للأبد، طالبت السفارة الإنجليزية بأن يعلن مجلس قيادة الثورة حالة الطوارئ في العاصمة، وأن يراعى أمن الأجانب، وأن يكون هناك مجلس وصاية والإبقاء على الملكية.

وأظهر عبد الناصر مرة أخرى مرونته. وبذلك لم يترك للإنجليز مخرجًا ما لإبداء أية مبررات ، فَضَمَنَ أمن الأجانب. وظلت مصر ملكية لفترة بعد قيام الثورة.

وهناك عامل ملموس آخر، وهو تلك التحركات النشطة للأمريكان في منطقة الشرق الأوسط، معلنين أنهم أصدقاء الشعوب العربية. فحتى مذكرات الأعضاء المشتركين في ثورة سنة ١٩٥٢ من بينهم ناصر والسادات تدل على أنه في البداية كان بعض الضباط يثقون في الأمريكان. ولكنهم فيما بعد بالتجربة الذاتية آمنوا أن لأمريكا أهدافًا مغرضة، وأدركوا جوهر السياسية الإمبريالية الأمريكية.

ـ إن ثورة سنة ١٩٥٢ وطبيعتها الخاصة كانت ديموقراطية وطنية، مفسرًا لها خالد محيي الدين: "في هذه السنوات لم يكن الجميع يفهم أهداف السياسة الأمريكية، فكانت أمريكا بالنسبة للمصريين "قوة جديدة" فهم عرفوا المستعمرين – الإنجليز – وظنوا بإخلاص أنه يمكن الاعتماد على أمريكا في نضالهم.

أمّا عن الاتحاد السوفيتي فكان لدى المصريين تصور مُحَرَّف عنه. فالدعاية الإمبريالية أخافت المصريين من الشيوعية.

كان الأمريكان يأملون في العثور على شخصيات سياسية قوية، يمكنها اتخاذ "قرارات غير جماهيرية" في البلاد العربية. ففي سوريا في سنة ١٩٤٩ جاء في خدمتهم إلى السلطة رئيس أركان للحرب حسني الزعيم. إلا أنه لم يستطع التغلب على حركة الجماهير سقط.

وبعد الفشل في سوريا، أدرك الأمريكان بأن مفتاح السيطرة على الشرق الأوسط يُبحث عنه فقط في مصر. ولهذا لجأوا إلى كافري، وهو أحد الدبلوماسيين الأمريكيين المهرة، ففي تقرير خدمته مسجل ٣٠ انقلابًا في دول أمريكا اللاتينية، وهو الذي جعل كثيرًا من الحكومات الأوربية توافق على مشروع مارشال. وكان أيضًا أحد منظمي الحلف الأطلنطي.

وأصبح على كافري الآن إنشاء حلف عسكري في الشرق الأوسط. ولهذا كان من الضروري أن يسلم مصير مصر ليد ديكتاتور موثوق به. ولإتمام هذه المهمة فقد كَوَّنَ دين أجتسون وزير خارجية أمريكا في نهاية سنة ١٩٥٢ لجنة من المتخصصين في شئون الشرق الأوسط، يرأسها مسئول من المخابرات المركزية الأمريكية كيرمنت روزفلت، وهذه ليست المرة الأولى لاهتمامه بالشرق الأوسط. فقد كان فترة الحرب العالمية الثانية صديقًا شخصيًا للملك فاروق. فبدأ إذن كيرمنت روزفلت من فترة مسبقة إعداد الملك تدريجيًا لفكرة أنه بعد انتهاء الحرب في الشرق الأوسط. ستنشأ ظروف سياسية جديدة تمامًا، وأنه سيصبح أول ملك مستقل في تاريخ البلاد. إلا أن أمل الأمريكان قد خاب في فاروق. فلم يبق أمامهم غير شئ واحد فقط هو البحث عن الشخص المناسب في الجيش.

وكان كيرمنت روزفلت هو أول من اهتم "بالضباط الأحرار" ولكنه لم يتمكن مطلقًا من معرفة خططهم السياسية. فعاد إلى واشنطن.

كان مجبرًا على الاعتراف "بأنه إذا ما حدث في مصر انقلاب فإنه لن يكون انقلابنا، ولكن يجب علينا أن نعمل مع منظميه". وتمسك كافري برأي مخالف.

وكان هذا هو أول فشل في حياة كافري. لقد فلت الانقلاب العسكري من كافري. ولكنه بدأ يقنع الحكومة الأمريكية كما لو أن "كل ما حدث كان معروفًا له على الرغم من كونه لم يتحقق ولم يُوَجَه من خلاله".

ولكسب النظام الجديد أعلن الدبلوماسيون الأمريكيون بأن الوجود الإنجليزي في مصر هو تواجد إمبريالي. لدرجة أن السفير الإنجليزي اضطر أن يبلغ ذلك رسميًا لإيدن. وسأله بأن يطلب من أمريكا تغيير كافري.

لعبة خطيرة تلك التي قام بها قادة "الضباط الأحرار" مع السفارة الأمريكية. وإن كانت بهذا الشكل قد أديت ببراعة.

(*) الترجمة من بداية الفصل الثالث قامت بها د. سلوى أبو سعدة.

كان حتمًا على "الضباط الأحرار" حل مشكلة معقدة كيف تلغى الملكية ويتم التوصل إلى تحرير مصر من السيادة الإنجليزية، حيث كان يوجد جيش إنجليزي في منطقة قناة السويس.

آمن ناصر أن إلغاء الملكية مسألة وقت، ولهذا روعي إعلان الأمير أحمد فؤاد – أو الطفل الذي رحل مع الملك فاروق – وليًا للعهد، مع تشكيل مجلس وصاية برئاسة الأمير عبد المنعم لحين بلوغه السن القانوني، ولم يمض وقت طويل حتى ألغيت الملكية، فسقطت الملكية بهدوء وبجرأة مثل تساقط أوراق الخريف.

في مناسبات عديدة دعي الصحفيون المصريون والأجانب لزيارة قصر القبة وكان مما لفت نظر الغرباء الحياة الرغدة التي عاشها الملك. وفتح الضابط المرافق للصحفيين خزائن المجوهرات والحلي المكونة من الزمرد، والماس، والبرلنت. ولكن ليست الثروة التي لا تحصى ولا تعد هي التي أذهلت الصحفيين أكثر من أي شئ آخر، وإنما عدم الكياسة والانحراف الشاذ لآخر ملك مصري. مع خليط من صور محفوظة في الألبومات هي نماذج من أحط أنواع الخلاعة.

وإذا كان هناك بين المصريين حاليًا القليل ممن يحمل اسم فاروق فالمذنب الوحيد في هذا هو الملك نفسه. قرأ المصريون في الصحف إخباريات عن مغامرات الملك المخلوع بالخارج وأعطوا لذويهم الفاروقيين أسماء جديدة، وكان اللواء نجيب من أوائل الذين فعلوا ذلك.

يقع في الجزء الجنوبي من "الجزيرة" مبنى الميناء النهري الذي يحوطه النخيل من كل جانب وقد خصص في وقت ما لفاروق. ويشغل الآن هذا المبنى مجلس قيادة الثورة، ظلت تتأرجح يخوت فاروق على الأمواج في المرسى لبعض الوقت.

كان اجتماع مجلس قيادة الثورة ليلًا عندما يصبح الجو رطبًا، كانت وجهة نظر ناصر أن أحسن وقت للعمل الرسمي يحل بعد غروب الشمس. رأى ناصر أنه بعد نجاح الانقلاب يجب تسليم السلطة للأحزاب السياسية. وقد جرت على وجه الخصوص محاولة ارتبطت بالوفد. لكن بعد الثورة سرعان ما ظهرت في البلد تناقضات حادة. فلقد حسبت مجموعة منهم من بينهم اللواء نجيب أن البلد يجب أن تسير في الطريق التقليدي للديموقراطية الغربية. ولكن الآخرين ومن بينهم ناصر رأوا أنه يتعين على "الضباط الأحرار" إجراء الإصلاحات التي انتظرها الشعب طويلًا. لقد تخوفوا من أن تعرقل "المهاترات الحزبية" حل مقتضيات البناء الثوري. هكذا اشتعلت مناقشات حادة بين "الضباط الأحرار" حول قضايا ومشاكل أخرى.

بعد عودة أعضاء مجلس قيادة الثورة من الإسكندرية عقب طرد فاروق إلى القاهرة أعلن ناصر: الآن ألقيت مسئولية كبرى على عاتقنا، وهي قيادة البلد.... وقبل أي شئ يجب علينا تحديد الفلسفة التي سنلتزم بها...

على غير متوقع اكتسبت هذه المشكلة النظرية المجردة – على ما يبدو – قيمة عملية هامة، حيث يتعين على "الضباط الأحرار" أن يقرروا كيف يواجهون أعداء الثورة .

طالب أعضاء المجلس باتخاذ أشد العقوبات حسمًا. اتخذ ناصر وضعًا أكثر اعتدالًا، "لقد أعلنا على الشعب أننا استولينا على السلطة بهدف تحريره من نير ظلم فاروق، ولا يجوز لنا ممارسة سياسة الإرهاب" بهذا فسر ناصر وجهة نظره.

على أية حال ذهبت محاولات ناصر لإقناع أعضاء مجلس قيادة الثورة – على ما يبدو – أدراج الرياح. لقد فهم أنه يجب من البداية وقبل أي شئ لابد من كسب تأييد وثقة المصريين، أمّا إذا لم يساند البداية الشعب الثورة فهذا يعني نهايتها.

جمع ناصر أوراقه ووضعها في حقيبة يده ونهض من على كرسيه واقفًا، فنظر إليه الجميع باندهاش واستغراب.

قال ناصر: أنا أقدم استقالتي من منصب رئيس مجلس قيادة الثورة ومنسحب من هيئة الضباط الأحرار، وسأعتزل الخدمة العسكرية في الجيش.

تناقش المجتمعون طويلًا وبعنف وقسوة، ومع ذلك لم يصلوا إلى اتفاق أى حول اختيار رئيس جديد للمجلس. حينئذٍ فهموا أن ناصرًا تكلم بشرف واستقامة.

كان الليل قد انتصف عندما أرسلوا إلى ناصر وفدًا ليقنع أعضاؤه جمال أن يستمر في موقعه كرئيس لمجلس قيادة الثورة، وأن يضع المجتمعون الموضوع قيد المناقشة، حيث أن انضمامه ضروري.

في اليوم التالي عاد ناصر إلى مكتبه. ومنذ ذلك الوقت أصبح صوته ورأيه في المجلس قاطعًا وحاسمًا.

*****

"بعد مضي ٧٠ عامًا من السيادة الإنجليزية ظلت مصر مجتمعًا زراعيًا، مجتمع الجلاليب الزرقاء، كان في البلد من ثلاثة إلى أربعة ملايين نسمة من المطحونين الذين لا يمتلكون أرضًا، ولا عملًا، ولا أملًا..." هكذا يقول الكاتب الاشتراكي المصري محمد عودة، هكذا كان يوجد حوالي مليون ونصف مليون فلاح يمتلكون قطع أراضي زراعية صغيرة بواقع من رقم ٥٤ قراريط للأسرة، وأيضًا حوالي نصف مليون فلاح – بواقع فدان واحد للأسرة.

وفي نفس الوقت يمتلك ألف من كبار الإقطاعيين ٢٠٪ من مساحة الأراضي المزروعة في مصر، ولم تكن غالبيتهم من أصل مصري.

وفي مجال الصناعة لم يكن الواقع يختلف عن ذلك. حيث تتكون شريحة البرجوازيين المصريين الكبار من بعض الأجانب، يهود، ويونانيين، وإيطاليين. ظهر في البلد وضع فريد، وذلك عندما قاد النضال الوطني ضد القوى الأجنبية نفسه بنفسه إلى التغيير الاجتماعي وقد أعطت هذه الخاصية للقومية العربية التي تبناها تنظيم "الضباط الأحرار" لناصر الصفة التقدمية، الشئ الذي تم التعبير عنه أخيرًا في صورة التحولات الاقتصادية الاجتماعية الكبرى.

كان مجلس قيادة الثورة يجتمع يوميًا تقريبًا. بعد الانقلاب سرعان ما اتسع مجلس قيادة الثورة وأضيف ضباط جدد إلى التسعة أعضاء السابقين. تشكل مجلس قيادة الثورة من: جمال عبد الناصر، كمال الدين حسين، عبد الحكيم عامر، حسن إبراهيم، عبد المنعم عبد الرؤوف، جمال سالم، صلاح سالم، عبد اللطيف البغدادي، خالد محي الدين، أنور السادات، زكريا محي الدين، حسين الشافعي.

كان عدد أعضاء المجلس برئاسة اللواء محمد نجيب أربعة عشر عضوًا. وكان اللواء محمد نجيب يتغيب كثيرًا عن الجلسات، لأنه كان يشعر بالحيرة والارتباك بين الشباب، مستشعرًا كما لو كان غريبًا, كما كان اللواء نجيب مريضًا بالروماتيزم، وكانت ترسل إليه محاضر الاجتماعات صباحًا لاعتمادها ويقوم ناصر بأعمال المجلس فعليًا.

بدأ تصدر قرارات الثورة واحدًا تلو الآخر...الجامعة المسماة جامعة الملك فؤاد أصبحت تسمى جامعة القاهرة. تم الإفراج عن جميع المعتقلين بعد انقلاب الضباط، منع مجلس قيادة الثورة انتقال الحكومة إلى الإسكندرية صيفًا، صدر مرسوم بإلغاء الألقاب "باشا، وبك". وكانت هذه هي خطوات الثورة الأولى..

في صباح أحد أيام مايو ١٩٥٣ حيث هدأت أتربة رياح الخماسين، حضر جون فوستر دالاس إلى القاهرة، بالطبع لم يصل ليشاهد أهرامات الجيزة. لقد مضت فترة زمنية أكثر من نصف سنة على انتصار الثورة المصرية. وأظهر النظام الجديد ثباته. لقد حان الوقت لكسب روابط وثيقة مع "الضباط الأحرار". في واشنطن فحصوا النظام الجديد لمدة طويلة. الآن وصل وزير الخارجية الأمريكي إلى القاهرة باقتراحات محددة. شكلت الولايات المتحدة الأمريكية أحلافًا عسكرية واجتهدت في خلق حلقة من القواعد العسكرية تحيط بالاتحاد السوفيتي من كل جانب. كما خصص لمصر دور أساسي في حلف بغداد(١).

التزمت الولايات المتحدة بمكافأة وتعويض مصر إذا اشتركت في الحلف.

كانت المطامع الوحشية والهمجية لتلك الدول مثل بريطانيا وفرنسا معروفة جيدًا في مصر.

اهتم المستعمرون بأن لا يعرف المصريون أي شئ عن ثورة أكتوبر وعن المراسيم والقرارات التي تطبق في أول دولة عمال وفلاحين. حقيقة، سمع المصريون عن النضال البطولي للشعب السوفيتي ضد الفاشية في سنوات الحرب العالمية الثانية، لكنهم اجتهدوا في إقناعهم بأن الاتحاد السوفيتي يكن عداوة عميقة للإسلام. صورت روسيا عند العرب كصحراء مغطاة بالثلج يعيش فيها قوم حلف بغداد – شكل في سنة ١٩٥٥ بتشجيع ومبادرة الولايات المتحدة، وهو اتحاد عسكري موجه ضد الاتحاد السوفيتي وحركة التحرر الوطني في منطقة الشرق الأوسط. دخل في هذا الحلف : تركيا، العراق، بريطانيا، باكستان، إيران. وعارضت دول المنطقة الأخرى الاشتراك في الحلف بالرغم من ضغوط الولايات المتحدة.

يطيلون اللحى. لا يتركون الغليون من فمهم، و يحاولون تسخين وجوههم المتجمدة بالدخان، تقف فوق الهضاب الثلجية مئات من الغربان السوداء التي يصطادونها. يتنقلون في هذا البلد على الكلاب والأيائل "نوع من الغزلان- المترجم" تتحول المياه إلى ثلج ولهذا يشرب الروس فودكا حارقة كالنار. وآمن المصريون بهذه الدعاية.

في بداية القرن العشرين بدأ الأمريكان يهتموا بمنطقة الشرق الأوسط، عندما زار الرئيس الأمريكي ثيودور روزفلت القاهرة، وعندما تحدث في جامعة فؤاد مَجَّدَ بجميع الوسائل الاستعمار البريطاني، وأدان الحزب الوطني[٢] وقد أثارت هذه الخطبة المصريين.

انتقد الحزب الوطني بلسان محمد فريد الرئيس الأمريكي بشدة، وعارضه معارضه حادة. انعقد في القاهرة اجتماع جماهيري تجمهرت بعده الجماهير الشعبية أمام فندق شبرد حيث يقيم روزفلت في أول مظاهرة جماهيرية مصرية في التاريخ ضد الولايات المتحدة الأمريكية. أرسلت مجموعة من المحامين المصريين تلغرافًا إلى الرئيس روزفلت قالت فيه: "كيف يمكن لك أن تدين الوطنية المصرية وأنت لا تعرف شيئًا عن الصفة والوضع الذي توجد عليه؟".

هكذا أرسل الكثير من المصريين تلغرافات ورسائل مماثلة فيما بعد..

خلال الحرب العالمية الثانية عسكر الجيش الأمريكي في شمال إفريقيا - في الجزائر وتونس. بدأت الشركات الأمريكية استخراج النفط من الجزيرة العربية، فأقام الأمريكيون قواعد عسكرية بسرعة في البلاد العربية خوفًا من حركة التحرر الوطني. وفي نفس الوقت نصبت الولايات المتحدة الأمريكية نفسها كقيادة عامة على الصهاينة، والأعداء التقليدين للفكر الشيوعي، ولحركة التحرر الوطني.

(٢) الحزب الوطني أول مؤسسة سياسية في مصر، ظهر في سنة ١٨٨١ عندما أطلق الضباط ذوي الميول الراديكالية بقيادة عرابي باشا شعار "مصر للمصريين".

انتقل مركز الصهيونية العالمية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية إلى الولايات المتحدة الأمريكية. أصبحت إسرائيل الحارس الأمين على المصالح الأمريكية في الشرق الأوسط. أصبحت الرجعية العربية أيضًا حليف الإمبرياليين الأمريكيين.

عمل الملك وأتباعه، وعلى وجه الخصوص، كثيرًا لخلق اتجاه وانطباع عام في مصر عن أمريكا كأنها الدولة الغنية التي تهب وتنثر الدولارات الورقية الخضراء.

ها هو الضابط غير المحنك في الدبلوماسية جمال عبد الناصر – يجري مناقشة عن المشاكل الدولية المعقدة مع ثعلب السياسة الأمريكية المحنك – جون فستر دالاس – حيث تقابلا في حفل استقبال أقامه سفير الولايات المتحدة الأمريكية.

احتاجت مصر إلى الأسلحة احتياجًا شديدًا.

كان عبد الناصر منزعجًا جدًا؛ لأن الجيش المصري لن يكون قادرًا على مواجهة أي هجوم إسرائيلي. في فترة حكم فاروق قدم "الضباط الأحرار" مطلب إعادة تسليح الجيش.

عندما تكلم ناصر عن التسليح ظهر على وجه دالاس الاندهاش. هل ارتبطت أمريكا مع مصر حول ذلك في وقت من الأوقات؟

عرض ناصر الاتفاقية السرية المعقودة مع الملك فاروق قبل الثورة، والتي بمقتضاها وعدت الولايات المتحدة الأمريكية مصر أن تزودها بمعونة عسكرية يبلغ قيمتها خمسة ملايين دولار. بل حدد الاتفاق أنواع الأسلحة التي اقترحت الولايات المتحدة تزويد مصر بها.

وفي الحقيقة لقد رأى عبد الناصر أنه لابد من إعادة النظر في جدول الأسلحة المطلوبة. حيث أن الملك فاروق طلب من الولايات المتحدة سيارات

مصفحة، ومدافع رشاشة، وأسلحة أخرى من التي تستخدم في قمع المظاهرات الشعبية. كان ناصر يحتاج إلى دبابات، وطائرات، ومدفعية ثقيلة، وسفن حربية صغيرة (من التي تستخدم في الدفاع عن السواحل) أي أن المطلوب أنواع من الأسلحة الضرورية للدفاع عن الحدود.

وفي أكتوبر سنة ١٩٥٢ استفسرت أمريكا عن جدول الأسلحة المطلوبة، وتم تسليم الجدول المطلوب إلى الملحق العسكري بالسفارة الأمريكية، وعلاوة على ذلك لم تعارض الولايات المتحدة الأمريكية في سفر علي صبري لإجراء مباحثات.

أعلن علي صبري أن المباحثات تسير بنجاح، حتى أنه طلب إعادة تصميم مطارات مصر بسرعة لتكون مستعدة لاستقبال المقاتلات النفاثة، لكن مرت أيام وأسابيع، بل وشهور.. وبدأ عام ١٩٥٣ ولم تصل الأسلحة.

استمر الوفد العسكري برئاسة علي صبري في الإقامة بالولايات المتحدة، ومرت بأمريكا حملة انتخابية. فأقنعوا علي صبري أن يصبر. وبمجرد أن يتولى الرئيس المنتخب مهام منصبه سينظر فورًا في طلب مصر. وقد أقنع الوفد العسكري بذلك ضباط البنتاجون المرافقين. وهكذا رجع علي صبري إلى القاهرة بدون أي شئ.

بعد تناول المرطبات نهض عبد الناصر و دالاس من أمام المائدة وذهبا إلى الصالون وجلسا على مقاعد مريحة يدخنان، واستمرت المناقشة التي بدأت على الغداء.

قال دالاس: طلب تشرشل من الرئيس الأمريكي أن لا يرسل أسلحة للمصريين.

وأضاف دالاس قائلاً: عرضوا على الرئيس أيزنهاور خط جدول التسليح القديم، الذي قدم أيام حكم فاروق.

وهنا جرى الحديث عن أسلحة المشاه الخفيفة التي استعملها الفدائيون في وقتها ضد الإنجليز المتواجدين على قناة السويس. والخطأ، بالطبع، يمكن تصحيحه.

وقال دالاس: أنه عن نفسه مستعد للمساعدة، وهو بدوره، يحسب أن هناك ضرورة لتنظيم العلاقات غير العادية بين مصر وإنجلترا.

ثم انتقل دالاس بحديثه بصورة غير متوقعة إلى موضوع آخر، حيث بدأ يتحدث عن تحالف عسكري في الشرق الأوسط.

ـ وسأل جمال عبد الناصر بحرص:

ـ ضد من تقيموا هذا التحالف؟

حسب دالاس أن هناك ضرورة لأن يكون الكلام على المفتوح.

وأجاب دالاس واضعًا في فمه سيجار هافانا:

ـ ضد الاتحاد السوفيتي؟

استغرب ناصر قائلًا: لماذا ندخل في هذا التحالف؟

ـ الاتحاد السوفيتي على بعد آلاف الأميال عن مصر. لا يوجد بيننا وبينه أي نوع من التناقضات. في بلادنا يوجد جيش إنجليزي منذ سبعين عامًا – هؤلاء هم أعداؤنا.

ـ لكن سيبقي الإنجليز هنا كأعضاء في التحالف، سيقومون بالعمل تحت أعلام "التجمع الدفاعي" هكذا رد دالاس محاولًا إقناع ناصر.

علق ناصر: ـ إذا افترضت أني قلت أننا غيرنا اليافطة وتحول الإنجليز من محتلين إلى متحالفين، فلن يصدقني المصريون – سيقولون إني منعت ٨٠ ألف جندي إنجليزي موزعة على منطقة القناة من الرحيل.

يوضح هذا الحوار الذي أورده هيكل في كتابه، كيف دافع عبد الناصر بثبات في مناقشاته مع الساسة الأمريكان عن مصالح بلاده. في هذا الوقت سافر دالاس من مصر، متفائلًا مستوحيًا الأمل. لقد أحس ببراءة عبد الناصر حيث أنه لم يشك في أن مصر سترتبط بحلف عسكري، لكن يجب مساعدة الحليف الجديد "ناصر" في أن يكتسب "شعبية وتأييدًا في البلاد". لهذا يجب أن يرحل الجيش الإنجليزي عن مصر، وبهذا ذهب دالاس يقنع إنجلترا.

لكن اعتقد ناصر أن هذه المقابلة لم تحقق نجاحًا كبيرًا، لم تبدأ الأسلحة الأمريكية في الوصول إلى مصر، أرسل دالاس إلى اللواء نجيب قلادتين مصنوعتين من الفضة. اتصل تشرشل تليفونيًا بأيزنهاور، وقال: إن هذه الهدية ستلهب حماس المصريين.

*****

ذات مرة في اجتماع مجلس قيادة الثورة نوقشت مسألة إنشاء برج لبث الإشارات اللاسلكية لوزارة الخارجية المصرية، لم يكف التمويل، وفي إحدى مرات النقاش مع ناصر أخبروه أن أمريكيًا خاصًا يمكن أن يضع مبلغًا تحت تصرفه الخاص.

وقد روى كوبلاند العميل السابق لإدارة المخابرات المركزية أنه كُلف برشوة ناصر.

وعندما استفسر عبد الناصر عن سبب هذا "السخاء". تبين أن وكالة المخابرات الأمريكية هي التي اقترحت المبلغ.

كتب كوبلاند: "بعد مشاورات قصيرة مع زملائه في الخدمة" حذر ضابط الأمن ضاحكًا أن قوة أمن السفارة الأمريكية التي كلفت بمصاحبتي حتى منزل حسن[٣] في المعادي تثير الشبهات.

أنا أوصيت بالذهاب بالطريق الزراعي. قد يكون السائق الذي حملني مع حقيبتين شخصيتين بهما ثلاثة ملايين دولار لص كبير.

استقبلني حسن في منزله بالمعادي وكان معه حارسان خاصان بدون أي حماس أو اهتمام. آخذًا الرسميات في اعتباره، عد حسن النقود مرتين واكتشف أن المبلغ الموجود بالحقائب ٢,٩٩٩,٩٩٠ فقط بدلًا من ثلاثة ملايين. وقال: "لن نتألم لفقدان العشرة دولارات"، وهو يجلس مع حارسيه في المرسيدس التي لابد أنها ستحمله إلى مقر عبد الناصر الموجود في نهاية الطرف الآخر من المدينة...".

وقاحة بهذه الدرجة أثارت استياء عبد الناصر، إذا كان الأمريكان تصرفوا بوقاحة مع الجهات المصرية الرسمية العليا، إذن من السهل تصور كيف يتصرفون مع المستخدمين العاديين؟ في أول الأمر أراد جمال إرجاع النقود وإذاعة بيان بأن الأمريكان حاولوا رشوته. هكذا بالضبط أعلن رئيس سنغافورة، التي حاولت إدارة المخابرات المركزية مكافأته بمثل هذا المبلغ في وضع مماثل.

اقترح حسن التهامي، الذي تسلم النقود من كيوبلاند استعمال المبلغ في إقامة تمثال تذكاري "يشبه أبو الهول": "رأس له أنف ضخم" وفي المساحة التي أمامه يد كبيرة اصبعها يلامس الأنف، والأصابع الأربعة الأخرى متجهة للأمام وإلى أعلى" (الحركة المشهورة التي يستخدمها المصريون للتعبير عن السخرية والإغاظة).

راقت الفكرة لعبد الناصر إلى حد ما، وعلى أية حال فهي ليست دقيقة بدرجة كافية، وبدلًا من هذا التمثال قرر جمال إقامة شئ ما بدون إشارة

(٣) حسن التهامي - أحد أعضاء تنظيم "الضباط الأحرار".

واضحة، ولكن كبير بدرجة كافية "مرئي، غال، وثابت..." وخصص المبلغ لتشييد برج للإشارات اللاسلكية المطلوب لوزارة الخارجية المصرية. وأضاف عبد الناصر: "يجب على مخابرتنا متابعة نشاط الولايات المتحدة الأمريكية".

هكذا شيد "برج القاهرة" الذي نراه أمامنا نحن الأمريكيين، صباح كل يوم، عبر النيل، عندما نجلس لتناول الفطور في شرفة فندق هيلتون، ذكر ذلك كوبلاند في كتابه.

اعتبر ناصر هذا البرج "نصبًا تذكاريًا" يذكر به المخابرات المركزية الأمريكية بفشل خططها في مصر.

*****

في زمن إعداد وتنفيذ الثورة لم يكن هناك وقت لدي تنظيم "الضباط الأحرار" لتطوير وجهة نظرهم السياسية للوصول إلى تصور واضح عن نوع المجتمع الذي يريدون بناءه. بعض منهم كانوا متعاطفين مع "الإخوان المسلمين"، بينما الآخرون ومن بينهم ناصر، كانوا متعاطفين مع الماركسيين واعتبروهم "قوي وطنية".

أكد الكاتب الإنجليزي مانسفيلد أن محرك الانقلاب لم يتأثر "بأيديولوجية سياسية معينة أو بفلسفة محددة"، ولكن فقط بالوطنية الجياشة المبنية على الدراسة المتعاظمة للتاريخ. تدل تجربة الدول النامية، على أية حال، على أن الوطنيين الشرفاء الحقيقيين المعروفين بآرائهم الوطنية ومن ضمنهم، عبد الناصر يصلون إلى فهم حتمية تحديد علاقتهم بالطبقات الكادحة، و يحدد وضعه الأيديولوجي.

قُدِّرَ لعبد الناصر أن يعيش ويعمل في ظروف خاصة. فالمجتمع المصري المتصف حينئذٍ بعدم إيمانه بقواه الذاتية، كما روج الاستعماريون في وجدان المصريين، كان غير قادر على تصور أنه يمكن للبلاد أن تنهض بدون أجانب. كان عبد الناصر منذ ريعان الشباب مقتنعًا بأن المصريين يملكون كل

الكفاءات النوعية القادرة على إدارة بلدهم بنجاح. كانت هذه واحدة من الصفات التي مُيِّزت عبد الناصر من بين عشرات ومئات من المسئولين الآخرين المستكينين لوضعهم، المضغوطة نفسيتهم الداخلية بالإحساس بالكرامة الوطنية.

في نفس الوقت استوعب ناصر بشكل رائع صعوبة وضع المصريين على طريق البعث الوطني "كان الطغيان، والظلم، والاستبداد، والانهيار من الظواهر العادية في مصر على امتداد العديد من القرون"... هكذا كتب عبد الناصر في "فلسفة الثورة". ويفسر الظلم المعنوي الناتج عن الاستعمار في أقصى درجاته في اللحظات الحاسمة في حياتنا السياسية. ولهذا، كما يبدو لي، بدا كثير من المصريين كمشاهدين عاديين لتطور الثورة، منتظرين نتائج الصراع وغير مشاركين فيه. حتى الآن الغالبية العظمى منا غير قادرة على التخلص من التبعية كما لو أن البلد لا تخصنا، وأننا نعيش فيها مؤقتًا كضيوف".

لم يخِف عبد الناصر خيبة الأمل المريرة التي أصابته عندما تكلم عن كيفية استقبال الشعب المصري لثورة ١٩٥٢. "كتب جمال، لقد ظننت أن الوطن كله انتظر قبل ثورة ٢٣ يوليو بشعاع الضوء لكي يسرع في صفوف متراصة نحو الهدف العظيم. حتى أني اعتقدت أن دورنا يتمثل في إعطاء الإشارة ولن ننتظر أكثر من بضع ساعات حتى تندفع إلينا الجماهير. ولكن الواقع كان شيئا آخر تمامًا. لذلك ما حدث بعد ٢٣ يوليو كان مخيبًا للآمال. سطع الضوء، عصفت الطليعة بقلعة الطغيان وطردت فاروق. وانتظرنا المسيرة الطويلة والصفوف المتراصة، انتظرنا طويلاً... ووصلت الكتل الجماهيرية، ولكن كم اختلف هذا عن ذاك، وما رسمناه كان خيالاً".

هؤلاء الثوار الذين انتظروا من الشعب المساندة والمساعدة، الناس أمطروهم بوابل من الالتماسات والشكاوى". "وما أرادوه – هكذا كتب ناصر– ليست العدالة ولكن الانتقام والثأر، ولو سئلت في تلك الأيام عما أتمناه أكثر من أي شئ لكنت قد أجبت أتمنى أن أسمع عن المصري الذي يستخدم مواهبه في أي شئ آخر غير الذم في مصري آخر".

كان "الضباط الأحرار" ينتمون إلى شرائح اجتماعية مختلفة، وطرح كل واحد منهم في مجلس قيادة الثورة تصورات ومفاهيم طبقته الاجتماعية، وشريحته، ومجموعته.

لكن على وجه العموم من الممكن أن نتكلم عن أن الثورة تأثرت ذاتيًا بالأفكار الاشتراكية. هكذا لاحظ خالد محي الدين، على وجه الخصوص، في أحد مؤلفاته، "أنا لا أعني فقط التأثير الذي وقع تحته أعضاء تنظيم "الضباط الأحرار" وقياداتهم على الرغم من أن هذا يشد الانتباه - كتب خالد - أنا أعني كل الحركة الواقعة تحت تأثير الأفكار الاشتراكية، التي وجدت انعكاسها في أفكار، وبرامج، ومطبوعات المشاركين فيه، قبل الثورة وكذا بعدها".

في أحد بيانات الثورة الأولي تحدثوا عن ضرورة إصدار قوانين تكفل ارتفاع مستوى معيشة الشعب، كما تحدثوا عن ضرورة تحديد الملكية الزراعية الخاصة وإلغاء الضرائب غير المباشرة التي عانى منها أولًا المعدمون، وفي هذا ظهر تأثير الماركسيين الواضح. حكى ناصر نفسه ذات مرة لسفير الاتحاد السوفيتي ا. فينوجرادوف: أنه عندما كان تلميذًا في المدرسة بدأ يحضر إحدى حلقات الماركسيين في القاهرة. على أية حال لم يعر قادة الحلقة أي اهتمام لحب المعرفة والاستطلاع الذي ألقى بأسئلة كثيرة إلى الشباب. اقتنع ناصر أن الناس المنخرط معهم في هذه الحلقات كانوا أساسًا بعيدين كل البعد عن واقع الحياة "مولعين بالكتب والنظريات فقط". لم يستطيعوا أن يربطوا النظرية مع الظروف المصرية الواقعية الخاصة.

في سنة ١٩٥٢ عندما قامت الثورة كانت توجد في مصر جماعات ماركسية متفرقة وليس حزبًا شيوعيًا موحدًا مما أثر بشكل مباشر على نشاطاتهم.

في أحد الاجتماعات الأولى لمجلس قيادة الثورة اقترح خالد محي الدين الاستعانة بالخبراء لوضع خطة تحولات سياسية واقتصادية في مصر. ضم

ناصر صوته لخالد محي الدين. كلفوا أحمد فؤاد (ماركسي) بإعداد قائمة بأسماء الخبراء المؤهلين بالقيام بهذه المهمة، وكان هؤلاء من مدرسي الجامعات، والحقوقيين، والأطباء، والمهندسين، وكان الكثير منهم ماركسيين. وقد أقبلوا على المهمة بشوق، وحرارة، وحماس.

كانوا يجتمعون كل مساء مع مجلس قيادة الثورة وكان معهم دائمًا جمال عبد الناصر. وبدأت المناقشات الحية. أصر البعض منهم على اتخاذ التدابير الحازمة لتحديد الملكية الخاصة، رأى الآخرون أن المخرج من الوضع يأتي فقط بإنشاء مشروعات اقتصادية، كانت المناقشات تستمر أحيانًا حتى الساعة الثالثة أو الرابعة بعد منتصف الليل، وفي الصباح يذهب كل واحد إلى عمله كالمعتاد.

لعب هؤلاء الخبراء المتمسكون بالأفكار التقدمية والمشاركون في وضع الخطط الأولى بعد الثورة دورًا ذا أهمية بالغة في حياة عبد الناصر، على الرغم من أنه لم يصبح ماركسيًا فإن تعرفه على مؤلفات ماركس، وانجلز، ولينين لم تذهب هباءًا. وبعد بضع سنوات عندما عاش خالد محي الدين في سويسرا، طلب منه جمال عبد الناصر إرسال المؤلفات الماركسية في القضايا الاقتصادية المختلفة، احتفظ عبد الناصر وإلى الآن في حرص واهتمام بالمطبوعات الماركسية اللينينية الكلاسيكية المترجمة إلى اللغة العربية مع ملاحظاته عليها.

ورث الضباط الأحرار عن عهد الملكية ديون المحتلين الأجانب، وانهيار الاقتصاد المصري. وعلى الرغم من أنه لم يكن عند الثوار برنامج اقتصادي مسبق، ومخطط، ومدروس إلا أنهم اكتشفوا فورًا سبب الكارثة الرئيسي المتمثل في فوضى الإنتاج. كان يتعين على المجلس القومي الدائم للإنتاج، ومجلس الخدمات الاجتماعية اللذين تأسسا بعد الثورة مباشرة دراسة مشروعات تطوير الاقتصاد المطروحة للبحث أمام الوزارات.

في سبتمبر ١٩٥٢ اتخذ مجلس قيادة الثورة أول إجراء اجتماعي اقتصادي جاد، أصدر قانون الإصلاح الزراعي. درس جمال سالم المشاكل الزراعية في

مصر، وأعد بمساعدة أحمد فؤاد مشروع القانون، كان القانون متواضعًا جدًا فسارت الثورة أولى خطواتها بحذر شديد. واقترحت الثورة الاستيلاء على ما يزيد على ٢٠٠ فدان عند كبار الإقطاعيين لتوزيعها على الفلاحين المعدمين.

طبقًا لقانون الإصلاح الزراعي تم توزيع ما يقابل ١٠٪ فقط من مساحة الأرض الزراعية، وتسلم حوالي ١٠٪ من الفلاحين ربحًا مباشرًا. علاوة على ذلك لم يجرؤ النظام الجديد على المساس بمصالح الإقطاعيين، ووعدهم بتعويضهم عن الأجزاء التي تم الاستيلاء عليها فقط، لم يتم تعويض لعائلة المالكة عن أراضيها التي استولت عليها الحكومة. استهدف القانون تقويض أسس النفوذ السياسي للأسر الإقطاعية في القرى المملوكة لهم قبل الثورة.

لكن ومع ذلك استقبل هذا الإصلاح الزراعي المتواضع بمعارضة شديدة.

وعلى سبيل المثال طالب علي ماهر رئيس الوزراء حينئذٍ بأن يكون الحد الأقصى للملكية خمسمائة فدان، وكان ناصر على استعداد لإضافة مئة فدان أخرى على المائتين لصالح الأولاد القصر. لكن اعتبر علي ماهر ذلك غير كافٍ، وعلى ذلك أصبح ضروريًا تغيير رئيس الوزراء.

بهذا الشكل أدى الماركسيون المصريون: أحمد فؤاد، راشد البراوي، عبد الرازق حسن، مساعدة كبيرة لعبد الناصر في تخطيط مشروعات أول إصلاحات اقتصادية تجري في مصر.

قبل قيام الثورة وفي أول أيامها اعتقد ناصر أنه بمجرد نجاح الانقلاب سيرجع الجيش إلى معسكراته، وأقنعته الظروف بضرورة قيادة "الضباط الأحرار" للبلاد لتحقيق التحولات الثورية.

اقتنع ناصر بحتمية ذلك عندما تعرف على نتائج أعمال لجنة تحري الجرائم التي اقترفها رجال الحكم السابق. وقد وقع في مجال أعمال هذه اللجنة وزراء الحكومة الوفدية الأخيرة. بعد أن كشفت التحريات عن حقًائق الرشوة واختلاس أموال الدولة، وكان حزب "الوفد" أحد أدعياء السلطة الأساسيين.

سافر اللواء نجيب إلى الدلتا وفقًا لقرار اتخذه مجلس قيادة الثورة لاسترداد حالة المصريين النفسية. واستقبلته الجماهير بحماس منقطع النظير وقد تلقى ناصر ذلك باطمئنان كبير.

وفي العاشر من سبتمبر صدر مرسوم بقانون يشترط على الأحزاب أن يتقدموا ببيان عن برامجهم السياسية، ونظامهم الداخلي، وميزانياتهم.

وفي نفس الوقت تشكلت محاكم الثورة لمحاكمة رجال العهد البائد المتواطئين مع المحتل الأجنبي بهدف إدانتهم.

انقض قادة الوفد بعضهم على بعض باتهامات متبادلة، وقد أدى هذا إلى إدانة الوفد وسقوط وضع الحزب الخاص في مصر بسرعة.

وقد لاقت عملية محاكمة وزراء العهد السابق صدىً واسعًا بين الجماهير. وفي النهاية أدين رجالات الوفد، وأصدرت المحكمة أربعة أحكام إعدام. في الواقع، لم ينفذ أي منها، وتحول الحكم في المدى البعيد إلى اعتقال منزلي. طَهَّرَ "الضباط الأحرار" مصر بشكل حاسم من الماضي الكريه.

على أية حال، قبل ذلك بقليل وقعت كارثة جديدة: في ١٢ أغسطس أضرب عمال واحد من أكبر مصانع النسيج في مصر والموجود في كفر الدوار (صباغي البيضا) وأحكموا سيطرتهم على المصنع. طالب العمال المضربون بتحسين ظروفهم المعيشية وكذا ظروف العمل.

وفي البداية اصطدم "الضباط الأحرار" مع العمال المتظاهرين. وطالب عبد الناصر رفاقه بالصبر وضبط الأعصاب، لكن اصطدم المتظاهرون مع البوليس بشكل غير متوقع. ولقد أظهر ضباط الجيش الشبان عدم خبرتهم في مواجهة اللحظات الجسيمة المسئولة باستعمالهم تدابير العنف والتنكيل.

استخدمت القوى اليمينية هذا الحادث لتنظيم حملة موجهة ضد قوى اليسار وخاصة ضد الماركسيين. وسارع جزء من الأنتلجنسيا اليسارية

المصرية بإدانة السلطة التي أظهرت بذلك طبيعتها الديكتاتورية، وأكدت صدق الشبهات الكريهة.

تكون وضع خطير: وجد "الضباط الأحرار" أنفسهم في بداية انشقاق، الشئ الذي بدأت القوى اليمينية تستغله بسرعة.

تميز "الإخوان المسلمون" وسط كل المجموعات والأحزاب السياسية بنشاط غير عادي. فقد كانوا يشكلون الخطر الحقيقي على النظام. وكانوا لا يملكون برنامجًا واضحًا، لكن منظمتهم لعبت دورًا سيئًا في تاريخ نضال الشعب المصري ضد المحتلين.

لم يكن الإخوان المسلمون قادرين على إعطاء حل للمشاكل التي يعانيها الشعب المصري. وقد توجهوا إلى أكثر المجموعات السكانية تخلفًا والتي يسهل استثارتها.

ووضعوا مخططًا تآمريًا ضد الثورة، وعلى سبيل المثال، دعوا إلى مقاطعة حفلات المطربة العظيمة أم كلثوم، ونسف وحرق دور السينما والمسرح.

ثم أعلن مجلس قيادة الثورة عن حل جميع الأحزاب السياسية.

وفي ١٠ فبراير تم وضع دستور مؤقت والذي بمقتضاه كان رجال الثورة هم السلطة العليا في مصر لمدة ثلاث سنوات.

وفي ١٨ يونيو ١٩٥٣ أصبحت أقدم دولة ملكية في التاريخ أحدث جمهورية. أصبح محمد نجيب أول رئيس لجمهورية مصر ورئيسًا للوزراء، وأصبح جمال نائبًا له. ظهر عدد ضخم من المقالات في الصحف الغربية، في ذلك الوقت، تشير إلى أن الكثير من الخارج يتساءلون الحدود: كيف يقود مصر هذا الضابط المرفه المنعم الذي لا تفارق السيجارة "الدانهيل" فمه، وأطلقوا عليه اسم "كريمويل المصري" ولم ينتبه أحد إلى عبد الناصر.

اعتقد اللواء نجيب، على ما يبدو، أن دوره الحقيقي – هو زعامة الأمة. وعلى الرغم من كونه ليبراليًا، إلا أنه كضابط نظامي عالي الرتبة لم يتعود على أن تكون أوامره محل مناقشة. وبالطبع بعد انتخابه رئيسًا للجمهورية لم يعد راغبًا في سماع نصائح ممجوجة.

توترت والتهبت العلاقات بين نجيب وعبد الناصر. وأدى اختلاف وجهات نظرهما إلى تفاقم الصراع السياسي القائم في مصر.

صار اللواء نجيب ينتقد مجلس قيادة الثورة في أحاديثه مع رجال السياسة والدبلوماسيين الأجانب. ولم يعد "مسنودًا" في المجلس.

في ذلك الوقت نظم "الإخوان المسلمون" مظاهرة طلابية حدث خلالها أعمال شغب، استند عبد الناصر على هذا وقبض على بعض الإخوان بدون استشارة محمد نجيب، ثم أعلن محمد نجيب استقالته.

كانت هذه الخطوة محسوبة بطريقة حسنة.. كيف؟ بعد مباحثات طويلة ومضنية عقدت مصر وإنجلترا اتفاقية "السودان" التي بموجبها حصل السودان المصري الإنجليزي على حق تقرير المصير، إمَّا الاتحاد مع مصر أو الاستقلال. وكان مفروضًا أن تُقوَّى زيارة نجيب المرتقبة للسودان نتائج المباحثات، حيث يكن السودانيون احترامًا كبيرًا للواء نجيب بسبب كون أمه من السودان. سَبَبَ خلاف عبد الناصر ومحمد نجيب لمجلس قيادة الثورة وضع صعب لا يحسد عليه، وعلى كل حال قبلوا استقالة محمد نجيب وحددت إقامته في منزله الخاص الذي وضع تحت حراسة مشددة من قوات الجيش. ولكن كان هناك اعتقادًا راسخًا عند رجال الأحزاب الملغاة أن اللواء محمد نجيب هو الشخصية الوحيدة التي يمكن أن تضمن لهم المشاركة في الحياة السياسية العامة بمصر، ولهذا قادوا عملاً تحركاً الجيش ضد عبد الناصر. طالبت بعض الوحدات العسكرية بسرعة إعادة محمد نجيب إلى الرئاسة، ودعوة خالد محي الدين لرئاسة الوزراء.

اضطر ناصر إلى الموافقة، في هذه اللحظة بدا له أن كل ما كان يحلم به وما عمله من أجل مصر ضاع في لمح البصر. على أية حال في نهاية الأمر ساندت الأغلبية العظمى من الضباط جمال عبد الناصر.. أعيد محمد نجيب بفضل شعبيته إلى الرئاسة، وأبعد خالد محي الدين إلى سويسرا كسفير لمصر هناك، أسف ناصر لما حدث لخالد، كان ما يزال يقدر خالد محي الدين ولم يكن لدى عبد الناصر أدنى شك في أن خالد طال الوقت أم قصر سيعيد النظر في تقييمه للواء نجيب. وخلال بضع سنين تغلبت الصداقة القديمة وعاد خالد إلى الوطن حيث انتخب في عام ١٩٦٤ عضوًا بمجلس الأمة.

كان عبد الناصر رئيسًا للوزراء. وخطب اللواء نجيب في أحد التجمعات الشعبية في ميدان الجمهورية قائلاً: أن العاصفة الرعدية مرت كسحابة صيف وستجري انتخابات البرلمان قريبًا.

اجتهد ناصر في أن يظهر تسليمه بهيبة وشعبية اللواء نجيب: في ٩ مارس ١٩٥٤ اقترح عليه شغل منصب رئيس الوزراء ورئيس مجلس قيادة الثورة. في نفس الوقت ألغى ناصر الرقابة. طالبت الصحف القاهرية بإطلاق الحريات السياسية فورًا. لم يقف ناصر عند منتصف الطريق, في ٢٥ مارس اتخذ مجلس قيادة الثورة قرارًا بإعادة نشاط الأحزاب السياسية، اتخذ ناصر هذه الخطوة ليظهر للجيش النتيجة المنطقية لسياسة نجيب التي نتج عنها إعادة نشاط الوفديين والإخوان المسلمين من جديد.

في هذه المرة انحاز الجيش بحزم إلى تأييد عبد الناصر. نظم "الضباط الأحرار" مظاهرة لمعارضة اشتراك السياسيين القدامى غير الموثوق بهم في الحياة العامة، هز القاهرة إضراب عام شامل. في ١٧ أبريل تنحى محمد نجيب وتولى عبد الناصر من جديد رئاسة الوزارة، وأعيد تشكيل مجلس قيادة الثورة حيث بدأ يمارس نشاطاته. أصبح نجيب بدون سلطة حقيقية، على الرغم من استمراره رئيسًا للجمهورية لفترة من الزمن.

بدأ أعداء النظام الثوري في ممارسة نشاطهم بشكل سري.

* * *

في قطار مسافر إلى الإسكندرية جلس ناصر إلى جوار النافذة يشاهد أهرامات كاملة من أكياس رمادية منتفخة عن آخرها بالقطن، تنتظر إرسالها إلى المصانع.

استعدت الإسكندرية لاستقبال رئيس الوزراء، في مبنى البورصة ذي الشرفة الكبيرة والذي جُمِّلَ بأعلام مصر، وعلقت به الزينات، ويطل على ميدان واسع يكفي لتجمع أكثر من مئة ألف مواطن، خطب ناصر في آلاف الجماهير التي جاءت لتسمعه، وكانت هذه أول مرة في تاريخ مصر ينعقد فيها هذا المؤتمر الشعبي ليخطب فيه رئيس الوزراء وليس رئيس الجمهورية.

لم يكن كثيرون في مصر الذين يعرفون أن عبد الناصر يقود البلد منذ فترة طويلة، وأن نجيب مجرد رئيس للرسميات والبروتوكولات يلبس الزى الرسمي عندما يسلم السفراء أوراق اعتمادهم له.

كان ناصر يعرف كل صغيرة وكبيرة تحدث في مصر وبكل التفاصيل البسيطة. وقاد نضالًا لا هوادة فيه ضد العناصر المضادة للثورة. فعندما حاولت إحدى صحف القاهرة الكبرى، "المصري" مهاجمة النظام الجديد بمقالة، صودرت فورًا وأغلقت وحكم غيابيًا على صاحبها ، الذي هرب إلى سويسرا ، بعشر سنوات سجن.

في الصيف حدثت تعقيدات لم تكن متوقعة، قامت بعض العناصر المشككة بإلقاء خطب في الجوامع والمساجد تهاجم مجلس قيادة الثورة. أدى إلقاء الخطب في مدينة طنطا إلى تصادم دموي. علم عبد الناصر أن الإخوان المسلمين أحدثوا تأثيرًا قويًا في طنطا، فمنعت الأحاديث فورًا في المساجد. عندئذٍ بدأ الإخوان تهييج الجامعات. علم ناصر بخبرته الشخصية سهولة تحريك الوسط الطلابي. أصبحت هناك ضرورة إلى تطهير الجامعة، ولكن هذا التطهير لم يحد من نشاط "الإخوان المسلمين" أصبح معروفًا أنهم وجدوا حلفاء لهم في البوليس و يجهزون لمؤامرة جديدة، قرر ناصر كشفهم. في أحد الأيام التالية علم حوالي مئة ضابط كانوا بالخدمة بعزلهم لعلاقتهم بالإخوان.

أعلن أعداء جمال أنهم يعادون النظام العسكري الديكتاتوري، على الرغم من أن الكثير منهم، وعلى سبيل المثال "الإخوان المسلمون"، لم يكن من الممكن تسميتهم "بالمدافعين عن الديموقراطية". ولو على سبيل السخرية. لقد حكم الشعب على النظام الثوري بأعماله في ذلك الوقت، وبينما يحاول "الإخوان" تضليل المصريين بخطبهم في المساجد، تسلم أول ألفين من الفلاحين المعدمين قطعًا من الأرض وفقًا لقانون الإصلاح الزراعي كما أدان الإخوان المسلمون وبطريقة ديماجوجية جمال عبد الناصر في أنه يتباطأ في إخراج الجيش الإنجليزي. الواقع لم يكن هناك أدنى رغبة لدى المحتلين للخروج من مصر. ومع ذلك تمكن ناصر وبإصرار شديد من تحقيق انسحابهم، في البداية لم تعط المباحثات التي أجراها مع السفير الإنجليزي رالف ستيفنسون أية نتائج، حينئذٍ أعلن عبد الناصر على المصريين فتح الباب لقيد أسمائهم في صفوف الفدائيين. هكذا شكلت في القاهرة محكمة للنظر في قضية أحد المصريين الذي تعاون مع جيش الاحتلال. أدين المتهم وحكم عليه بالإعدام شنقًا. ردًا على الدعوة للحرب الفدائية جمد الإنجليز ١٠ ملايين جنيه إسترليني مودعة لديها باسم مصر. لكن على أية حال استمر الفدائيون في عملياتهم الهجومية. بدأت المحادثات من جديد. في نهاية الأمر في ١٩ أكتوبر ١٩٥٤ وافق الإنجليز على توقيع اتفاقية: وعدوا فيها بسحب جيوشهم خلال ١٢ شهرًا. على أية حال أعطت الاتفاقية للجيش الإنجليزي الحق في العودة إلى القاعدة المصرية في حالة أي هجوم يحدث ضد أي دولة من دول الجامعة العربية أو تركيا. خرجت الصحف القاهرية بمانشيتات حمراء عن انسحاب الجيش الإنجليزي.

تجمع صباحًا عند بيت عبد الناصر حشد غفير. كانت الجماهير المحتشدة تزأر هادرة تُحيي زعيمها. في المؤتمرات الجماهيرية التي عقدت في تلك الأيام تحدث جمال عن أن الحكومة عازمة على توجيه ضربات قاصمة ضد الجوع، والجهل، والمرض.

وبهذا الشكل يعقد هذا المؤتمر الشعبي بالإسكندرية لسماع خطاب جديد. أطل عبد الناصر من الشرفة وبدأ يتحدث بثقة وهدوء:

"أيها الإخوة، في نفس هذا الميدان الذي كان يسمى بميدان محمد علي عندما كنت شابًا صغيرًا اشتركت لأول مرة في مظاهرة ضد الإنجليز.

في هذا الميدان شاهدت ولأول مرة كيف كان الناس معلقين من رؤوسهم، وكيف كان المصريون يوجهون نيران بنادقهم ضد أخوتهم المصريين ولكن كما ترون مازلت حيًا أعمل كل ما في وسعي لكي يصبح وطننا حرًا..".

كتمت الجماهير أنفاسها تستمع لكلمات الخطاب. كانت أنظار الناس مثبتة على الشرفة، ولم يلاحظ أحد كيف أخرج إنسان ما في الصفوف الأولى من جيبه مسدسًا صوبه إلى الخطيب وأطلق طلقة.

ناصر، غير سامع للطلقة، رفع حاجبيه مستغربًا، عندما تناثر على أوراق الخطبة بقايا لمبة مكسورة كانت معلقة فوق رأسه. وهكذا توالت الطلقات من جديد. وفهم لأي سبب بدأت الجماهير تزأر وتصفر. امتدت آلاف الأيدي إلى المتهم.

في هذه اللحظة جلجل صوت عالٍ ومسئول:

"فليبق كل منكم في مكانه. أقول لكم هذا أنا جمال عبد الناصر. دمي دمائكم.. كل واحد منكم جمال عبد الناصر. إذا قتلوني، فلن يتغير شئ، لأنكم ستكملون النضال. كل واحد فيكم جمال عبد الناصر..".

ربما كان، ولا الزلزال ولا حمم البركان بقادرة في هذه اللحظة على هز الجماهير أقوى من هذا الصوت.

"لا تتحركوا! فليبق كل منكم في مكانه..".

على شريط التسجيل الذي يحتوي على كلام ناصر تقطعت هذه الكلمات بصوت الطلقات..

ـ مـن أجلكـم، ومـن أجـل أطفالكـم وأحفادكـم قـام مصريـون بهـذه الثورة..

هـدرت الجماهير مـن جديد. كان مسـموعًا صوت هفيف ريـاح الخريف بالأعلام الوطنية، نفذت الكلمات الحارة إلى القلب.

ليـس علـى جمـال عبـد الناصـر يتوقف مصـير مصر، بـل يتوقـف على نضالكم.

« نحن فداؤك يا جمال، نحن فداؤك يا جمال»، ردت الجماهير عليه بصوت عالٍ.

كان هـذا المؤتمر مذاعًا على الهواء بالراديـو وسمعه كل المصريين. بعد انتهـاء كلام عبد الناصر الحماسـي والحار فورًا سـارت مظاهرة عفوية. طالب فيها الشعب بمعاقبة المتهمين بشـدة وأشار إلى "الإخوان المسلمين" كمدبرين لمحاولة الاغتيال.

عندمـا عـاد عبـد الناصـر إلى القاهـرة اسـتقبل اسـتقبالًا شـعبيًا رائعًا بـكل محطـة توقف فيهـا القطار، وقطع المسـافة من ميدان بـاب الحديد حتى منزله بمنشـية البكري في حوالي ساعتين بسبب الحشـود الغفيرة المتجمعة لاسـتقباله وتهنئتـه على سـلامته.. وفي لحظـات تحول عبد الناصـر إلى بطل وطني.

أكدت التحريات أن محاولة الاغتيال نظمها "الإخوان المسلمون" فعليًا. في خلال شـهرين أعدوا عضـو تنظيمهم محمود عبد اللطيـف لتنفيذ هذا العمل الإجرامي.

بـدأت اعتقـالات الإخـوان المسـلمين في البلاد. اكتشـفت مخازن سـرية للأسـلحة والذخيرة في المسـاجد والمدافن تمتلكها الجماعات الإرهابية. اتضح من الاسـتجوابات أنه في خلال فترة ممتدة استعد الإخوان المسلمون للانقلاب، وكتبوا قوائم بأسماء المناصرين للنظام الثوري المطلوب قتلهم.

في منتصف نوفمبر ١٩٥٤ عقد مجلس قيادة الثورة إجتماعاً لم يحضره محمد نجيب كالعادة. لكن في هذه المرة، لم يدع للاجتماع. تعرف أعضاء المجلس على أدلة المعتقلين التي اتضح منها أن نجيب كان مرتبطًا مع "الإخوان المسلمين" المشتركين في المؤامرة، بعد انتهاء الاجتماع اتصلوا بنجيب تليفونيًا. قالوا له: إن وزير الدولة لشئون رئاسة الجمهورية حسن إبراهيم، وعبد الحكيم عامر مكلفان بإبلاغه بالقرارات التي اتخذت. كان يتم هذا باستمرار لكن نجيب لم يكن في هذه المرة هادئًا.

وصل عامر وحسن إبراهيم إلى نجيب في الساعة الحادية عشر مساءًا. دخلا قصر عابدين وفي خلال بضع دقائق نزل نجيب السلم في وداع حراسه، أذيع في الراديو أن اللواء نجيب أقيل من منصب رئيس الجمهورية المصرية، أرسلوه إلى قرية هادئة حيث عاش هناك لسنوات طويلة في منزله تحت التحفظ.

في ديسمبر ١٩٥٤ اجتمع مجلس قيادة الثورة للنظر في أحكام المحكمة العليا الخاصة بقضية "الإخوان المسلمين" الذين أدينوا في المؤامرة. حكم على الهضيبي قائد التنظيم بالإعدام شنقًا حتى الموت، وعلى بعض منهم بالإعدام رميًا بالرصاص. حكم على الباقيين بالسجن لفترات متفاوتة.

ذات مرة اتصلت مصلحة الآثار تليفونيًا بمكتب رئيس الوزراء..

عالم الآثار المصري محمد زكريا غنيم توصل إلى أعظم اكتشافات في القرن العشرين. فقد عثر على هرم لم يكن معروفًا قبل الآن.

هز هذا الخبر كل القاهريين. فقد انتشرت إشاعات بالمدينة عن العثور على العاديات الغالية القيمة الرائعة في الهرم. تذكر الجميع كنوز توت عنخ آمون التي لا تحصى، كما لو كانوا نسوا أن مقابر الفراعنة الباقين قد نهبت وسلبت في الأزمنة القديمة. اندفعت جموع المراسلين الأجانب إلى سقارة حيث تعمل بعثة غنيم. وأصبح يصل إلى مصلحة الآثار تبرعات كثيرة لاستمرار التنقيب عن الآثار.

في النهايـة وفي حضـور مندوب الحكومـة دخل محمد غنيـم إلى المقبرة وتوجه إلى التابوت. اسـتعد المراسـلون بـآلات التصوير لكي يصـوروا اللحظة العظيمـة الـتي سـتخرج فيهـا كنـوز الفرعون. بـدأ العمـال في فتـح التابوت باسـتخدام أدوات التكسير. بعد مضي سـاعتان في عملٍ مضنٍ ومنهك تحرك غطـاء التابـوت ووزنه ٢٢٧ كيلـو جرامًا من مكانـه، دلف العـالم المصري إلى الداخـل. وعنـد رجوعه قـرأ الحاضرون علـى وجهه جزعًـا شـديدًا: لقد كان التابوت خاليًا..

كتبت كل صحف العالم عن عالم الآثار وحظه العاثر." لقد اسـتمروا في الحفر ٣ سـنوات ولم يعثروا على شـئ!" كان هذا ما نشرت إحدى الصحف عن حفريات غنيم.

بالطبـع فكـر العلماء الجـادون بطريقة أخـرى. لقد قدروا نشـاط العالم الأثري المصري تقديرًا عظيمًا. لكن على الأقل كان عمله التالي ينوء بحمل ثقيـل خاصة بين الناس الذيـن يتعلق بهم تمويل التنقيـب، ولم يفهم الجميع إطلاقًا الأثر العلمي العظيم للاكتشاف، لهذا كان اتصالهم تليفونيًا برئيس الوزراء في وقت ما.

قـرر جمـال عبد الناصر السـفر فـورًا إلى سـقارة. وبينما كان جالسًـا في السيارة كان ينظر بعصبية على منظر الصورة التي أمامه.

يمتد طريـق الجيزة الضيـق الملتوي المـوازي لحاشـية وادي النيل الأخضر. وعلـى بُعـد تظهـر هضبة صخريـة بـارزة من وسـط بحر مـن الرمـال الصفراء بالصحـراء الغربية. وهناك حيث تنتهـي حدود الصحراء الذهبيـة يغطي اللون الأخضـر الزمردي حقـول الفلاحين الممتـدة. بينما غاصت القـرى الواقعة على الطريق في أوراق شـجر البرتقال. وعلى أسـطح المنازل، وعلى أفرع الشجر، وفي الحقـول الخضراء – وفي كل مكان تجد الطيور البيضاء الجميلة "أبو قردان" كتلك الطيور المقدسة التي كانت موجودة أيام مصر القديمة. وبطول القنوات المائيـة والترع ترى الفلاحين في جلابيبهم الطويلة لابسـين عممًا بيضاء على الرؤوس. وهي نفس الملابس التي كانت يلبسها الفلاحون المصريون في الأزمنة الغابرة.

وفي النهايـة ظهـر المنزل الأبيـض الذي يـعيش فيـه غنيم عنـد آخر الجرف وهضبة الهرم المدرج.

خـرج محمد زكريا غنيم لاسـتقبال رئيس الوزراء وهـو مرتبك إلى حد ما، كان يرتـدي خوذة فلينية خضراء وبدلة مخططة بهـا خروق عديدة – نموذج مكرر من العلماء الذين نسمع ما يحكى عنهم.

بعـد أن تبـادل التحية مـع رئيس الـوزراء، قاده مباشـرة عـبر الصحراء إلى مـكان التنقيـب، ولم يهتـم بعدم رضـا أو سـرور المرافقين اللابسـين لأحذية "مـودرن" وأثناء الطريق حكى عن عمله: صحيح أننا لم نعثر على المومياء في التابوت، لكننا اكتشـفنا هرمًا جديدًا وحددنا اسـم فرعون لم يكن معروفًا من قبل... فهذا شئ عظيم الأهمية من وجهة نظر عالم الآثار..."

وأضاف غنيم مرتبكًا: لكن بخصوص الذهب – فإننا لم نعثر عليه بعد. لكن قد يكون هنا تحت الأرض قادس الذي يستأهل البحاث عنه.

قاطعـه ناصـر مبتسـمًا: "الكنز شـئ غير هام لنـا. لقد جئنا إلى سـقارة لرؤية التابوت لكي نعطي شـحنة جديدة للعلماء البحاث، ونشـجع الأثريين المصريين".

بالرغـم من تحذيرهم لعبد الناصر من الجو الحـار الخانق داخل الهرم، إلا أنه كان متحمسًـا لمهمـة غنيم ودلـف إلى الممر الضيق المنخفـض الذي يـؤدي إلى داخل الهرم.

وقـد كتب بعـد ذلك الأثري المصري غنيـم قائلًا: "إن المسـاندة الحارة التي أبداهـا عبـد الناصـر قد خففـت من خيبـة الأمل المريـرة، وأعطت قـوى جديدة لاستمرار العمل".

كان عبـد الناصـر سـعيدًا حقًا بـأن الاكتشـافات الجديـدة لم تتحقق بالأجانـب، الذيـن عملوا بمصلحة الآثـار لحقبة طويلة من الزمـن، وأجروا فعلًا

العديد من الأبحاث القيمَة ، لكنها تحققت على يد مصري خريج قسم الآثار المصرية بجامعة القاهرة.

ساعد ناصر أيضًا بحمية وبحماس كبيرين مصريين نابهين آخرين.

وفي أثناء أحد الاجتماعات اقترح وزير الثقافة إعفاء توفيق الحكيم من منصب مدير دار الكتب المصرية لإهماله في القيام بواجباته.

وسأل عبد الناصر مستفهمًا: هل توفيق الحكيم هذا هو كاتب قصة "عودة الروح"؟

وكان رد الوزير بالإيجاب.

كان جمال مندهشًا لأنه لم يفكر إطلاقًا في أن يومًا سيأتي ليقرر بنفسه مصير كاتبه المفضل. واستطرد في حديثة قائلًا: لقد كان لهذا الكاتب الكبير أثره الكبير على تفكيري.

سكت الوزير مضطربًا. ولم يتجاسر أن يقول لعبد الناصر أن كتابة الروايات شئ وإدارة مكتبة شيئًا آخر، لكن الذي فهمه عبد الناصر أن إدارة توفيق الحكيم ليست في مستوى كفاءته ككاتب كبير.

لم يكن سهلًا على الكتاب المصريون قبل الثورة – حتى المشهورين منهم – أن يكتسبوا تكاليف الحياة من العمل الأدبي. وكان لابد من العثور على مخرج ما.

وأبقوا توفيق الحكيم في عمله السابق، ولكن سرعان ما هيأت الظروف بعد ذلك له ولغيره من الكتاب أن يتفرغوا لأعمالهم الخلاقة المبدعة.

أصبح "توفيق الحكيم" بعد ذلك عضوًا بارزًا بمجلس الأمة المصري.

ثم تكونت كثير من فرق الرقص والمسرح. وفي هذه السنوات تألق على الشاشة المصرية فاتن حمامة، وعمر الشريف اللذان اشتهرا في العالم فيما بعد.

وقامت فرقة نفيسة الغمراوى للرقص بمحاولات عديدة لبعث الرقصات المصرية القديمة المنقوشة والمكتشفة على جدران مقابر الفراعنة.

.... استعدت أول مجموعة من الطلبة المصريين للسفر إلى الاتحاد السوفيتي. تخصص عشرون منهم في دراسة الطبيعة النووية بجامعة موسكو. وأوصى ناصر شخصيًا بضرورة امتحانهم بجدية، وألقى مدير مصلحة العلوم نيابة عن عبد الناصر كلمة في علماء المستقبل قال فيها:

أنتم أول طلبة تسافرون إلى بلد شيوعي. ومنكم من هم أولاد فلاحين أو عمال.. وليس مهمًا بالنسبة لنا أن تتأثروا بالماركسية أو لا تتأثروا، المهم بالنسبة لنا أن تعودوا مزودين بأحدث ما وصل إليه العلم لكي تشاركوا في تحقيق رفاهية مصر.

في مراحل تالية عندما كان عبد الناصر موجودًا بالاتحاد السوفيتي، شاهد أحد عروض فرقة المسرح الكبير. وحينئذٍ فكر عبد الناصر في ضرورة تكوين فرقة قومية للباليه والرقص الشعبي. ولتحقيق هذا الغرض تقرر استدعاء خبراء باليه سوفيت.

وفي خلال سنوات قليلة هنأ عبد الناصر من قلبه فرقة الباليه المصري على أول عرض لها. وسرعان ما احتل الراقصون المصريون مكانتهم بين راقصي العالم، وأصبحوا مشاركين بصفة دائمة في المسابقات الدولية.

استطاعت مصر أن تفتخر بإحرازها انتصارات رياضية في مجالات محددة. في سنوات ما بعد الحرب، وقبل الثورة اشتهر في العالم كله اسم الرياضي عمرو بك الذي يستحيل الانتصار عليه في الاسكواش. وكافأه الملك فاروق على انتصاراته الرياضية بإيفاده سفيرًا لمصر في إنجلترا. وبعد الثورة تقاعد عمرو بك لكن خليفته الشاب أبو غالب حقق انتصارات عظيمة. وكان في مصر العديد من لاعبي كرة القدم المجيدين والسباحين الممتازين. ثم أنشئ المعهد العالي للتربية الرياضية بعد الثورة، وهو يتسع لحوالي ألفًا وخمسمائة طالب وطالبة. واشتغل خريجو المعهد بالتدريب الرياضي.

لم تقدم الثورة فقط هؤلاء وأولئك من الكتاب، والرسامين، والعلماء، والرياضيين، لكنها غيرت وجه مصر. فقد كانت الحياة قبل الثورة على النقيض من الحياة بعد الثورة.

تَغَلَّبَ في مصر الطابع التركي بالرغم من أن تواجد الإنجليز الطويل قد ترك بصمته على صفات المجتمع. وكان يبدو جليًا للناس المتواجدين بالأحياء الغنية من المدن المصرية أنهم أصبحوا في تركيا. كانت الانتقائية توليفة مميزة جدًا لأذواق الباشاوات والبكوات – كانت قصورهم وفيلاتهم شبه مكتظة بالكثير من الزجاج الملون، والفضيات، والكريستال التشيكي. بعض العادات التركية التي ألغاها كمال أتاتورك في تركيا ذاتها ما زالت موجودة في مصر. وعلى سبيل المثال كان لا يزال الكثير من المصريين يلبسون الطرابيش، في الوقت الذي أصبح لبسها في تركيا جريمة يعاقب مرتكبوها بالإعدام، وما زال حتى الآن في الإمكان مصادفة المسنين الذين يتحدثون التركية، خاصة الباشاوات والبكوات السابقين، ويعتقدون أنه يجب على الجميع أن يفهموهم.

في عهد الملك فؤاد أخذت المراسيم والتشريفات الملكية الأسلوب الإنجليزي، وظهرت السيدات في حفلات الاستقبال في ملابس سهرة حديثة لأول مرة بدلًا من السروال التركي الأبيض والقفطان.

استخدمت الأسر المصرية الثرية فتيات الأسر الفقيرة كوصيفات، كان العمل في بيت غني مكسبًا كبيرًا من حيث أن الفتاة عندها فرصة كبيرة للزواج من صغار ملاك الأرض ومستخدمي الحكومة.

عمومًا كان من المعتقد أن فترة الخدمة كوصيفة تجعلها ربة بيت حسنة. وعندما تتزوج الفتاة يجب أن تدعو إلى حفل الزواج وقبل أي شئ آخر سيدتها السابقة، وتركع عند قدميها وتقبل طرف فستانها. تجذب السيدة خادمتها السابقة وتقبلها من وجنتيها وتجلسها بجوارها، وبعد هذا تجلسان كـ «نِدَّين» وتشربان القهوة أو الشربات.

تبدو الحياة لباشاوات مصر بدون "حفلات" بلا معنى، وحتى الآن يحبون الحديث في مصر عن الترف الشديد الذي عاش فيه باشاوات مصر ذات مرة.

وقبل الثورة بوقت قصير. تناقش أحد الباشاوات الكبار مع سيدة وصلت من أوروبا، فسألته السيدة:

- أين تعيش؟

فأشار بإصبعه إلى فيلا على شاطئ النيل مخفية وسط خضرة كثيفة قائلًا:

- هناك.

فصاحت السيدة بصوت عالٍ، وأضافت: - ما هذا المنزل الجميل الرائع؟! إنني كثيرًا ما سألت نفسي: من يمتلك هذا المنزل؟

وكانت إجابة الباشا: "إنه منزلك من الآن".

لقد كان إلغاء طبقة الباشاوات لا يحمل فقط قيمة اجتماعية - اقتصادية، بل يعتبر الأساس الأصيل لبداية ثورة ثقافية.

لقد صودرت قصور الأرستقراطيين المصريين وكذا الأجانب وعادت إلى الشعب. وهكذا أقيم على الأرض المحيطة بقصر "لطف اللّه" قبل الثورة أحد أفخم النوادي الرياضية في العالم وخصص للإنجليز فقط. ولكن بعد الثورة فتحت أبواب القصر على مصراعيها، وأصبح من الممكن لأي مصري زيارة النادي.

لقد تغيرت مصر داخليًا وخارجيًا.

إن ضباط الأمس - رفاق عبد الناصر - أصبحوا الآن يديرون المصالح الحكومية، والمؤسسات، والهيئات، والشركات، والأقسام التي كان يمتلكها الباشاوات سابقًا.

وبالمناسبة نقول أن أولاد الباشاوات والباكوات السابقين لا يستطيعون اعتبارًا من الآن الخدمة بالحكومة، حيث شغلت مراكزهم بالضباط، وبعض رجال النظام السابق وأسرهم منعوا من مغادرة أماكن سكنهم. وقد اعترف المديرون الجدد أن إدارة شركة تجارة أو مسرح أصعب من تجهيز كتيبة للاستعراض. لكن كان ناصر في حاجة إلى تجميع رجال من كل مكان، وفي الحقيقة كان هناك هواة ومحبو الاستهانة بتبديد أموال الدولة.

على أية حال، هذه الظواهر المؤسفة لم تستطع بالطبع أن تخفي الجوانب الإيجابية للثورة المصرية. فما زال أمام قادتها اكتساب مزيد من الخبرات لكنهم على هذا الطريق قابلوا الأفراح والآلام.

في عام ١٩٥٥ تعرضت مصر ولأول مرة بعد الثورة لاعتداء عسكري إسرائيلي، وذلك بالإضافة إلى الضغط الذي تمارسه كل من الولايات المتحدة وإنجلترا بهدف تكوين حلف عسكري بالشرق الأوسط.

وفي إحدى أمسيات شهر فبراير، بينما كان ناصر نائمًا دق جرس التليفون. كان المتحدث علي صبري قال: "توجد أخبار غير سارة". وضع جمال على كتفيه بالطو وأخذ في يده ورقة وقلم رصاص، وتابع علي صبري حديثه: "هاجم الجيش الإسرائيلي قطاع غزة، واستمر المعتدون في التوغل في العمق لمسافة ميلين داخل الأراضي المصرية ودمروا محطة السكك الحديدية الواقعة شمالي غزة، خسائرنا ٢٧٠ قتيلًا وأكثر من ثلاثين جريحًا..".

لم يستطع ناصر أن يخفي دهشته. لم تقع أي حوادث كبيرة على خطوط الهدنة لمدة سنتين وأكثر منذ قيام الثورة. لكن بمجرد أن وقعت اتفاقية جلاء القوات الإنجليزية، وبعد توجيه ضربة للإخوان المسلمين قامت إسرائيل بهذا الاعتداء، هل من الجائز أن رفض الدخول في حلف بغداد لعب دورًا ما؟ هل هذا يعني أن كل شئ متداخل ومترابط؟.

وفي هذه الليلة لم يغمض لعبد الناصر جفن، واستمر حتى الصباح الباكر جالسًا بجوار التليفون. وفي اليوم التالي طلبت مصر عقد جلسة طارئة لمجلس الأمن التابع للأمم المتحدة. وأعلن رئيس وزراء إسرائيل أن جيش بلاده قام

بعملية محدودة، وإذا اشتعلت الحرب فستكون مصر هي المسئولة عن ذلك. ومنذ ذلك الحين مضت سنوات عديدة وقد تعود العالم على أن إسرائيل تلجأ إلى هذه الصور الزائفة لتبرير أكثر اعتداءاتها وحشية. استمرت إسرائيل في "عمليات محدودة" مماثلة ضد كل جيرانها بلا استثناء. في عام ١٩٤٨ واجه عبد الناصر الجنود الإسرائيليين في ميدان المعركة، بينما الآن بصفته رجل دولة مسئول مطلوب منه مواجهة حاسمة لوقف الاعتداءات الإسرائيلية. كان السياسي الإسرائيلي بن جوريون - صنيعة المجموعة العسكرية الواضح - أحد المدبرين الرئيسين للهجوم على قطاع غزة.

على أية حال لم يكن الهجوم على قطاع غزة إلا بداية... ومنذ ذلك الحين كان يواكب كل فعل من جانب عبد الناصر- الذي لم يكن على هوى الإمبرياليين- ضغوط إسرائيلية أو اعتداءات على الحدود. لقد حاولوا بذلك إفهام عبد الناصر أنه لن يشعر بالأمن ما دامت مصر لم تشترك في حلف بغداد.

بسبب الهجوم الإسرائيلي على قطاع غزة استشهد عشرات المصريين، كما وصل إلى القاهرة لاجئون رثوا الثياب هزيلون ومعهم أطفالهم الجائعون. هرب الكثير من هؤلاء الناس من الاعتداءات الإسرائيلية للمرة الثانية. لقد كان عندهم في فلسطين المنازل والحدائق، وأصبحوا بعد كارثة ١٩٤٨ يخدمون المحتلين. أبعد الجزء الأكبر من الفلسطينيين إلى غزة، ولم يعد عندهم إمكانية لإلحاق أبنائهم بالمدارس. أمّا البنات البالغات، فقد سافر الكثير منهن للعمل في الملاهي الليلية ببيروت، واستانبول، وطهران، وباريس. ثم تعرض هؤلاء الناس للهجوم الجديد على غزة، وبدت مصر عاجزة عن الدفاع عنهم.

اعترف مجلس الأمن الذي ناشد مصر وإسرائيل عدم العودة إلى مثل هذه التصرفات بأن الحكومة الإسرائيلية دبرت هذا الهجوم - ولم تستطع القناعات الأدبية لهذا القرار أن تعوض مصر الخسائر التي تحملتها. ولم يمض وقت طويل حتى استطاع ناصر بأساليب سياسية بحتة أن يحول انتصار إسرائيل العسكري إلى اندحار.

اقتنع ناصر بضرورة بذل الجهود الفورية في سبيل تقوية الجيش المصري، وأقنعته المباحثات مع الولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا باستحالة الحصول على أسلحة من هذه الدول. وأوصل الواقع الحقيقي ناصر إلى فكرة إمكانية شراء الأسلحة من بلاد المعسكر الاشتراكي فقط.

في ذلك الوقت وقّعت العراق وإيران اتفاقية تعتبر حجر الأساس لحلف بغداد. فقد اعتبر الساسة الأمريكيون وخاصة دالاس تكوين حلف بغداد، إنجازًا ضخما. ويريدون الآن إدخال دول عربية أخرى في المؤسسة العسكرية الجديدة.. لقد علموا في الولايات المتحدة الأمريكية أن العرب تعودوا منذ زمن بعيد أن يحذوا حذو مصر – الدولة الأعظم والأكثر هيبة في منطقة الشرق الأوسط.

فاقترحت إنجلترا والولايات المتحدة استخدام "بسمارك العراق" الرجعي المتطرف نوري السعيد للقيام بالتفاوض مع مصر. لم يكن هناك سياسي في منطقة الشرق الأوسط حائزًا على ثقة الإمبرياليين أكثر من نوري السعيد. عندما ظهر خبر زيارة نوري السعيد لمصر في الصحف، كان واضحًا للجميع أية أهداف تكمن وراء هذه الزيارة.

لقد استوعب ناصر جيدًا نوعية الخطر الذي ينتظر بلده – فإذا حدث وتمكنوا من إدخال مصر في الحلف العسكري فذلك يعني أن كل مكاسب وانتصارات الثورة قد تبخرت.

تفاقم الوضع وازداد سوءًا حيث أن نوري السعيد لم يستطع إطلاقًا أن يلعب دورًا إيجابيًا في الحلف العسكري المرسوم.

وأصبح مُقَدَّراً على مصر أن تدخل مرحلة نضالية جديدة، ووقف ناصر بصلابة ضد الإمبرياليين، وقد أكسبه هذا الوضع حلفاء في كل العالم العربي وشعبية كبيرة في مصر.

جاء يونيه ١٩٥٦. في بورسعيد حيث تم شحن آخر دفعة من الجنود الإنجليز على باخرة راسية بالميناء استعدادًا للاحتفال بهذه المناسبة. ووصل إلى الميناء العديد من الصحفيين والضيوف الأجانب، وعلى أنغام الموسيقى ودقات الطبول رقص الناس في الشوارع المعلق بها الزينات، والأضواء، والأنوار مبتهجين بهذه المناسبة. وانطلقت في سماء المدينة الصواريخ المضيئة مكونة أشكالًا وألوانًا جميلة. وانتشرت قوارب الصيادين بأشرعتها البيضاء فيما يشبه الاستعراض عند مدخل قناة السويس.

لقد انتهي احتلال مصر الذي استمر لسنوات طويلة نهاية ذليلة. لقد جاء الإنجليز ذات يوم إلى مصر في مظاهرة بحرية تحت دمدمة وقصف المدافع المصوبة تجاه الإسكندرية، وانسحبوا في سكون الليل.

وخلاصة القول لقد تم جلاء الإنجليز عن مصر بدون موسيقى تصويرية.

ووسط هتافات أهالي بورسعيد رفع جمال عبد الناصر العلم المصري بعد تقبيله فوق القاعدة العسكرية الإنجليزية في منطقة قناة السويس، وخطب جمال في مئات الآلاف من الجماهير المحتشدة في الساحة بالرغم من حرارة الشمس الحارقة قائلًا: "أيها الأخوة المواطنون، اليوم بعد قرون طويلة من العبودية أصبحتم أحرارًا".

بعد جلاء قوات الاحتلال غيرت الحكومة فورًا قانون الحكم العسكري الذي صدر بعد الثورة، وكذا تم إطلاق سراح كل المعتقلين السياسيين. وقد شعر كل مصري أن أحد أهداف الثورة قد تحقق بنجاح.

ورأى عبد الناصر أن الوقت قد حان لإعداد الدستور على وجه السرعة، وأقرّ الشعب الدستور في ٢٦ يونيو ١٩٥٦ عن طريق الاستفتاء الشعبي العام. وانتهت "الفترة الانتقالية" وعضدت الموافقة على الدستور سيادة مصر. وانتخب جمال عبد الناصر رئيسًا للجمهورية، وانتهت كل صلاحيات مجلس قيادة الثورة.

ومع مرور الوقت اقتنع عبد الناصر أكثر وأكثر بأنه لا يمكن لمصر أن تعيش في عزلة. ففي عام ١٩٥٥ أصدر كتابه "فلسفة الثورة" الذي حاول فيه أن يعرض خلاصة تجربته في حرب فلسطين وفي الثورة. وكان واضحًا للجميع اتجاه الكتاب المعادي للإمبريالية في "فلسفة الثورة"، وردت أيضًا فكرة وحدة العرب التاريخية والثقافية، وعلاقاتهم بشعوب آسيا وإفريقيا.

كان من رأي عبد الناصر أن في ظروف صراع النظامين العالميين – الاشتراكي والرأسمالي- يوجد أمام الدول المستعَمرة والنامية إمكانية حقيقية لتحقيق استقلالهم السياسي عن طريق عدم الانحياز إلى إحدى الكتلتين. وقد أقنعته التجربة فيما بعد بأن هذه الدول يجب أن تتكاتف في جبهة واحدة، وأنه يمكنهم الاعتماد في نضالهم على الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية الأخرى.

عندما انضمت باكستان إلى حلف بغداد وربطت نفسها نهائيًا بالمعسكر الإمبريالي، أبدى ناصر تعاطفه العلني مع الهند، مما يشير إلى سعة أفق وتقدمية وجهات نظر جمال. فلم تكن الوحدة الدينية هي التي حددت سياسة مصر الخارجية، ولكن الاجتهاد لتقوية العلاقات مع دول "الحياد الإيجابي" التي صيغت أسسها النظرية في النهاية في مؤتمر باندونج.

وبعد انتهاء هذا المؤتمر الذي حضره وفود ٢٩ دولة تمثل أكثر من نصف سكان الكرة الأرضية، دخل التاريخ مع نهرو، وسوكارنو وغيرهم من قادة حركة التحرر الوطني كأحد مؤسسي حركة عدم الانحياز. وقبل انعقاد المؤتمر بوقت غير طويل عندما اصطدمت مصر بضغط الدول الإمبريالية لضمها لحلف بغداد، استطاع ناصر أن يمتحن عمليًا حجم قوة تضامن دول عدم الانحياز، وهم بدورهم لمسوا مقدار جدية قرار مصر للمضي في طريق الاستقلال.

في خلال شهر فبراير ١٩٥٥، عندما أغارت القوات الإسرائيلية على غزة، استقبل ناصر ضيوفًا بارزين الواحد تلو الآخر. وصل أولًا جوزيف بروز تيتو على

ظهر باخرة إلى الإسماعيلية وأكمل معه ناصر الرحلة حتى بورسعيد، وخلال الخمس ساعات التي أمضياها معًا حكى جمال عن مخاوفه إلى تيتو. هنا ساند تيتو عبد الناصر الذي أبدى إصراره على أن مصر يجب ألا تربط نفسها بحلف بغداد الإمبريالي.

بعد ذلك طار نهرو إلى القاهرة، وأظهرت المناقشة الأولى أن نهرو أيضًا حيًا بحرارة إصرار مصر على عدم الانضمام إلى الأحلاف العسكرية الإمبريالية.

حقق مؤتمر باندونج أهدافه. فقد كان قادة دول عدم الانحياز مستعدين فعليًا لمؤازرة ومساعدة بعضهم البعض، وتفتحت أمام ناصر أبعادًا جديدة. حصلت الثورة المصرية على اعتراف دولي بها وأظهر قائدها حنكة سياسية ودبلوماسية فائقة.

بعد توديع نهرو، استعد ناصر في هذه المرة لاستقبال ضيف جديد. فقد جاء إلى مصر نائب رئيس وزراء إنجلترا ووزير خارجيتها أنطوني إيدن.

بدأت سيارات الليموزين الفارهة تفد الواحدة تلو الأخرى إلى السفارة الإنجليزية، وتلألأت بوابة السفارة الداخلية بالأنوار مثل الأزمنة القديمة، واقترح إيدن أن يمكث بالقاهرة يومًا واحدًا - فقرر السفير إقامة حفل عشاء رسمي حيث أنه أراد بإصرار أن ينظم لقاء إيدن مع جمال عبد الناصر.

قدم السفير جمال إلى إيدن وزوجته. فمدت الإنجليزية يدها بلا تكلف ليقبلها. انزعج ناصر. لاحظ ذلك إيدن وهب للمساعدة وهو نجم علية القوم المحنك. تحدث عن الجو، واستمع جمال باندهاش إلى إيدن وهو يتحدث باللغة العربية. على أية حال تطابق حديثه بشكل غريب مع بدلة السهرة الأنيقة السوداء التي يلبسها. أدار إيدن النقاش - كخبير مدقق - عن الشعر العربي والقرآن، مدعمًا حديثه بمقتطفات يستشهد بها، تحدث إيدن بلا أخطاء باللغة العربية الفصحى التي أصبحت تراث أدبي لا تستعمل إطلاقًا في الحياة اليومية. ولكي يبدد الحيرة قال إيدن: أنه في وقت ما أفلح أن يدرس آداب اللغة العربية.

بدا لعبد الناصر أن وجه إيدن مغلف بالضباب. كانت عينا الوزير الإنجليزي باردة تمامًا. الأنماط الرائعة والتأنق الأرستقراطي - كل هذا مجرد بهرجة ظاهرية. لقد رأى جمال أمامه مومياء في بدلة سوداء.

لقد قُدِّرَ لعبد الناصر كثيرًا مقابلة شخصيات شبيهة من بين الجنود الإنجليز وهم جالسون في الخيام يتسابقون مع شيوخ البدو في إنشاء الشعر القديم. لكن لم يلاحظ أن هذه الشخصيات واسعة الاطلاع تريد أن تفهم الدنيا التي تغلي من حولهم.

استعاد إيدن بسرور ذكرياته عن مقابلاته بالساسة المصريون سنة ١٩٣٦ عندما سافر إلى لندن. وأخذت صور تذكارية له حينئذٍ مع المصريين في طرابيشهم الحمراء. وحكى لجمال أن هذه الصور مُعلقة في منزله حتى الآن.

كان جمال خجلاً من حديث إيدن، لكن هاهو نجم الدبلوماسية الإنجليزية يستمر في هذا الحديث السخيف في خيلاء عارم ملتفتًا إلى زوجته الحسناء بين الحين والآخر. وهي - على أي حال - كانت فخورة بزوجها.

وزع الويسكي بالصودا على المدعوين. أمسك ناصر كأسًا به عصير فواكه، فهو لا يشرب الخمر، ثم تبادل المدعون الحديث في مرح، وسرور، وحيوية كان يكسو وجه ناصر ملامح جادة طوال الحفل. لم تؤثر فيه النكات التي أضحكت رجال وسيدات الأرستقراطية الإنجليزية. أحيانًا كان إيدن أو زوجته يهتمان بمعرفة رأي السيد رئيس الوزراء فيما يدور في الحفل من حديث. وعندما كان عبد الناصر يبدأ في الإجابة، كان يكتشف باستغراب أنهم لا يسمعونه.

أراد ناصر أن يخرج بسرعة من هذه السفسطة التافهة إلى العمل الجاد. وفي النهاية استطاع ناصر أن يتحدث بشأن استمرار انسحاب القوات البريطانية من منطقة قناة السويس.

قال عبد الناصر:

ـ آمل أن يؤدي هذا إلى فتح صفحة جديدة في علاقاتنا. والشئ الوحيد الذي يمكن أن يزيدها سوءًا هو محاولة إنجلترا ربط منطقة الشرق الأوسط بحلف بغداد.

وسأل إيدن باهتمام:

ـ لأي سبب أنت ضد حلف بغداد؟

أجاب عبد الناصر:

ـ لأننا ضد أي أحلاف عسكرية.

ـ لكن ما هي الأسباب التي على أساسها تقود حملة ضد أولئك الذين يساندون هذا الحلف؟

فأجاب عبد الناصر بأن حكومته لم تشارك في أي حملات ضد أحد، وعلى كل حال فهو يعتقد أن الحلف – ما هو إلا محاولة لتقسيم الدول العربية، وعزل مصر إذا انحازت كل من سوريا، ولبنان، والأردن إلى الحلف، وكذا من الجائز إمارات الخليج العربي، فهذا يعني إنفراد إسرائيل بمصر بمفردها. كذا يشكل الحلف معوقا أساسيًا للوحدة العربية.

وعند سماعه لكلمة "الوحدة العربية" قاطع إيدن عبد الناصر قائلًا:

ـ ألم أكن أنا أول من دعا إلى الوحدة العربية؟ في سنة ١٩٤٢ أعلنت أن إنجلترا تنظر بعطف نحو محاولة الدول العربية بتكوين اتحاد سياسي.

أجاب ناصر: لا، لست أول من جاء بفكرة الوحدة العربية.

تطلعت زوجة إيدن بغضب. حيث لا تعجبها معارضة زوجها.

وأضاف ناصر: التأييد الشعبي لنا في مصر يشير إلى تطابق وجهة نظرنا مع رغبة القاعدة الشعبية العريضة.

على أي حال أعلن إيدن الذي كان على قناعة قوية على أن الإنجليز أكثر من غيرهم تَفَهُّمْ أمنيات وأفكار العرب، أن شعوب دول الشرق الأوسط مندفعة في معركة ضد الشيوعية.

غير أن ناصر – كما كتب هيكل الذي كان حاضرًا هذا الحديث – لم يعارض إيدن في هذا الموضوع على وجه الخصوص. أراد الزعيم المصري أن يقتنع إيدن أن على الرغم من أنه – أي ناصر – لا يريد الارتباط بالمعاهدة، فلا توجد أسباب خاصة وراء معارضته حلف بغداد.

قال إيدن "وهو يتصرف كأمير حسب وصف ناصر":

إنجلترا مستعدة أن تبحث معكم مشكلات مصر الداخلية، لكن نحن لا نستطيع أن نوافق على موقفكم بالنسبة للشئون العربية العامة.

****

في اليوم التالي سافر إيدن إلى بغداد، وسرعان ما تولى رئاسة الوزارة وتقدم باقتراح لإنهاء النزاع العربي الإسرائيلي والاعتراف بالحدود القائمة.

كان موقف الدول العربية من هذه المبادرة إيجابيًا، أعلن ناصر أن اقتراح إيدن أساس جيد للمباحثات. لكن إسرائيل استقبلت الاقتراح بهجوم شديد. كذا مارست لندن ضغطًا على البلاد العربية لإدخالهم في حلف بغداد.

في نهاية عام ١٩٥٥ وصل وزير خارجية إنجلترا الجديد ـ سلوين لويد – إلى القاهرة، كان من الواضح أنهم حسبوا أن إدخال الأردن في حلف بغداد قد يؤدي إلى تخلي ناصر عن سياسة الحياد. كان عند لندن كل الأسباب لتفترض أنها لن تفشل. "اعتمد الإنجليز على رجلهم العجوز المجرب جلوب باشا" الذي عاش باستمرار بالأردن، فهو يجيد العربية بطلاقة، ويرتدي الزى العربي التقليدي، وكان رجلهم الدائم في ديوان الملك.

لهذا ذَكَّرَ سلوين لويد الذي وصل إلى القاهرة ناصر بأن وضع الإنجليز في الأردن قوي، على كل حال، في هذه اللحظة، بينما تدور هذه المحادثة دخل موظف السفارة البريطانية وسلم الوزير تلغرافًا جاء فيه أن جلوب باشا طرد من الأردن.

عندما تصلكم معلومات عن أن الشعوب العربية تحلم بالدخول في الحلف العسكري من تلك الشخصيات أمثال جلوب باشا فلا يجب أن تصدقوهم – قال ناصر ذلك للوزير الإنجليزي.

قرر سلوين لويد أن طرد الجنرال جلوب باشا ما كان ليحدث لولا تدخل المصريين. وإجراء المباحثات مع ناصر لم يكن بالعمل السهل.

تناولت المناقشة كذلك المشاكل الاقتصادية، بدا «سلوين لويد» متعجلاً. كان يريد إعطاء انطباع لمن يناقشه أنه على الرغم من اهتمام إنجلترا بالمحادثات، فلا يمكنها في نفس الوقت التضحية بمصالحها. تناول سلوين بالشرح، أهمية التجمع الصناعي المشكل لاستخراج النفط بالنسبة لإنجلترا، وأوضح كيف تشكل قناة السويس جزءًا من هذا التجمع.

وتساءل عبد الناصر بعقلانية: إذا كانت البلاد التي من أرضها تستخرج الشركات الأجنبية البترول تقتسم معهم الدخول بنسبة ٥٠٪ فلماذا تحصل مصر على ٦٪ فقط من إيراد عبور السفن لقناة السويس؟

سرعان ما طار سلوين لويد للبحرين، بالقرب من مراكز استخراج النفط. وعلى الجزيرة استقبلته مظاهرة شعبية ضخمة بالبيض الفاسد، والطماطم العطبة، وبالهتافات "يسقط المستعمرون! يعيش ناصر!" استطاع الوزير الإنجليزي الاختباء بصعوبة من الجماهير الغاضبة.

فتذكر أي درس تلقاه من القاهرة، اعتقد سلوين لويد أن ناصر هو المذنب والمسئول عن مظاهرات البحرين، منذ ذلك الوقت كان يرجع فشل السياسة الإنجليزية في الشرق الأوسط إلى عبد الناصر.

تمنى ناصر أن يكون طرد جلوب باشا باعثًا للدول العربية على أن تدعم وتتبع سياسة الحياد الإيجابي. ودعم هذه الأمنية انعقاد مؤتمر القمة الثلاثي لرؤساء وملوك: "مصر، وسوريا، والمملكة العربية السعودية". نتج عن المؤتمر توقيع اتفاقية يتعهد فيها الزعماء الثلاثة: "الملك سعود، شكري القوتلي، وجمال عبد الناصر" بتقوية التضامن العربي. واعتبرت هذه ضربة أخرى للإمبريالية.

"أنتم أيها الأمريكيون تركزون كل اهتمامكم على القواعد العسكرية، لكن هذه القواعد وما عليها من قنابل ذرية وهيدروجينية تبدو عديمة الفائدة. يمكنكم إنشاء قواعد عسكرية، لكن حول كل واحدة منها ستجدون آلاف القواعد الفدائية" – قال عبد الناصر ذلك في أحد خطاباته.

شددت الدوائر الإمبريالية التي وجهت لها هذه الكلمات من حملتها ضد مصر. على سبيل المثال نشرت "ديلي تلجراف" مقالًا تحت عنوان "خطة عبد الناصر السرية" أكد فيها كاتبها أن ناصر يقود عملًا تخريبيًا ضد الدول الرأسمالية، وبمعرفة وتحت قيادة إدارة المخابرات المركزية، طبعت ووزعت في مصر منشورات ضد حكم عبد الناصر. كما أصبح معروفًا بعد ذلك هذا السؤال المطروح في الولايات المتحدة الأمريكية: عمن سيكون رئيس مصر بعد خلع عبد الناصر؟ كان من بين المرشحين أحد زعماء الوفد غير المعروف شعبيًا، وكذا اللواء محمد نجيب.

كانت بعض قرارات الحصار الاقتصادي قد اتخذت. خفض الإنجليز من مشترواتهم من الأقطان المصرية طويلة التيلة بدرجة كبيرة. حينئذٍ طلبت مصر التي كان اقتصادها يعتمد في ذلك الوقت على محصول القطن مساعدة الاتحاد السوفيتي. اشترت بلاد المعسكر الاشتراكي فورًا ثلث محصول القطن المصري.

استطاعت المخابرات الحصول على كشف بالأسلحة التي أرسلتها لندن لتل أبيب. بعد دراسته اقتنع عبد الناصر بأن أحاديث الدبلوماسيين الغربيين

عن "حفظ توازن القوى" ليست إلا خدعة دعائية تستهدف إضعاف مصر. ظهر أن الجيش الإسرائيلي أحسن تسليحًا من الجيش المصري. الآن أدرك ناصر السبب في رغبة الإنجليز والأمريكان رفض بيع السلاح له. ولم يبق لناصر سوى طريق واحد – شراء السلاح من البلاد الاشتراكية. لم يصدق الأمريكان أن عبد الناصر قرر ذلك. اعتقد جون فوستر دالاس أن ناصر يريد أن يمارس ضغطًا عليه فقط. تصرف الإنجليز بطريقة أخرى، زار السفير الإنجليزي عبد الناصر وحذره من العواقب الوخيمة التي يمكن أن تسببها هذه الخطوة. وتوالت الأحداث. اتصل أحد المصريين من عملاء المخابرات الأمريكية بمندوب إدارة المخابرات المركزية في القاهرة جون ايكل برجر وأخبره بأن اتفاقية توريد السلاح قد وقعت. "في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل – كتب هيكل – اتصل بي ايكل برجر تليفونيًا، وكان مضطربًا جدًا، وألح علي أن أبذل جهدي لكي أساعد عبد الناصر على الهرب من "الفخ الشيوعي". وطالب بالتريث لحين وصول المبعوث الخاص الذي غادر واشنطن في طريقه للقاهرة فعلًا. لكن ناصر كان قد فقد الثقة في كلام الأمريكان.

في سبتمبر ١٩٥٥ جرى استعراض عسكري. تجمع عدد ضخم من المراسلين الأجانب بالنسبة لهذا الاستعراض المعتاد في مصر، في الوقت المناسب نهض إلى المنصة جمال عبد الناصر، كالعادة دائمًا، بدأ يتكلم في هدوء وكان يتوقف قليلا من حين لآخر.. حكى ناصر بالتفصيل كيف أن النظام الثوري حاول شراء الأسلحة من البلاد الرأسمالية دون جدوى. جلس الصحفيون متتبعين الخطاب في صمت، شاعرين بحاستهم الصحفية أن هناك شيئًا هامًا سيعلن في الخطاب.

وأعلن ناصر:

"...حكومة تشيكوسلوفاكيا أبدت استعدادها لمدنا بالسلاح الذي نطلبه على أساس أنها صفقة تجارية بحتة ...".

وبينما كان ناصر لا يزال مستمرًا في إلقاء خطابه، حمل التلكس إلى كل أنحاء العالم ما سماه الصحفيون بالخبر المثير الذي قال عنه جون فوستر دالاس: "أخطر حادث منذ الحرب الفيتنامية" (٤).

أغاظ جمال الإمبرياليين بإجابته على العديد من أسئلة الصحفيين الذين يقابلوه يوميًا، في إجابته على سؤال مراسل الإذاعة الأمريكية ذكره بأنه طلب أولًا السلاح من أمريكا. وعندما سأله الصحفيون عن كمية السلاح الذي اشتراه ونوعه، ابتسم في هدوء وقال هذا سر عسكري.

عمومًا لم تكن هناك مفاجأة خاصة من أي نوع. في اليوم التالي لتوقيع اتفاقية شراء السلاح أحيط علم السفيرين الإنجليزي والأمريكي بذلك شخصيًا. كان من صالح عبد الناصر أن يظهر لواشنطن ولندن أن هناك بلادًا مستعدة لمد الشعب المصري بالمساعدات الخالية من الأطماع.

سَبَّبَ حزم وصلابة عبد الناصر الاضطراب لواشنطن، وطار إلى مصر على وجه السرعة مستر "آلن" وكيل وزارة الخارجية الأمريكية لشئون الشرق الأوسط.

لكن لم يستطع أن يغير الوضع لصالح الولايات المتحدة. أصبح المصريون في غنى عن مقترحات المبعوث الأمريكي. انتظر آلن ومعه السفير الأمريكي ساعة ونصف في الاستقبال حتى سمح لهم جمال عبد الناصر بمقابلته.

أصبح ناصر في هذه الأيام أشهر شخصية في العالم العربي. في بغداد، والدار البيضاء. في عدن، ودمشق. في عمان، وبيروت علقت صور عبد الناصر على الجدران وفي فترينات المحلات.

---

(٤) يعني بذلك الحرب التي شنها الاستعمار الفرنسي ضد الشعب الفيتنامي بمساندة الولايات المتحدة الأمريكية.

وصل وفد من رجال الكونجرس الأمريكي بسرعة إلى القاهرة.. تواجد الضيوف بصحبة سفيرهم عند عبد الناصر. ما أن خرجوا من المبنى، قفز الشحات مقطوع الرجلين ناحية السفير بعلبة صفيح. أخرج السفير جيوبه مظهرًا أن ليس لديه أي نقود. اضطر رجال الكونجرس أن يعطوا الشحات ما في جيوبهم.

في اليوم التالي نشرت جريدة قاهرية خبرًا عن ذلك، أن أعضاء الكونجرس تبرعوا بأموال لشراء الأسلحة التشيكية. اضطر السفير الأمريكي أن يعقد المؤتمر الصحفي الذي أعلن فيه أن رجال الكونجرس تبرعوا بالمال لأسرة الكسيح.

وصل الاستعراض الذي أقيم في القاهرة إلى الذروة. ظهرت في سماء القاهرة طائرات هجومية حديثة سوفيتية الصنع عليها إشارات سلاح الطيران المصري. ظهرت في الشوارع والميادين الدبابات الثقيلة، والمدافع ذاتية الحركة. لم يكن لدى الجيش أسلحة ممتازة كتلك المعروضة أبدًا. نجح الملحقون العسكريون الأجانب الذين حضروا الاستعراض في تسجيل العديد من الملاحظات في مفكراتهم. استمر الاستعراض أربع ساعات ظل خلالها عبد الناصر واقفًا على المنصة بالرغم من أشعة الشمس الحارقة. في هذه اللحظة كان فخورًا ببلده وبجيشه.

ظهرت أمام المنصة مع وحدات الجيش المصري وحدات رمزية من الجيوش العربية الأخرى. ظهرت قوات رمزية أردنية، وسورية، وسعودية، ويمنية في زيهم الوطني المميز، أكدت مشاركة القوات في الاستعراض على الدور الخاص الذي تلعبه مصر في العالم العربي.

****

في أيام الثورة الأولى أعلن الضباط الأحرار أنهم يهدفون إلى تحقيق أمل مصري قديم هو بناء سد عالٍ على النيل.

وعبر سنوات عديدة أدارت مصر مع البنك الدولي للتعمير والتنمية محادثات لتمويل عملية بناء هذا السد. تناقش فوستر دالاس بخصوص هذا الموضوع مع السفير المصري أحمد حسين في واشنطن.

قال السفير في إحدى المحاضرات:

"لقد شرحت للمستر دالاس بأن مصر تحتاج مساعدة أمريكا في بناء السد، لقد شرحت له أنه على الرغم من أن الحكومة السوفيتية اقترحت علينا شروطًا أفضل من تلك التي قدمها البنك الدولي إلا أننا مبدئيًا نفضل إبرام الاتفاقية مع البنك، وشرحت له أنه ليس من مصلحة البنك تأجيل اتخاذ القرار بتمويل بناء السد، حيث أن هذا سيضطر مصر إلى قبول العرض السوفيتي".

وكتب هيكل: "كانت هذه مبادرة شخصية من السفير المصري حيث أن السوفيتي لم يكن قد قدم بعد أية مقترحات في ذلك الوقت متحملاً بذلك بنفسه مسئولية هذا التصرف".

كان أحمد حسين رجلًا عمليًا جدًا. لقد استخدم ببراعة الصدمة النفسية التي يعاني منها الأمريكان إثر إبرام اتفاقية توريد السلاح لمصر من الدول الاشتراكية، وكان كل شئ متوقفًا تمامًا على أمريكا. ووعد البنك بالمشاركة بنصف نفقات السد إذا ما وافقت أمريكا وإنجلترا بتحمل النصف الثاني وهو حوالي ٢٠٠ مليون دولار. لكن الإنجليز والأمريكان وافقوا على تمويل نفقات السنة الأولى فقط.

لم يقرر ناصر البدء في بناء السد الذي تحدد له مدة عشر سنوات حيث أنه لم يكن مقتنعًا تمامًا بأن بناء السد سيكتمل بنجاح؛ لأن موقف الإنجليز والأمريكان يعني اضطرار مصر لإجراء مفاوضات سنوية عن التمويل مما يتيح لهم استخدام هذه العملية لممارسة ضغط على الجمهورية الجديدة الشابة.

أصبح معروفًا أيضًا أن أمريكا ربطت مساعدتها هذه بالعديد من الاشتراطات والطلبات. أولًا يجب على مصر أن تعلن أنها لن تبرم أية صفقات سلاح جديدة من دول أوروبا الشرقية، علاوة على ذلك يتعين على عبد الناصر أن يلعب دورًا في منطقة الشرق الأوسط ليضمن سلامة إسرائيل.

وأصبح واضحًا أن المباحثات مع أمريكا قد وصلت إلى طريق مسدود وسرعان ما تأكد ذلك فعلًا بسحب أمريكا قرارها السابق ورفضها تمويل بناء السد.

علم ناصر بذلك وهو في الطائرة عائدًا من يوغسلافيا في طريقه إلى القاهرة. وكان معه على نفس الطائرة نهرو، وما أن علم ببيان الحكومة الأمريكية اقترب من وزير الخارجية المصري د. محمود فوزي وقال: "هذا ليس مجرد رفض، إنها ضربة مُقَنَّعة للنظام الجديد. اتخذت لتحطيم نفسية الشعب المصري بغرض إسقاط للنظام". وهبطت الطائرة في مطار القاهرة في الصباح المبكر.

في نفس الوقت اضطر نهرو إلى قطع زيارته ليفسح المجال لمواجهة الأحداث الجسام.

****

لم يستطع ناصر بأي حال من الأحوال نسيان حديثه مع سلوين لويد، في واقع الأمر، لماذا لا تمارس مصر حقوقها في السيادة على أرضها وتحصل على الأموال اللازمة لبناء سد أسوان العالي من رسوم مرور البواخر بقناة السويس؟ لماذا يجب على المصريين أن يقتسموا أموالهم مع الأجانب؟

اختار ناصر مسبقًا الأشخاص الذين يستطيعون تنفيذ تلك العملية ذات المسئوليات الجسام الخاصة بتأميم القناة. كان من بين هؤلاء المهندس محمود يونس، دكتور مصطفي الحفناوي وآخرون، تولى ناصر تعريفهم بالخطة وأعطى لكل منهم واجبات محددة.

أعد الحفناوي على سبيل المثال قانون التأميم.

في عام ١٩٦٨ ينتهي امتياز الاستغلال و"الشركة العامة لقناة السويس البحرية" التي تمتلك أغلب أسهمها حكومة بريطانيا العظمى، وأصحاب المصالح الفرنسية الذين اعتزموا مد فترة الامتياز.

اجتهد ناصر أن يتوقع ماذا يمكن أن يحدث بعد أن يعلن تأميم القناة. ليلة كاملة في دراسة الموضوع. في الصباح انتهى من إعداد الخطة التي أطلق عليها اسم- "لو كنت مكان إيدن".

"يجب أن ينفعل إيدن في عصبية - كتب ناصر في هذه الخطة، متذكرًا مقابلته معه في القاهرة - في نفس الوقت عندما يشعر بضعف موقفه ربما يحاول إلى استخدام القوة. لكن لن يستطيع تحقيق احتلال مصر بالكامل.

لكن أي أنواع القوة يمكن أن توجهها إنجلترا إلى مصر؟

ربما يحاول إيدن إشراك فرنسا في المؤامرة. ومن الجائز أن تظهر فرنسا بالذات حماسها. ستبارك الولايات المتحدة الأمريكية هذا العمل لكن في صمت. لكن لم يتول أحد استنتاج تأثير ذلك على انتخابات الرئاسة الأمريكية. إمكانيات المهاجم ضئيلة. سيلعب الروس دورًا حاسمًا. ما الذي يمكن أن يقرره المهاجم أيضًا؟ الهجوم على الإسكندرية من لبنان. لتحقيق ذلك يحتاجون لقوى ضخمة؛ لأنه في هذه الحالة سيكونون محتاجين للذهاب إلى القاهرة. تضرب الإسكندرية من البحر، كما فعل ذلك الأدميرال سيمور عام ١٨٨١، هل يمكن أن يفعلوا ذلك؟ هذا غير مناسب - سيكون رد فعل الرأي العام العالمي خطرًا. هل أيضًا من المحتمل إنزال جنود بهدف احتلال القناة. هذا يعني من الضروري تقوية القوات المرابطة على ضفتي القناة. حتى لو حدث في سبيل ذلك تجريد ذلك سيناء..".

هـذا يـعني أن ناصرًا بالرغـم من الهجوم على غزة اعتقـد أن إيدن لن يـوافق على إشراك إسرائيل في هذه العملية.

واسـتمر عبد الناصر. "التدخل الفوري في منتهى الخطورة. أنسـب وقت هو بداية أغسـطس. مع مرور كل أسبوع ستتناقص فرص إيدن في النجاح. نبذل مجهودًا سياسـيًا. الأسبوع الثاني من أغسطس – الخطورة ٦٠٪، ـ الأسبوع الثالث ٥٠٪، والرابع ـ ٤٠٪ "نهاية سبتمبر ٢٠٪ ...".

تعطينـا هـذه الوثيقة إمكانيـة التعرف على أسـلوب ناصـر في العمل، وتقنع بصحة تصوراته.

كل شئ معمول حسابه، وانتظر ناصر في صبر الأحداث التالية في ٢٣ يوليو ١٩٥٦ حضر ناصر افتتاح محطة تكرير بترول بطريق القاهرة – السويس. أراد ناصر انتهاز هذه المناسبة لكي يعلن تأميم قناة السويس. لكن كانت هناك حاجة لمراجعة بعض التفاصيل، اضطر لتأجيل القرار الهام. على أية حال خطب ناصر بحسم: "موتوا بغيظكم – هذه الكلمات الموجهة للولايات المتحدة دوت في كل أنحاء العالم – سـتبني مصر السد حتى لو اضطررنا إلى نبش الجرانيت بأظافرنا".

بينما كان يسـتمع ناصر إلى الكلمة الدقيقـة لمحمود يونس الذي قاد بنـاء محطة تكريـر البترول. قرر تكليفه برئاسـة لجنة التأميـم.. بعد انتهاء المراسيم قابل محمود يونس.

في هـذا الليـل جمعـوا لعبـد الناصـر معلومات عـن الجيـوش الإنجليزية المتواجـدة في البحر الأبيض. بدا أن الإنجليز لن يقـدروا على البدء بالهجوم فورًا حيث أنهم كانوا في حاجة إلى شهرين على الأقل لتجميع قواتهم.

أمر عبـد الناصر محمود يونس السـفر فـورًا إلى الإسماعيليـة حيث توجد إدارة شركة قناة السويس، ويسمع خطابه من الراديو يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٦ الذي سيلقيه في الإسكندرية.

اتفقا على أنه بمجرد أن ينطق كلمة "ديلسبس"، يقوم يونس بتنفيذ الخطة فورًا. إذا لم تذكر كلمة "ديلسبس" في الخطاب فعلى محمود يونس انتظار أوامر جديدة. أعد محمود يونس كشفًا بأسماء المهندسين المدنيين والعسكريين الذين سيتولون معه تنفيذ العملية. تسلم كل واحد منهم ظرفًا فيه خطة عمله مختومًا بالشمع الأحمر.

قبل إلقاء الخطاب جمع ناصر الوزراء في الإسكندرية، ولمدة ساعتين- قبل إلقاء الخطاب – لخص للحكومة خطة تأميم القناة. أبدى البعض تخوفه. أعلن ناصر أنه يتحمل مسئولية هذا العمل. وانتهي الاجتماع بدون اتخاذ أي قرار رسمي.

****

لم يستطع ناصر أن يعد خطابه. فقط كتب على الظرف بعض النقاط. لم يتمكن ناصر من التفكير فيها وهو في طريقه إلى المؤتمر الشعبي حيث أنه ذهب إليه واقفًا في سيارته لتحية الجماهير المحتشدة على جانبي الطريق.

وبالرغم من هذا كان الخطاب من أقوى خطبه وأكثرها عنفًا.

ولكي لا يفوت محمود يونس سماع الإشارة المتفق عليها، كرر ناصر عدة مرات كلمة "ديلسبس" [٥].

لتنفيذ العملية كون محمود يونس أربع مجموعات. واحدة بقيت في القاهرة، والثانية ذهبت إلى بورسعيد، والثالثة في السويس. سافر يونس مع المجموعة الأساسية إلى الإسماعيلية.

في اللحظة التي كان ناصر يلقي فيها خطابه كان يونس جالسًا في سيارته. عندما سمع كلمة "ديلسبس" توجه فورًا إلى مدير شركة قناة السويس.

---

(٥) ديلسبس، هو المهندس الفرنسي الذي قاد عملية حفر قناة السويس.

كان قرار عبد الناصر تأميم القناة والنغمة التي أعلن بها مفاجأة كاملة لإيدن الذي أقام في مساء يوم ٢٦ يوليو حفلة عشاء تكريمًا للملك فيصل ملك العراق الذي كان يزور لندن، كان نوري السعيد حاضرًا حفل العشاء وكذا الكثير من الشخصيات السياسية الإنجليزية. حكى نوري السعيد فيما بعد عما حدث في هذا العشاء.

قبل تأميم القناة بعدة ساعات عبر المحافظون أعضاء ما يسمي "بلجنة عام ١٩٢٢" والجالسون عادة على أرائك البرلمان الخلفية والناقدون مرارًا لسياسة الحكومة العمالية عن شكرهم لإيدن على "الفن، الذي عامل به هذا الوفد الصعب".

بمهارة عالية انحرف إيدن بالمناقشة إلى موضوع مدى ردود فعل عبد الناصر بعد سحب الإنجليز والأمريكان تمويل بناء سد أسوان. اعتقد إيدن أن ناصرًا الآن محصور في الزاوية.

سمع الملك فيصل باهتمام، كيف يتناقش الساسة الإنجليز حول زعيم مصر، كان إيدن مقتنعا تمامًا بأن ناصراً طُرِحَ أرضا، وبحثوا عمن سيحل مكانه في قيادة مصر.

قارب العشاء على النهاية عندما تسلم إيدن من أحد السكرتارية ورقة. بمجرد أن قرأها اكتسى وجهه بحمرة بالغة. أعلن للضيوف عن قرار ناصر، وفقد تحكمه في نفسه تمامًا.

صاح رئيس الوزراء الإنجليزي قاذفًا الورقة.

- من أعطى له هذا الحق؟!

- كيف باللّه عليكم يكون التصرف؟ سأل إيدن ملتفتًا إلى نوري السعيد.

صرخ المستشار العراقي بحرارة: ـ أمامكم طريق واحد فقط! هناك حاجة لتوجيه ضربة سريعة بقدر الإمكان.

نظر إيدن إليه شاكرًا، كم يفهمه حلفاءه جيدًا، لقد تكلم اليوم صباحًا فقط في اجتماع مجلس الوزراء عن ضرورة التصرف ضد ناصر بحزم.

في الحقيقة الإسراع كيف؟ نسحب المرشدين الأجانب من مصر ولن يستطيع العرب إدارة العمل بالقناة، كان إيدن مقتنعًا تمامًا بهذا. يعني أن آمال عبد الناصر لن تتحقق. وحينئذٍ يظهر وضع مثالي للتدخل. لكن بسرعة علم إيدن باستغراب أن ناصر اقترح على المرشدين الأجانب أن يبقوا في عملهم.

من وجهة نظر القانون الدولي لم يخرق ناصر القوانين. القناة تمر في الأراضي المصرية. في الواقع الدولي هناك سوابق عديدة أممت فيها بعض الدول ملكيات خاصة متواجدة على أراضيها.

الوثيقة الوحيدة التي يمكن للدول الرأسمالية استخدامها ضد مصر هي معاهدة القسطنطينية عام ١٨٨٨. وفقًا لهذه الوثيقة يجب أن تبقى القناة حرة ومفتوحة للسفن التجارية والحربية التابعة لكل الدول في السلم والحرب. لكن شركة قناة السويس لم تتحمل مسئولية حرية الملاحة إطلاقًا. لقد ضمنتها الحكومة المصرية.

على أي حال أعلن الإنجليز والفرنسيون المحنكون بما فيه الكفاية، أن الإدارة المصرية غير مدربة على إدارة واستغلال القناة.

عقد إيدن فورًا العديد من الاجتماعات، نصحه نوري السعيد على ما يبدو باتخاذ رد فعل سريع.

قال نوري: ـ إذا تركته بدون عقاب، سيقلب علينا الجميع. (بعد سنتين تقريبًا قتل نوري السعيد. بعد أن قامت ثورة في العراق).

قـرر إيدن البدء في الهجوم، الجانـب القانوني لم يعد موضوع ذا أهمية الآن. إلا أنه من جهة أخرى ذكر العسـكريون إيدن بأنه يوجد في مصر الآن أسلحة جديدة سـوفيتية الصنع. وظهر أيضًا أنه في حالة توقف الملاحة بقناة السويس سـتصبح لندن بـلا وقـود، حيـث أن احتياطي الوقـود المخزون يـكفـي ثلاثة أسابيع فقط.

في ذلك الوقت طلبت مصر مسـاعدة الدول الصديقة، وتطوع مرشدون من الدول الاشـتراكية للعمل مـكان الأجانب اللذين رفضوا التعـاون مع الإدارة المصرية. لم تنفذ جميع شـروط اتفاقية القسطنطينية حول عبور السفن خلال قناة السويس بالكامل.

أخذ وضع إيدن يضعف يومًا بعد يوم، وازداد الضغط على أعصابه أيضًا. لاحظـت المخابـرات الأمريـكية أيضًا أن إيدن بعد التأميـم أصبح هزيلًا وبدأت تظهر عليه علامات عدم التوازن.

لكـن خطة إيدن الهجومية كانت مدعومة. في اليوم التالي لإعلان تأميم القناة، عندما أخبر رئيس الوزراء الإنجليزي رئيس الولايات المتحدة أيزنهاور عن عزم إنجلترا اللجوء إلى القوة، وصل إلى لندن أحد المقربين لبن جوريون، شيمون بيريـز. ثم طار من لندن إلى باريس. رتب له عميله جوزيف ناخمياسـي العديد من اللقاءات الهامة في العاصمة الفرنسـية. شـرح بيريز لوزير الدفاع الفرنسـي وضع إسـرائيل واضعًا كل خدماته لتدبـير هجوم على مصر في باريس ولندن باركوا هذا الاقتراح بتهليل كبير. بدأت المحادثات المحددة. اقترحت إسـرائيل احتلال قناة السـويس. اتجهت إنجلترا وفرنسـا إلى إرسـال حملة عسـكرية. أعطـى بن جوريـون أمرًا باسـتدعاء الجيش الإسـرائيلي. كان قائـد العملية موشـى ديـان الذي اضطلع بالسـفر إلى باريس في تلك الأيام عـدة مرات. أظهر الفرنسـيون عدم رضائهم بخصوص حلفائهم الإنجليـز المترددين، لقد جعلتهم النهاية الذليلة لاحتلال مصر أكثر حذرًا في الدخول في المغامرة الجديدة، شجع ديـان الإنجليز والفرنسـيين وقـدم لهم جداول بالأسـلحة الجديـدة التي تطلبها إسـرائيل مـن حلفائها الأوربيـين. وهـؤلاء لم يبخلـوا بالوسـائل معتقدين أنه

كلما كثرت الأسلحة التي يعطوها لإسرائيل، كلما أسرع ديان النشيط - الذي قيم نشاطه جيدًا - بالبدء بالتدخل.

في ذلك الوقت زادت إنجلترا وفرنسا من حصارها الاقتصادي على مصر، فجمدوا الأرصدة المصرية في البنوك الإنجليزية والفرنسية. واقترح إخفاء أساطيل هذه الدول في موانى مالطة وقبرص. في تلك الأيام سافر دالاس إلى لندن واجتمع بايدن. في خلال مباحثاتهم اعترفوا بفائدة الدعوة لعقد اجتماع في لندن لمندوبي الدول الموقعة على معاهدة القسطنطينية عام ١٨٨٨ وكذلك أيضًا بلاد المنتفعين بالملاحة بقناة السويس.

بدأ المؤتمر أعماله في ١٦ أغسطس. لم يحضر الافتتاح مندوبو كل من اليونان وقبرص. كما لم يحضر وفد مصري إلى المؤتمر.

في البداية أراد عبد الناصر رئاسة الوفد المصري، على أية حال - إلا أن رئيس وزراء إنجلترا وجه في التلفزيون حديثًا مهينًا لرئيس مصر.

"عبد الناصر - عدو - أعلن ذلك إيدن قاذفًا بورقة في وجه عدسات التليفزيون - هاهو كتاب عبد الناصر الأسود ..."

وكان هذا سببًا لإلغاء السفر، لم ترسل مصر وفدًا وبهذا الشكل نفضت يدها من القرارات التي يمكن أن يتخذها المؤتمر. في وقت انعقاد جلساته تغلب الاتجاه المضاد لمصر. ولكن لم يلغ هذا انطلاق أصوات في المؤتمر تدافع عن مصر، فقد ساندت وفود كل من الاتحاد السوفيتي، والهند، وإندونيسيا، وسيلان بحزم الشعب المصري في نضاله ورفضت التوقيع على القرار الذي يقضي بتكوين لجنة دولية لإدارة القناة.

أرسلوا وفدًا إلى مصر لشرح قرارات المؤتمر. طلب إيدن أن يرأس هذا الوفد، لكن أغلبية المشتركين بالمؤتمر وافقوا على رئاسة رئيس وزراء استراليا منزيس للوفد. عدا ذلك وصل إلى القاهرة مندوبو إيران، وأثيوبيا، والولايات المتحدة، والسويد.

في اليـوم التالي للوصول أصبح لـدى الوفد إمكانية إجراء نقاش مع ناصر. في الخامـس من سـبتمبر في فندق "المنيل" قصر الأمير محمد علي السـابق ـ عم الملك المخلوع – أقام عبد الناصر عشاءاً تكريمًا للوفد.

في ٦ سبتمبر تقابل الوفد للمرة الثالثة مع عبد الناصر. في هذه المرة ضغط منزيس بكل قوته لكي يوافق ناصر على الإدارة الدولية لقناة السويس.

لكن ناصر نحى الاقتراح جانبًا. رأى ناصر أنه في هذه الحالة ستفقد مصر لمدة أخرى تحكُمها في القناة.

حـاول منزيس إقناع ناصر بأن وجود إدارة دولية سـوف يحل أي مشـكلة تظهر.

أجاب ناصر: ـ أنت تعتقد أن هذا يضع نهاية لكل المشـاكل وأنا احتفظ بوجهة نظر مضادة.

احتـد منزيـس: ـ لا يا فخامة الرئيس، عدم الرغبـة في تفويض إدارة دولية لإدارة القناة سيؤدي إلى المتاعب.

خبط ناصر بحزم الوثائق المعدة للمحادثات على الملف، وقال:

ـ على ما يبدو، أنت تهددني، حسنًا. المحادثات انتهت.

تدخـل وزير أثيوبيا. قال لناصـر: إن منزيس زل في الحديث وأنه لم يفكر في تهديد أحد، وهكذا أيضًا قال مندوب السويد.

همهم منزيس مرتبكًا: ـ أرجو المعذرة أنا لا أملك هذا.

لكن ناصر يعرف ماذا يفعل.

ـ إذا قلت أن رفض قرار المؤتمر يؤدي إلى مصاعب، فهذا أكبر تهديد. وأنا لا أوافق على الاستمرار في مباحثات تحت الضغط.

في الخامس من أكتوبر انتقلت مشكلة القناة إلى مجلس الأمن الدولي لمناقشتها. واستمر النقاش تسعة أيام. أكدت هيئة الأمم المتحدة على حرية الملاحة بقناة السويس وأظهرت احترامها لسيادة مصر، ودعت إلى عدم الوصاية على "سياسة الدول المختلفة". و يجب أن تتحدد الرسوم على أساس اتفاق مصر مع البلاد المنتفعة بالقناة، وجزء منها ينفق على القناة. كان تقييم ناصر للقرارات التي اتخذت في مجلس الأمن إيجابيًا، حيث أنهم من وجهة نظر الرئيس المصري يبعدون شبح التهديد العسكري. ولتطبيق هذه القرارات اقترحت الأمم المتحدة عقد اجتماع بين وزراء خارجية مصر، وفرنسا، وإنجلترا.

اقترحوا عقد الاجتماع في ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ بجنيف، لكن الاجتماع لم يتم، وصل من قبرص ومالطة إلى مصر ما يشير إلى تمركز القوات الإنجليزية، حكى قبطانو السفن العابرة لقناة السويس عن ظهور سفن حربية إنجليزية، أعطى ناصر أوامره بتركيز القوات المنسحبة من سيناء في الدلتا على شاطيء القناة.

على ما يبدو مع نهاية شهر أكتوبر وصل بن جوريون، وديان وأجروا المباحثات السرية الأخيرة مع جي موليه، وجنرالات فرنسا. في اليوم التالي انضم إليهم سلوين لويد.

كان الإنجليز والفرنسيون مقتنعين أن الولايات المتحدة ستؤيد العدوان، أمّا عن موقف الاتحاد السوفيتي فلم يكن معروفًا لديهم. أعلن بن جوريون أن "لا داعي للقلق من هذا الحساب". واعتقد أن الثورة المضادة في المجر لن تسمح للاتحاد السوفيتي بالتدخل في أحداث الشرق الأوسط بنشاط.

خلال يومين بعد عودة ديان، وبن جوريون إلى إسرائيل عبرت القوات الإسرائيلية حدود مصر وبدأت تتحرك بسرعة في اتجاه شرم الشيخ.

****

في هذا اليوم كانت أسرة ناصر تحتفل بعيد ميلاد إبنه. ودعى أصدقاء الصغير عبد الحميد. وعلى غير المتوقع بينما يستمع عبد الناصر إلى حوار الصبية الصغار، حملوا إليه نص الأمر الذي التقطه جنود الإشارة المصريون الصادر لفرق القوات الإسرائيلية المدرعة بسيناء.

كان الجزء الأساسي لفرق القوات المسلحة المصرية موجودًا على ضفتي القناة، وقرر جمال أن من الضروري على القوات أن تحتشد بالقرب من المراكز الحيوية الهامة في البلاد.

في نفس الوقت تم إسقاط طائرة إسرائيلية بالأردن وعثر فيها على وثائق عسكرية هامة لهيئة أركان حرب القوات الإسرائيلية موجودة في حقيبة الجندي الذي لقى مصرعه. لقد استعد الإسرائيليون للاستيلاء على سيناء وقناة السويس. تحركت في المساء فرقة مصرية لقطع الطريق على العدو، وفي صباح يوم ٣٠ من أكتوبر ١٩٥٦ وصلت الوحدات المصرية إلى نقط الاشتباك مع العدو ودارت معارك قوية على أرض أبو عجيلة حيث اعترض لواء مدرع إسرائيلي عند مفترق الطرق فرقتين مشاه مصريتين. حاولت القوات الإسرائيلية خلال عدة ليالٍ الاستيلاء على القرية.

فقد الإسرائيليون ما يقرب من أربعين دبابة، وثماني طائرات في المعارك التي كان من نتيجتها ظهور تفوق التكتيك الحربي للجيش المصري. وأظهر الجنود المصريون بسالة فائقة.

وعلى الصعيد العالمي تطورت الأحداث بشكل كبير أكثر اندفاعًا.

في اليوم التالي لبداية الهجوم الإسرائيلي استدعت وزارة الخارجية في كل من باريس ولندن سفراء مصر وإسرائيل في بلديهما في وقت واحد. وتم إبلاغ السفيرين بإنذار حكومتي إنجلترا وفرنسا ينص على إيقاف العمليات العسكرية فورًا وأن تقف القوات المصرية والإسرائيلية على بعد عشرة أميال على جانبي القناة. وعلى مصر أن تقبل طواعية "الاحتلال المؤقت" للقوات

الإنجليزية والفرنسية للمواقع الهامة في منطقة بورسعيد، والإسماعيلية، والسويس، وأكد الإنذار أنه في حالة رفض أي من الجانبين أو كلاهما قبول هذه الطلبات فستقوم القوات الإنجليزية والفرنسية بتنفيذ ما يقع على عاتقهما من مسئوليات.

رفضت الحكومة المصرية الإنذار، أمّا إسرائيل فكما هو متوقع مسبقًا وافقت على الامتثال لطلبات كل من إنجلترا وفرنسا.

في هذا الوقت كانت القوات الإسرائيلية قد وصلت على بعد ٤٠ ميلًا من شاطئ القناة، وفي حقيقة الأمر أتاح الإنذار لهم إمكانية التقدم.

وفي نفس ذلك الوقت طلب عبد الناصر السفير الإنجليزي تريفليان مساءًا.

ـ لقد تسلمنا اليوم إنذاركم.

وشعر السفير بالارتباك وقال محاولًا تخفيف حدة الموقف:

ـ هذا ليس إنذارًا .

أكد عبد الناصر من جديد :

ـ إننا فهمنا هذه الوثيقة على أنها إنذار .. وسلمه رد الحكومة المصرية المكتوب، معلنًا أن إنجلترا وفرنسا عقدتا العزم على بدء الهجوم على مصر.

ومرة أخرى بدأ السفير يتكلم قائلًا:

ـ وفقًا للنص الموجود عندي هدف التدخل وقف العمليات العسكرية والدفاع عن قناة السويس..

وقاطعه عبد الناصر:

ـ نحن قادرون على الدفاع عن قناة السويس، وفي الأيام المقبلة سنكون مضطرين للدفاع عنها ليس ضد الإسرائيليين وحدهم.

ولم يبق للسيد همفرى تريفليان إلا أن يطلب من ناصر الحفاظ على الرعايا البريطانيين وممتلكاتهم.

وفي اليوم التالي بدأت الطائرات الإنجليزية والفرنسية تقصف القواعد العسكرية والجوية المصرية.

وهاجت الصحافة الغربية على ناصر، وقارنوا بينه وبين هتلر وموسوليني، ووصفوه بالمعادي للسامية وبالفاشي، وطالبت الإذاعة البريطانية بقبرص المصريين علانية بإسقاط عبد الناصر.

خرج عبد الناصر إثر سماعه أزيز القاذفات والمقاتلات ليري ما الذي يجري بالعاصمة. حيًا القاهريون ناصر عندما تعرفوا على سيارة الرئيس. فهم ناصر أنه يمكن الاعتماد على تأييد الشعب.

أصيبت أبراج الإرسال نتيجة للقذف الجوي وتوقفت إذاعة القاهرة عن العمل، اتجه ناصر إلى الأزهر وهناك أمام مئات الألوف من المصريين المحتشدين في الميدان، وفي المسجد ألقى عبد الناصر خطابًا. وكان يرن في آذانه صدى هتافات الجماهير الحماسية تظهر رغبتهم في الذهاب إلى أرض المعركة. عندما عاد إلى مكتبه علم بأن هناك مجموعة من السياسيين السابقين ورجال الصناعة يطلبون تحديد موعد للمقابلة لكي يقنعوه بالموافقة على الشروط الإنجليزية والفرنسية.

أعلن ناصر: ـ كل من يأتي إلي للحديث عن الاستسلام سيضرب بالنار عند مدخل بوابة القصر الجمهوري.

تم توزيع السلاح في كل المدن. كان العمال المسلحون بالرشاشات يعملون نهارًا على الماكينات وفي المصانع، وليلًا ينتظمون في صفوف الدفاع الشعبي وقام ضباط الجيش بتدريب الفدائيين في الميادين والساحات الشعبية مباشرة على الأعمال العسكرية.

اختار عبد الناصر مقر مجلس قيادة الثورة ليقود منه المعركة، كانت مسئولية مستقبل المصريين في ظروف قاسية وصعبة ملقاة على كتفيه. وفي هذه الأيام كان ناصر ينام من ساعتين إلى ثلاث ساعات فقط في اليوم.

كان يقول عادة : أيقظوني عندما يكون هناك قصف جوي. ثم يرقد على سرير معدني صغير موضوع في غرفة مكتبه.

ذات مرة قرر ناصر بعد ليلة لم ينم فيها التوجه إلى الجبهة، ولم يستطيعوا إقناعه أن يبقى بالقاهرة بالرغم من قولهم له أن طيران العدو متحكم في الطريق، وترك القاهرة يوم ٥ نوفمبر. وفي الطريق باغته خبر مزعج: تقوم الطائرات الإنجليزية بإسقاط مظليين على بورسعيد وبور فؤاد. وتشير أعدادهم عن بداية عملية ضخمة. فاضطر للرجوع إلى القاهرة.

صدر أمر للقوات المصرية الصامدة أمام الهجوم الإسرائيلي في سيناء بالانسحاب إلى منطقة القناة، استمرت فقط القوات المحاصرة من جميع الجهات في منطقة أبو عجيلة في المقاومة والصمود، وفي النهاية استطاعت فك الحصار بسرعة. وتحركت إلى منطقة القناة. وفي آخر الأمر استطاعت القوات الإسرائيلية احتلال شرم الشيخ. فقدت مصر موقعًا استراتيجيًا هامًا، لكنها حافظت على الجيش. على أي حال كانت الإمكانيات محدودة.

سيطر طيران العدو جوًا؛ لأن مصر لا تمتلك العدد الكافي من الطيارين المهرة...على الرغم من ذلك أبلى الطيارون المصريون بلاءًا حسنًا. ذات مرة أثناء عودة ثلاث طائرات مصرية إلى قاعدتهم بعد انتهاء إحدى المهمات القتالية دخلوا معركة جوية مع الطائرات الإسرائيلية فوق مطار كبريت، أسقطت طائرة إسرائيلية ولاذ الباقي بالفرار.

هناك حقًائق أخرى كثيرة عن بطولة وشجاعة المصريين. فقد خرجت مدمرة مصرية في دورية أمام حيفا وأغرقت ثلاث زوارق طوربيد وأسكتت مدفعية الشاطئ.

بعد ذلك توجهت المدمرة شمالًا وهوجمت بمدمرتين إسرائيليتين، وذهبت لمساعدتهما سفن حربية إسرائيلية أخرى مدعمة بالطائرات الإسرائيلية. لكن استمرت المدمرة المصرية في المقاومة. واشتعلت النيران في إحدى المدمرات الإسرائيلية، وعلى أي حال أصابت إحدى الدانات مدخنة المدمرة المصرية. وعلى الرغم من اشتعال النيران استمرت في إطلاق النيران حتى الطلقة الأخيرة.

****

قبل إسقاط المظليين على بورسعيد قام الطيران الأنجلو فرنسي بقصف المدينة قصفًا وحشيًا بربريًا - نسفت العديد من المنازل السكنية. وظهر احتمال احتلال المدينة - أعطت السلطات المحلية أوامرها بترحيل النساء والأطفال إلى دمياط والمطرية.

في يوم ٦ نوفمبر، أي في اليوم التالي بعد إسقاط المظليين، قام طيران العدو بعدة جولات فوق المدينة. على أثر ذلك دخلت الأساطيل الإنجليزية والفرنسية الميناء وقصفوا المربعات السكنية من البحر.

وصرح ناصر قائلًا: إن التنكيل بالمدينة قد بدأ. وتحول استاد المدينة إلى معتقل كبير، ووضعوا فيه كل من التقطوه من الشارع بلا تمييز، نهب الإنجليز ليلًا بيوت المواطنين المسالمين، ولم يحاول أحد إطفاء الحرائق المشتعلة في المدينة وسرعان ما تعطلت أنابيب المياه.

عندما احتل الجيش الإنجليزي مدينة بورسعيد، أعطى عبد الناصر أمرًا للقوات المصرية بالانسحاب بدون معركة. هذه المدينة المحصورة بين القناة والبحر والمستنقعات لا تصلح لمعارك الدبابات، لكن تنظيمات الجيش الشعبي، والمقاومة الشعبية، والإدارة المصرية برئاسة المحافظ محمد رياض بقيت في المدينة. بدأ ناصر يفكر في كيفية تنظيم مقاومة عنيفة للمحتلين.

تم ترتيب اتصال برياض وأمدوه بالوسائل، وأرسلت إلى بورسعيد أسلحة لتكوين مجموعات المقاومة بسرية.

بدأ الفدائيون نشاطهم العسكري منذ أول يوم احتُلت فيه المدينة. وفي نفس اللحظة التي خرج فيها الجيش الإنجليزي إلى المدينة فتحت مجموعة مصرية النيران على مجموعة من جنود العدو، فاشتعلت النيران تحت أقدام الغزاة.

هاجم الفدائيون الجنود الإنجليز والفرنسيين القائمين بالخدمة الدورية، ونسفوا الآلات، واستطاع الفدائيون نسف العديد من الطائرات الحربية الراقدة في المطار الحربي بالرغم من حراسات العدو المشددة عليه.

قاد عبد الناصر هجومًا دبلوماسيًا نشيطًا ساانده فيه الاتحاد السوفيتي، والمعسكر الاشتراكي، والدول العربية، ودول آسيا وإفريقيا النامية حتى صدر قرار الأمم المتحدة يوم أول نوفمبر بأغلبية ٦٤ صوتًا ينص على أن إسرائيل مذنبة لخرقها لاتفاقية الهدنة. وأعلن أن إنجلترا وفرنسا معتديتان، وطالب مجلس الأمن بوقف الاشتباكات العسكرية فورًا وانسحاب القوات المعتدية من الأراضي التي احتلتها. وبذلك أحرز ناصر مرة أخرى نصرًا بالطرق السياسية.

بعد عدة ليالٍ وافق مجلس الأمن على طلب عبد الناصر إرسال قوات طوارئ دولية تابعة للأمم المتحدة إلى مصر. وتأخر وصولهم بعض الوقت. فاستغل المعتدون هذا التأخير، وتعرضت كل من القاهرة والإسكندرية لقصف جوي جديد.

في هذا الوقت العصيب على مصر، أصدر الاتحاد السوفيتي إعلانًا أدان فيه تدخل الغزاة الإمبرياليين. وفي اليوم التالي سارت في بورسعيد مظاهرة شعبية لم يكن في استطاعة المحتلين مواجهتها.

نسف الفدائيون في سوريا والمملكة العربية السعودية خطوط أنابيب البترول تضامنًا مع الشعب المصري.

أصدرت الأمم المتحدة في ٧ نوفمبر وثيقة جديدة عبرت فيها عن طلبها وقف الهجوم. بدأت تصل إلى مصر قوات الطوارئ الدولية. التابعة للأمم المتحدة. أظهرت دول عدم الانحياز تضامنها مع مصر. وعلى سبيل المثال أعلنت الهند

عـن عزمها على الانسـحاب من منظمة الكومنولـث البريطاني احتجاجًا على السياسة الإنجليزية.

"إمكانيـة إرسـال متطوعـين من بـلاد الكتلـة السـوفيتية قائمة مما يمكن أن يشكل خطورة كبرى".

هكـذا كتب الصحفي الإنجليـزي روبرت سـتيفنس ـ كان هذا ضمن الأسـباب التي حدت بالإسراع في إرسال قوات الأمم المتحدة. ومارس الأمريكيون ضغطًا على إنجلترا، وفرنسا، وإسرائيل لكي يسحبوا جيوشهم.

انسـحب الغزاة. دخل الجيش المصري بورسعيد، أقيم استعراض عسكري يوم ٢٣ ديسمبر بهذه المناسبة اشترك فيه الفدائيون وأعضاء المقاومة السرية.

وعلـى أي حال بدأت القوات الإسـرائيلية في ٣١ ديسـمبر فقط الانسـحاب تدريجيًا من سـيناء حتى ٢٢ يناير ١٩٥٧ كانوا يشغلون منطقة صغيرة بجوار رفح – شـريط ضيق بعرض ٢٥ كيلومترًا بطول خليج العقبة وغزة. انسـحب الإسـرائيليون من غزة في مارس فقط. وعند انسـحابهم من سيناء نسفوا الطرق وخطوط التليفونات، ونهبوا ممتلكات الأهالي.

وهكـذا انتصـر الشـعب المصـري وغـادر الإنجليـز والفرنسـيون مدينة بورسعيد، وانسحبت القوات الإسـرائيلية إلى خطوط الهدنة. وأصبح المصريون يتحكمـون ليس فقط في قناتهم، بل صادروا مخازن شـركة قناة السـويس السـابقة. ووضعت الممتلكات الفرنسية والإنجليزية في مصر تحت الحراسة. وسقط آخر حصن إمبريالي على أرض مصر.

إن كل التماثيل والآثار، ومن بينها أبا الهول العريق، الشاهد على الكثير من الأحداث الجسام لا تستطيع أن تكشف لنا عن العجائب الكثيرة، كما يكشفها المصري البسيط – الذي شاهد ثورة ١٩٥٢، والتي على أثرها تحقق الكثير من الآمال العريقة للشعب المصري.

فمصر سميت دائمًا بعروس النيل، تدليلاً لها واعتزازًا، هذه العروس لم تستطع الوقوف على قدميها خلال سنوات طويلة، ونامت البلاد في سبات عميق. ومرت عليها القرون وهي لا تفيق من سباتها، ثم جاء الوقت الذي بدأت العروس تخطو أولى خطواتها، وكتب الثوار أكثر الفصول أهمية في تاريخ مصر. بدت على طول وادي النيل ركائز أعمدة خطوط الضغط العالي لسد أسوان. بدأت الأسلاك تمتد، ولن يمر وقت طويل وتغمر مصر كلها بنور الكهرباء.

تداخلت جنبًا إلى جنب مداخن المصانع، ومباني وأقسام الورش، مع الريف المصري، ظهرت الأراضي الخضراء وسط الرمال، أنشئت مدن جديدة. كان لزامًا وضع الخرائط الجغرافية القديمة في الأرشيف، وهي التي كانت من مدة قليلة تصور الحقيقة الواقعة. هذه هي بعض المظاهر الخارجية والأقل وضوحًا للتغيرات التي حدثت في المجتمع.

كان جمال هو روح هذه التغيرات، وهي تغيرات لا تفخر بها مصر وحدها، بل والعالم العربي كله.

كان جمال يعلم أنه بعد إنهاء العدوان الثلاثي لن يترك الإمبرياليون مصر في حالها. ولم يشك في أنهم لن يكفوا عن محاربة حركة التحرر الوطني، والنظم الثورية في الدول العربية. وأعطوا الصهيونية الدور الأول والرئيسي في هذا المجال.

ما كادت تنتهي عمليات انسحاب القوات المعتدية - حتى وصل إلى القاهرة الصحفي الهندي المعروف ورئيس تحرير صحيفة "بليتس" كاراندجيا. استقبله ناصر في بيته. وكان كاراندجيا قد زار من فترة قصيرة العراق. وتمكن هناك عن طريق ضابط إنجليزي من الحصول على خطة لحرب وقائية وضعتها هيئة الأركان الإسرائيلية.

وكان الرئيس يتعرف يوميًا على أكثر الأحداث أهمية. فكان يدون ملاحظاته في مفكرة، أو يعطي تعليماته لمساعديه. أمَّا المعلومات التي حصل عليها الصحفي الهندي فقد وضع أسفلها خطين.

اتضح من هذه الوثائق أن إسرائيل (تعد لعدوانها على مصر والبلاد العربية الأخرى) من فترة طويلة قبل ١٩٥٦. وكشفت هذه الوثائق الخطة الإستراتيجية والتكتيكية لهيئة الأركان الإسرائيلية.

وبعدها وفي فبراير ١٩٦٠ أعلن بن جوريون صراحة:

"كان يجب علينا أن نختبر مقدرة قواتنا العسكرية خلال العشر سنوات الثانية من وجود حكومتنا". وفي مناسبة أخرى عبر فيها بن جوريون عن نفسه أكثر وضوحًا: "إن الاختبار العسكري المتوقع له بدايات الستينيات، ولتنفيذ الحدث كان لزامًا على إسرائيل إذن أن تنسق مع القوى الإمبريالية".

وأعلنت أمريكا عن "مشروع أيزنهاور" حتى قبل أن تتمكن القوات الإسرائيلية من الانسحاب الكامل من سيناء، أعلن فيه أنه ستقدم معونات مالية للحكومات التي تنوي اتباع سياسة محاربة ومعاداة "الشيوعية العالمية في الشرق الأوسط". كان الهدف المنشود من بالنسبة من هذا المشروع لمصر واضحًا. فالولايات المتحدة كانت تخشى أن يزداد نفوذ مصر لو أنها انتصرت على إسرائيل بالأساليب السياسية.

ونظرت أمريكا إلى أن تعزيز استقلال مصر يعتبر خطرًا، فهي كأي دولة مستقلة ستنجذب أكثر للمعسكر الاشتراكي.

وكان عبد الناصر مستعدًا لرد فعل أمريكا هذا، منذ أن عقد صفقة السلاح مع تشيكوسلوفاكيا.

وأصبح ناصر الآن أكثر اقتناعًا بأن المصالح القومية لمصر تتطلب الاقتراب من الاتحاد السوفيتي.

عاشت الدول العربية على مر سنوات كثيرة في عزلة كبيرة بعضها عن بعض. فمنذ بدايات القرن العشرين اشتعلت في كل واحدة منها النعرة القومية. ومن أمثلة ذلك نجد أن القوميين العراقيين اعتبروا أنفسهم ورثة لكل من الثقافتين القديمتين الآشورية والبابلية. وسمى التونسيون أنفسهم بالفينيقيين، وتحدثوا عن أنه تتدفق في عروقهم دماء المدافعين عن قرطاجة. وتحدث المصريون كذلك عن الأهرامات التي بناها أجدادهم القدامى. إلخ. فعظمة الحضارات القديمة خدمتهم في كونها مصدرًا للعزة القومية، وكتأكيدات تاريخية لحقهم في الاستقلال الذي من أجله يناضلون.

تربى ناصر وأبناء جيله على تلك الأفكار. إلا أنه في حرب فلسطين ١٩٤٨ بدأ يدرك أن الاستعماريين هم المسئولون عن تجزئة الشعوب العربية.. فهو الذي سيناهض فيما بعد فكرة القومية المصرية الضيقة عندما يعلن بديلًا عنها "الوحدة العربية".

كان يرى أنه على بلدان الشرق الأوسط أن لا تحارب معًا فقط من أجل الاستقلال، بل وعليها أيضًا أن تتضامن في المستقبل من أجل بناء حياة جديدة. هكذا كان فهم ناصر لهذه القضية.. فالمصريون تربطهم بالشعوب العربية الأخرى وحدة التاريخ، والثقافة، والتقاليد، واللغة.

كان أمرًا واضحًا وملموسًا، حتى قبل العدوان الثلاثي، أن شعار "الوحدة العربية" كان يسبب انزعاجًا شديدًا في الأوساط الاستعمارية. فنجد أن السفير الإنجليزي "تريفليان" كان يحاول إقناع عبد الناصر بأن يتخذ من "أتاتورك" مثالًا، "إذ تمكن أتاتورك من أن يقود سياسته؛ لأنه استطاع أن يقنع غيره من القوى أنه يهتم فقط بتطور تركيا وليس له مطمع في أي نفوذ خارجي".

كانت الوحدة بين مصر وسوريا هي أول محاولة لتطبيق فكرة "الوحدة العربية" على أرض الواقع، كان عبد الناصر محقًا عندما كتب في "فلسفة الثورة" بأن أمن مصر يستمد وجوده أساسًا إذا كانت الدول العربية الأخرى تساندها، فقد ساعد شعب سوريا شعب مصر في الحرب الأخيرة. كما أعلنت سوريا عن استعدادها لإرسال متطوعين لشقيقتها مصر.

ونشرت في الصحف سنة ١٩٥٧ أخبار تفيد – أن بعض الدول المشتركة في حلف بغداد تخطط للاعتداء على سوريا. ورأى القادة في سوريا أن ناصر زعيم قومي، في مقدرته أن يرد خطر التدخل العسكري. كما وأن الزعماء السوريين قدروا أنهم إذا ما اتحدوا مع مصر، فإنهم سيتمتعون بنفوذ في العالم العربي. وكان قد تم فعلًا بين مصر وسوريا اتفاقيات سياسة وعسكرية، وانتهجوا في سياستهم الخارجية موقف الحياد الإيجابي.

وصل إلى القاهرة في يناير ١٩٥٨ وفد من الشخصيات السورية يمثل مختلف التجمعات والأحزاب السياسية، وكان ضمن تشكيل الوفد وزير الخارجية صلاح البيطار. طالب بالإسراع بالعمل من أجل الوحدة، ثم تتابعت المشاورات على جميع المستويات بين ممثلي كل من الحكومة المصرية والسورية.

تقابل الرئيسان في ١ فبراير ١٩٥٨ في قصر القبة، واختتمت المناقشات بإعلان بيان إنشاء الجمهورية العربية المتحدة. ويتمتع جميع مواطني الحكومة الجديدة بحقوق متساوية.

في ٥ فبراير ١٩٥٨ ألقى كل من الرئيس ناصر والرئيس شكري القوتلي بخطابين إلى شعبي البلدين، شارحين فيهما سياسة الحكومة الجديدة. قدما لكل من شعبي مصر وسوريا التعبير عن موقفهما في الوحدة. وعليهما أيضًا اختيار رئيس للجمهورية العربية المتحدة.

وتم في ٢١ فبراير سنة ١٩٥٨ إجراء استفتاء عام، وأعلن في اليوم التالي رسميًا اختيار جمال عبد الناصر رئيسًا للجمهورية الجديدة.

خرجت عشرات الألوف من الجماهير في شوارع دمشق لاستقبال ناصر الذي يزور سوريا لأول مرة، وكان لأية حكومة عربية أخرى الحق في الانضمام إلى الجمهورية العربية المتحدة.

أقلق إنشاء الجمهورية العربية المتحدة الأنظمة الرجعية العربية. فرأى الملك سعود أن الوقت قد حان للتخلص من جمال عبد الناصر. و نجحت أجهزته في العثور على شخص من المحيطين بعبد الناصر على استعداد للقيام بعملية اغتيال. فجندوا رئيس أركان المخابرات العسكرية السوري عبد الحميد السراج. وحولوا لحسابه ببنك "مندلندسكى" مليون جنيه.

ولكن ما لم يعرفه المتآمرون هو أن عبد الحميد السراج أبلغ عبد الناصر بكل تلك المعلومات. فأعطاه عبد الناصر التصريح بالاستمرار في اللعبة، فما كان من السراج إلا أن أخبر أجهزة الملك سعود بأن المبلغ الذي وضع ضئيل جدًا مقابل عملية بهذه الدرجة من الخطورة. والمال لا يهم سعود في شئ. وزيد حساب السراج في البنك مبلغًا آخر يصل إلى ٩٠ ألف جنيه. ووعد السراج بوضع قنبلة في الطائرة التي سيقلها ناصر. وفي الميعاد المحدد انفجرت قنبلة من نوع آخر مختلف تمامًا. إذ في مؤتمر صحفي وأمام الصحفيين الأجانب أعلنت الوثائق والشيكات الدالة على المؤامرة.

وتصرفت السلطات العراقية بأسلوبها الخاص تجاه إنشاء الجمهورية العربية المتحدة. فكما هو معروف كانت تحكم في كل من العراق والأردن أسرة مالكة من سلالة واحدة وهي أسرة الهاشميين. فاقترح نوري السعيد إنشاء مملكة واحدة للأسرة الهاشمية بين الأردن والعراق، مع الإبقاء على تاج كل من فيصل وحسين. ولكن بعد مرور وقت قصير ثار الشعب العراقي، وتمكن من الإطاحة بالنظام الملكي البغيض.

وسرعان ما أعلنت حكومة عربية أخرى عن رغبتها في الانضمام إلى الجمهورية العربية المتحدة. وكان واضحًا كل الوضوح في هذه المرة أنها كانت حكومة غير جمهورية بل كانت المملكة اليمنية.

في هذا الوقت كان الإمام أحمد هو ملك اليمن، وكان يطلق على نفسه "الحاكم بأمر اللّه" وكان هذا اللقب الذي يطلق على خلفاء القرون الوسطى يعبر عن ادعاء ملوك آل حميد الدين في أن يكون لهم دورًا قائدًا في العالم العربي.

ليس فقط القرن العشرين هو الذي فات بلاد اليمن، بل فاتها أيضًا القرن التاسع عشر. إلا أن وحدة مصر وسوريا قوبلت فيه بحماس شديد.

في شوارع مدن اليمن (الحديدة، صنعاء، تعز) أقيمت اجتماعات عَبَّرَ خلالها الشعب بقوة عن رغبته في الوحدة.

الإمام أحمد الإقطاعي الصميم من العصور الوسطى والجالس في قصره، بدأ يفكر في إمكانية استخدام هذا الموقف الذي نشأ في صالحه.

فالحزازات الملكية كانت موجودة بينه وبين الملك فيصل، وفي العشرينات حاولت الملكية السعودية الإطاحة بتاج الملك أحمد حميد الدين. حاول من بعدها بعض "الحكام العرب" التدخل بهدف الوصول إلى سلام بينهما. فأهدى الملك سعود الملك أحمد حصانًا، وأهداه الملك أحمد بدوره – وهو الذي لا يحب أن يكون لأحد جميل عليه – جارية سوداء رائعة الجمال – التي هربت

بعد ذلك من أميرها مع حلاق إيطالي. ولم يُزل تبادل الهدايا بينهما عدم الثقة والفتور اللذين كانا يسيطران على العلاقات بين الملكين.

قرر الإمام أحمد أن فرصته قد أزفت. فالاقتراح بانضمامه إلى الجمهورية الجديدة سيساعده في معركته ضد سعود.

ووجد عبد الناصر نفسه في موقف حرج، فإنه على الرغم من أن اليمن حكومة ملكية، إلا أنه في نفس الوقت كرئيس للجمهورية العربية المتحدة في قمة حملته لتحقيق فكرة الوحدة العربية وإحيائها. ولذلك لم يستطع تجاهل رغبة شعب اليمن. وفي النهاية عثر على الشكل المقبول، فكون بين الجمهورية العربية المتحدة واليمن اتحاد فيدرالي. وسريعًا ما شاهد عبد الناصر ـ تمامًا كما سبق وحدث في دمشق في فترة قصيرة – تحية وسعادة أهالي الحديدة، وتعزله. ولكن الاتحاد لم يكن مؤثرًا، فلم يخرج عن إطار البيان المشترك ذا الطابع السياسي والاقتصادي.

حقيقة فباتجاه الفنيين المصريين، والخبراء العسكريين إلى اليمن، تمكن اليمنيون من معرفة الثورة المصرية أكثر.

وكانت أول زيارة للرئيس عبد الناصر إلى الاتحاد السوفيتي في إبريل سنة ١٩٥٨. كان يومًا مشمسًا في ربيع هذه السنة، عندما هبطت الطائرة في مطار "فنوكوفا". وكان هناك في استقباله آلاف الأشخاص بباقات الورد. وفي وسط هذا الجمع شوهدت وجوه المصريين السمراء من موظفي السفارة، و الطلبة، الدارسين في معاهد موسكو.

واستقبله الموسكوفيون بملابس الأعياد على امتداد الطريق، ومر عبد الناصر بغابات من "البتولا" والصنوبر، كذلك مر على مجموعات المباني السكنية الجديدة والقديمة.

وعندما وصل طابور العربات أمام جسر ضخم من الحجارة، أشار المترجم على الضيف الكبير بالنظر إلى ما يوجد على يمينه. وشاهد عبد الناصر

أسـوار الكرملين العتيقـة الحمراء، بقبابها البيضاء والمذهبة بصورة سـاطعة في الشمس.

وها هو يتم أول لقاء عمل مع القادة السـوفيت، ونظر عبد الناصر باهتمام إلى تلـك الوجـوه. الكثير منها كانت معروفة له مـن خلال صورهم ولكنه لا يعرف بعد كيف يتصرف هؤلاء الأشخاص.

سـاعد الكـرم الذي اسـتقبل به في المطـار علـى الصراحة وعلـى الثقة. فبدأ عبد الناصر أولًا يشـكر الشـعب السـوفيتي وحكومته على المسـاعدة الـتي قدموها لمصر في الأوقات الصعبة، وتحدث عـن المعركة التي خاضتها مصر في سـبيل الحفاظ على اسـتقلالها، وكيف يفهم سياسـة "الحياد الإيجابي"، وتحـدث عـن "الوحـدة العربيـة" وعـن الضغـوط الـتي تمارسـها الحكومـات الإمبريالية ضد الجمهورية الجديدة، وعن خطط المسـتقبل، وعن التغيرات التي جرت بالبلاد، وعن التحولات الاقتصادية التي ستستمر فيها.

حضر عبد الناصر العرض الذي أقيم بمناسـبة عيـد أول مايو. ففي البداية شـاهد عبد الناصر عرض القوات العسكرية السوفيتية المنتصرة أثناء الحرب العالمية الثانية. إن الجنود الذين سـاروا بخطـوة منتظمة، كانوا المدافعين عن السلام الذي تحتاجه مصر بشدة.

كان عبـد الناصر راضيًا عن زيارته للاتحاد السـوفيتي. في ١٦ مايو سـنة ١٩٥٨ وفي جريدة "البرافدا" نشر البيان المشترك عن نتائج المحادثات بين حكومة الاتحاد السوفيتي وحكومة الجمهورية العربية المتحدة، بمناسبة زيارة الرئيس جمال عبد الناصر للاتحاد السـوفيتي. وذكر البيـان أن الحكومتين "يندد ان بالاسـتعمار بجميع صـوره وأشـكاله، ويـؤيـدان حقوق الشـعوب في تقرير مصيرها وفي استقلالها".

ناقشـت الحكومتـان مسـألة حقوق عرب فلسـطين وعمليـة طردهم.... وبالإضافة إلى ذلك تناولا المشـاكل الناتجة عن هذا الخرق للحقوق الإنسانية،

وتهديد السلام والأمن في هذه المنطقة. وأكدت الحكومتان تأييدهما الكامل للحقوق الشرعية لشعب فلسطين.

وأعلنتا كذلك أن الاتفاقيات الاقتصادية والثقافية المبرمة بينهما تخدم هذه الظروف وهي مبنية على مبادئ سليمة.

وأعلنتا موافقتهما على ضرورة التعاون الاقتصادي والثقافي بين بلديهما واستمرار التبادل التجاري بينهما.

وفي هذا الشأن عبرت حكومة الجمهورية العربية المتحدة عن تقديرها لمساهمة الاتحاد السوفيتي الملموسة في تصنيع. ج.ع.م.

وبناء على دعوة من الرئيس تيتو قرر عبد الناصر الاتجاه إلى يوغوسلافيا. ومن ميناء الإسكندرية أبحر عبد الناصر على يخت "الحرية" الذي كان مخصصًا للملك فاروق واتجه إلى جزيرة بريوني. وكانت أول مرة يسافر فيها الرئيس للخارج ويصطحب معه زوجته وأولاده. وعرف عبد الناصر وهو في الجزيرة بالأحداث التي يموج بها الشرق الأوسط.

في بداية يوليو سنة ١٩٥٨ تسلم اللواء عبد الكريم قاسم أمرًا بدخول الأردن. كانت الرجعية تعد لضربة توجهها للوحدة السورية المصرية.

ففي هيئة أركان عبد الكريم قاسم عقد اجتماع عاجل، نوقشت فيه الخطة القديمة للقيام بانقلاب حكومي، وقرر الضباط الوطنيون بأنه قد جاء دورهم للتحرك.

وأكدت الاتصالات بالشخصيات السياسية ذات الميول الديمقراطية أن أية محاولات عسكرية ستحوز على تأييد الشعب لها.

وفي ليلة ١٣، ١٤ يوليو حاصرت قوات الفريق عبد الكريم قاسم القصر الملكي. وهب أهالي العاصمة العراقية لمساندة الثوار. وأعلن راديو بغداد في صباح يوم ١٤ يوليو قيام الثورة في العراق، وأن الملك فيصل، ونوري السعيد وغيرهم من ممثلي النظام السابق قد قتلوا.

وبدت الثورة العراقية كعنصر عربي جديد في حركة التحرر الوطني.

وأصبح معروفًا في نفس هذا اليوم، أن الأسطول السادس الأمريكي تلقى أوامر بالتوجه إلى شواطئ لبنان، وأرسلت قوات إنجليزية إلى كل من الأردن والكويت. فقد خشى الإمبرياليون من امتداد حركة التحرر الوطني إلى النظم العربية الأخرى، خاصة تلك التي لها بها ارتباط حقيقي ومباشر.

كان العالم العربي يغلي كالبركان. وظل عامل اللاسلكي على اليخت "الحرية" يعمل دون راحة. كانت المعلومات الجديدة تصل إلى عبد الناصر الواحدة تلو الأخرى. واحتفظ عبد الناصر بالاتصال المستمر بالقاهرة من خلال الراديو. وأضطر رئيس ج.ع.م إلى قطع زيارته إلى يوغوسلافيا.

نصحه تيتو بعدم العودة بحرًا، كذلك كانت المخابرات المصرية تخشى أن يقوم الأسطول السادس بأي عمليات استفزازية في مياه محايدة، كذلك كانت العودة جوًا فيها الكثير من الخطورة، فالقاذفات الإسرائيلية كانت منذ فترة قد قامت بهجوم على طائرة مصرية، كان من المفروض أن يستقلها المشير عبد الحكيم عامر.

ومع كل هذا قرر عبد الناصر العودة على يخت "الحرية"، ومن على ظهر السفينة أعطى أمرًا بأن يتوجه وفد عسكري إلى بغداد، وأصدرت أوامر إلى فرقة عسكرية موجودة بسوريا للاستعداد لمساندة النظام الثوري في العراق.

وما أن وصل اليخت إلى المياه الدولية، حتى وصل تلغراف من تيتو الذي ألح بإصرار بأن يعود الرئيس ناصر إلى أقرب ميناء يوغوسلافي، إذ أن الاتحاد السوفيتي قد أرسل طائرة خاصة إلى يوغوسلافيا، لتكون تحت إمرة عبد الناصر يتصرف فيها كما يرى.

وفي ليل متشح بالسواد، مرت فوق اليخت طائرات استطلاع إسرائيلية، فتوقف عن السير، وفي الصباح ترك ناصر اليخت وانتقل إلى مدمرة تاركًا اليخت ليكمل سفره إلى بريوني وعليه أفراد عائلته.

ولكن التمعت في ذهنه خطة جديدة، فبدلًا من العودة إلى القاهرة مباشرة فكر بالقيام بزيارة لموسكو، ففي هذا الوقت والاضطراب يعم كل البلاد العربية أراد التشاور مع القادة السوفيت، وطار عبد الناصر في الليلة التالية إلى موسكو.

في مطار "فنوكوفا" الذي أصبح معروفًا لعبد الناصر، في صباح ١٧ يوليو هبطت فيه طائرته، وكانت في انتظاره سيارة بها ستائر تخفي مَن بداخلها، وفي الطريق علم عبد الناصر بأن القوات الأمريكية أنزلت في لبنان.

وفي العاشرة صباحًا بدأت المحادثات مع القادة السوفيت، وسريعًا ما غادر عبد الناصر موسكو.

ومازًا بأجواء بالعراق، أرسل عبد الناصر برسالة تحية إلى قيادة الثورة، ومن شرفة قصر الرئاسة بدمشق وجه ناصر خطابًا إلى الشعب حلل فيه الموقف السائد في الشرق الأوسط، وما تقوم به الدول الاستعمارية من مؤامرات في المنطقة، وأعلن أيضًا أن الاتحاد السوفيتي سيؤيد تأييدًا كاملًا الشعوب العربية، كما سبق وأن فعل الاتحاد السوفيتي في أيام أزمة السويس وكيف طالب ببيان بالإيقاف الفوري لإطلاق النار.

وهنا شعر الإمبرياليون أن محاولتهم في الشرق الأوسط، أخذت طابعًا خطيرًا بالنسبة لهم، فما كان أمام القوات الأمريكية والإنجليزية التي استدعيت إلا أن تلم رحالها وتعود مرة أخرى.

****

أصبح الموقف يحتاج إلى اتخاذ الحلول المناسبة بالنسبة للمشاكل الاجتماعية والاقتصادية.

حفرت مع صخور النوبة تلك الكلمات:

المجد لك يا نيل ... يا من نشأت في هذه الأرض.

أنتَ تُقدِمُ لكي تُحيِ مصر...

غنيت له الأناشيد التي ألّهوه فيها. فحياة المصريين على مر آلاف السنين كانت مرتبطة دائمًا بنزوات النيل العظيم، إذا ما هاج يدمر الشواطئ، ويهدم القرى، ويغرق الزرع، إن أمل المصريين في الحرية كان دائمًا أملًا غير منفصل عن الأمل في بناء سد...

حلب تأميم قناة السويس على الجمهورية العربية المتحدة بعض الموارد المالية... وتقرر أن تستخدم هذه الأموال في بناء سد عالٍ على النيل. ولكن الموارد لم تكن بكافية. وكان امتناع أمريكا عن تمويل السد يرجع إلى اعتقادها أنه ليس بمقدور الاتحاد السوفيتي مساعدة مصر في بنائه. وهذا ما أعلنه دالاس في ٢٨ فبراير سنة ١٩٥٨ في اجتماع لمجلس الشيوخ الأمريكي "ولنفرض مبدئيًا... أن الاتحاد السوفيتي وافق على تقديم المساعدة لمصر كعملية استدراج... ولكن ليس بإمكانهم مطلقًا أن يبنوا سدًا".

وهذا خطأ جسيم لدالاس؛ لأنه في ديسمبر سنة ١٩٥٨ وقع الاتحاد السوفيتي الاتفاق الخاص بمنح المساعدات الاقتصادية والتكتيكية لبناء المرحلة الأولى من السد العالي. وعلى هذا الأساس أخذ بالمشروع الذي قدمه الفنيين السوفيت، والذي حاز على الأولوية في مسابقة دولية.

لم يحدث من قبل أن استقبل ميناء الإسكندرية كل تلك الأعداد من الطرود كما حدث في تلك الأيام. كانت تفرغ السفن على أرصفة الميناء مساءًا وصباحًا. واصطفت على الشواطئ أهرامات كاملة من الصناديق تفوح منها رائحة الشحم.

وكانت الأرض تهتز اهتزازًا من زمجرة العربات، والبلدوزورات، والحفارات الروسية ذات الأوزان الضخمة. ووضعت قصاصات ورقية مكتوب عليها "سد أسوان العالي" على كل عربات السكك الحديدية المكونة لمجموعات كاملة متجهة إلى أسوان.

والنيل أيضًا كان إحدى الوسائل التي عن طريقها نقلت الطرود على عجل. فاستخدمت العوامات، والصنادل، والفلوكات. وكانت وهي تسير على

النيل تستقبل بالغناء والطبول من الفلاحين الذي يخرجون لملاقاتها. كما يطلق البدو من على ظهور الجمال الأعيرة النارية تحية لها إذا ما شاهدوها خلال تلك الصحراء.

وفجأة استحوذت محطة السكك الحديدية بجنوب أسوان اهتمام كبرى الوكالات، والمجلات، والصحف الأجنبية، تلك المحطة التي كان من الصعب العثور عليها على الخريطة، حتى أن كبار رجال الوزارة المصرية اضطروا إلى حجز الأماكن في فندق أسوان الوحيد "كتاراكت" حتى يناير سنة ١٩٦٠.

وجاء يوم الاحتفال. وعلى بعد عشرات الكيلومترات من المدينة وأعلى ميدان صخري، حيث يرى النيل واضحًا، ومطوقًا بالصخور، شيد سرادق ضخم، يكفي لعدة آلاف من الأشخاص، وبجواره أقيمت قاعدة صخرية مجوفة، على مقربة منها وقف الفلاحون بجلابيبهم الزرقاء.

ولعدم كفاية السرادق جلس بعض الحاضرين على الصخور المتناثرة على الشواطئ. وجلسوا كذلك على طول امتداد الطريق الموصل لأسوان.

وفجأة كما لو أنه أعطيت إشارة سحرية، بدأت تتردد آلاف الهتافات في المكان، وذلك لقدوم صف من العربات السوداء التي ظهرت عند المدخل وكان أول من دخل السرادق عبد الناصر. كان يبتسم في سعادة ظاهرة، رافعًا يديه محييًا الجماهير المحتشدة. وكانت الآلاف تصيح كالجنود في لحظات الهجوم، ورجال الأمن يحيطونه بأيديهم مبعدين بالكاد ضغط الجماهير من عليه، وكان مع عبد الناصر عدد من الضيوف يمثلون عدة دول، من بينهم الوفد الحكومي السوفيتي، وبإشارة منه دعى الحاضرون لمشاهدة نموذج السد العالي المنتظر. ووضعت الوثائق المتعلقة بعملية بناء السد، والقرآن، وبعض النقود في القاعدة الصخرية. وهي للأجيال القادمة.

وانتهت مراسيم الاحتفالات التقليدية، كما تعود المصريون دائمًا ببدء الأعمال العظيمة.

دخـل عبـد الناصـر والضيـوف السـرادق. وعلى المنصـة المزدانـة بالأعلام المصرية والسوفيتية، شكر عبد الناصر بحرارة الاتحاد السوفيتي لمساعدته في بناء السـد. ثم ضغط عبد الناصر والضيـوف أصابعهم على "الزر" في وقت واحد الذي سيفجر عملية البناء.

وتهاوت الصخور السـوداء، وتصاعدت غيوم بنية اللون من الرمال والصخور إلى الأجـواء. واندفع إلى مـكان الانفجار الآلاف ممسـكين بالمعاول والمجارف. وزمجرت الحفارات والبلدوزورات بقـوة معلنة بدء عمليات الهدم. وبدأت أكبر عملية لإخضاع النيل والتحكم فيه...

وعثر بعد عدة سنوات على خطاب في أحد صناديق البوسته في أسوان.

جدي العزيز..

كنـت دائمًا توصينا بحـب البيـت، وأن لا نترك الأرض الـتي ولدنا عليها. ونحـن هكـذا فعلنا. مهما جرفنـا القدر إلى أي مكان، فإننـا نعود إلى قريتنا الأصليـة، وإلى بيتنـا الـذي على مقربـة منه تعطـي حتى يومنا هـذا نخلتك الغالية ثـمارها. أنت تعلم... كم هي فقيرة أرضنا.. أسرتك زادت وكبرت، في العام الماضي رزق كل من حسـين وعبده بولدين.. فأصبحنا ثلاثة أبناء شباب، يجب علينا أن نبحث عن كسـب آخر. يشيد الآن بجوار كوم أمبو سد. فقررنا الذهاب إلى هناك بالقوارب لحمل الأثقال.

وإذا كنت يا جدي تسـتطيع أن تعود الآن إلينا، لما عرفت بلدك. لقد تغير كل شـئ أمام النظر. مصر كلها بدأت تتغير. فتسير العربات في الشوارع ليلًا ونهارًا.

النيـل سـريعًا ما سـيندفع إلى الأماكن التي كانت تكسـوها الصحراء. وسوف تبنى عليها المنازل، وهنا ستقوم نوبة جديدة.

أمس وصل أفندي وقال أن قريتنا هي الأخرى ستتحول إلى مكان جديد. ستكثر الحياة وستزيد الأرض. ففي الأزمنة السابقة كانت قريتنا كثيرًا ما تغرقها المياه. ولكننا سنأسف فقط على تركنا نخلتك الغالية، فهل يطيب لك هذا العالم؟

حفيدك حسن شحاتة

يُعثر على العديد من مثل هذه الخطابات يوميًا في صناديق البريد المصرية. وهي عادة قديمة، إذ يظل الفرد يكتب للأجداد الراحلين طوال وجوده في مصر. فمثل تلك الخطابات يكتبها الشباب والأطفال في لحظات الحزن للأهل والأقارب يكشفون لهم فيها عن أسرارهم متمنين أن يشاركونهم في حملها. وهذا الخطاب كما هو واضح لفلاح نوبي اسمه حسن شحاتة. مشدود إلى دوامة الأحداث التاريخية. فمع بداية العمل في إنشاء السد العالي، هاجر أهالي النوبة. وهي لحظة درامية. وكيف لا يأسف حسن شحاتة على موطنه الأصلي، وعلى النخلة التي رعتها أيدي جده... ولكن هناك في الموقع الجديد ستكون "الأرض والمياه كثيرة" وتهدم وصايا الأجداد. "بدأت مصر كلها تتحرك" في هذه الكلمات محاولة للتعبير عن صدق ذاتي، وعن الشعور بالمشاركة في هذه المتغيرات الجذرية التي تمر بها البلاد.

في ١٨ يناير سنة ١٩٦٠ أعلن راديو القاهرة بدء العمل في المرحلة الثانية من السد العالي. وأن الاتحاد السوفيتي هو أيضًا الذي سيقوم بها. وفي زيارة نيكسون للسد العالي في سنة ١٩٦٣ قال: "والآن أنا أؤمن إيمانًا أكيدًا بأن السد العالي بعد تشييده سيكون إحدى المعجزات".

وكان يصل يوميًا للرئيس عبد الناصر التقارير الخاصة بحالة سير العمل في السد، كما لو كانت نشرات واردة من الجبهة.

وكانت الدعاية الإمبريالية تبذر بذور عدم الثقة في قدرة الخبراء والتكنيك السوفيتي. فظهرت على صفحات الجرائد البرجوازية مؤلفات وآراء اقتصاديين، اتجهت جميعها لإثبات أن بناء السد العالي سيجلب على الاقتصاد

المصري خسائر جسيمة، وحاولت البرجوازية المصرية إيقاف البناء وقطع أواصر الصداقة والتعاون بين المصريين والعمال السوفيت، وهم يدركون أنهم بهذا ينظمون حملة ضد الشيوعية. ولكن كان من الصعب خداع المصريين البسطاء والكذب عليهم، فهم كانوا يدركون ويرون بأي حماس يعمل إلى جانبهم السوفيت.

اكتسبت وظيفة التشييد والبناء مكانة عالية في مصر. ويبشر بناء السد العالي بالكثير من الخيرات للبلاد. فأراضي ومساحات شاسعة ستروى من مياه السد العالي، وبنيت محطة ضخمة للكهرباء، ومن نتائجه أيضًا أن الدخل القومي المصري سيرتفع كثيرًا.

وعلق المؤرخان "أ. بيليابيف، وأ. بريما كوف" "بأن أيديولوجية ناصر – كمسئول حكومي وسياسي – هي أيديولوجية تلك الشخصيات من الفئات المتوسطة، منطلقين من الوطنية الثابتة التي لا تنحرف، وتقترب بالتدريج من الاشتراكية العلمية. وهذه المرحلة الانتقالية، عند هذه النوعية من الشخصيات، تمتد لفترة طويلة. وواضح في نفس الوقت، أن تطور الاتجاه الفكري عند عبد الناصر كان محددًا بقدر كبير.

تلك الشخصيات لمجموعة حكومات العالم الثالث – مثل شخصيته – ساروا ، ويسيرون إلى اليسار، قائدين شعوب بلادهم وراءهم، وتجربة عبد الناصر الذي حقق في هذا البلد الإصلاح الزراعي والتحولات الاجتماعية، تستحق دراسة جادة وحقيقية، ففي تلك التجربة توجد الجوانب الإيجابية والسلبية، فعبد الناصر كثوري سياسي، وحركة التحرر الوطني والثوري في مصر في كل أشكالها العديدة ، تضع أمامنا العديد من الصعوبات والتناقضات".

رأى عبد الناصر أن النظام السياسي الموجود في مصر لا يقدر على مسايرة حجم التغيرات التي تحدث. فكان يجب تجنيد وتوجيه الجماهير الشعبية لحل أعقد المهام الاقتصادية، وقد أعلن مرارًا عن رغبته في خلق مجتمع "الكفاية، والرفاهية، وتكافؤ الفرص".

وتحدث أيضًا عن نيته في بناء المجتمع التعاوني الاشتراكي. وتأميم البنوك الأجنبية، وشركات التأمين، والشركات الصناعية، وتدعيم القطاع العام ودوره الذي كان يقوى باستمرار.

حاولت القوي الإمبريالية خنق مصر بفرض حصار اقتصادي حولها. فما كان منه إلا وأن اتجه في مجال التجارة الخارجية إلى المعسكر الاشتراكي، وحكومات كل من آسيا وإفريقيا.

ولكن تلك السنوات شهدت زيادة هائلة في دور البرجوازية الوطنية الكبيرة. فحصة الأسهم التي كانت من قبل ملكًا للأجانب عادت كلها إلى أيدي المصريين. وبجشع رأت البرجوازية أن تملأ هي هذا الفراغ الناتج عن إنهاء سيطرة رأس المال الأجنبي. فلفترة ما كانت بداية "للعصر الذهبي" بالنسبة لها.

وأثبتت التجربة أن البرجوازية الكبيرة تعيش دائمًا في أنانية وتعمل لمصلحتها الذاتية. فلم تقدم على الاشتراك في تصنيع البلاد. ففي الوقت الذي جمعت فيه البلاد كل قواها لكي تبني السد العالي، حول الصناعيون المصريون كل رؤوس أموالهم للخارج.

وهنا وضعت الحكومة وفقًا لتوجيهات عبد الناصر الخطة العشرية للنمو الاقتصادي والتي بدأت في سنة ١٩٦٠. وكان يجب لإتمامها توجيه ضربة قوية للبرجوازية الكبيرة. فكلف عبد الناصر الشخصيات الموثوق بها بدراسة دقيقة لكل الجوانب الاجتماعية، والتنظيم الاقتصادي في البلاد الاشتراكية، في أثناء الرحلات التي تمت، وفي نفس هذا الإطار كانت رحلته إلى الاتحاد السوفيتي التي كان لها تأثير كبير في هذا المجال.

وفي يوليو سنة ١٩٦١ صدرت القرارات التاريخية الخاصة بتأميم القطاع الخاص، وكل البنوك الخاصة، والصناعات الكبيرة، وشركات التأمين. وطبق من ذلك الوقت القرار الخاص بأن الفرد لا يحق له امتلاك أسهم تزيد قيمتها عن ١٠ آلاف جنيه. وفرضت على الدخول الكبيرة ضرائب تصاعدية.

واتجهت بالتالي البيوت المالية لاحتكار الأراضي. ولكن سرعان ما ضربت الحكومة ضربتها الجديدة، فصدر قانون تخفيض الملكيات الزراعية.

وحصل العمال على امتيازات جديدة وخاصة، تلك المتعلقة بمجانية التعليم.

ولم يسلم بهذا كل من الإقطاعية والبرجوازية الكبيرة. ولكنهم هرعوا إلى الأسلوب التقليدي – التخريب.

فإذا كان زعماء مصر قد تحدثوا في السابق عن التضامن والتعاون الطبقي، إلا عبد الناصر أعلنها صريحة، أن في البلاد الآن يحتدم الصراع الطبقي.

وتم حل الاتحاد القومي في فبراير سنة ١٩٦١، وذلك لاتخاذه موقفًا معارضًا للتحولات التقدمية. وابتعد عن عبد الناصر بعض الأنصار المقربين. فاستقال عبد اللطيف البغدادي نائب رئيس الجمهورية، وهو من أسرة غنية ودائمًا كان مناصرًا للبرجوازية المصرية. كما أنه كان معارضًا أيضًا للحصول على السلاح من الاتحاد السوفيتي.

كان ناصر يعلم أنه يمكن توقع هجوم مضاد للثورة في أية لحظة في سوريا وفي مصر أيضًا، والذي قاد فعلًا المعركة الحامية ضد القرارات الجديدة كانت البرجوازية السورية.

وعلى الرغم من ذلك لم يحد ناصر عن هدفه المحدد. فوضع تحت الحراسة ٦٠٠ مالك من أكبر أغنياء مصر، واعتقل حوالي ٤٠ فردًا منهم. ومع أنه أطلق سراحهم بعد عدة أشهر – إلا أنه – أصدر قرارًا بمنع كل من فرضت عليه الحراسة من الاشتراك في الحياة السياسية بالجمهورية العربية المتحدة.

وتألبت الصحافة الغربية مرة أخرى على عبد الناصر: إن أسماء العائلات الغنية التي فرضت عليها الحراسة ليست بالأسماء المصرية. وكان هذا في

حد ذاته كافيًا لكي يلصقوا بعبد الناصر تهمة "معاداة السامية"، وتهمة "الفاشية".

ومن بين قارئي الجرائد الصباحية اليومية قليل من سأل نفسه هذا السؤال: كيف حدثت وفجأة هذه المساندة العالمية لمستغلي الشعب المصري؟

ففي الأيام التي كان المذيعون يفسرون للجماهير الشعبية معنى ومضمون هذه الإجراءات الجديدة، كانت الرجعية السورية تعد لإحداث انقلاب في البلاد.

وزاد من تفاقم الوضع تلك الأخطاء التي سُمح بوقوعها في فترة الوحدة بين سوريا ومصر. ففي أثناء المناقشات التي جرت لإتمام الوحدة، طالب عبد الناصر بحل الأحزاب السورية. وكانت النتيجة لم يظهر أي تنظيم أو منظمة واحدة يستطيع عبد الناصر الاعتماد عليها. فالبعثيون الذين كانوا يؤيدونه في الماضي... وقفوا الآن في موقع المعارضة وتحركوا سرًا ضده.

وكانت التحولات الاجتماعية والاقتصادية التي طبقت على سوريا "على نفس النموذج المصري" بدون أية دراسة للظروف المحلية الخاصة بها. وبدأ عدم الرضا ينتشر في البلاد. وهو ما يرجع أيضًا بدرجة ليست بالقليلة إلى خشونة وعدم مرونة بعض الأشخاص المصرية الرسمية التي سافرت للعمل في سوريا.

ووقع الانقلاب في سوريا في ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٦١. وقدر العدو أن عبد الناصر سيرسل بقواته إلى سوريا. ولكنه لم يرض محاربة الشعب السوري. وتحكم عبد الناصر في نفسه في تلك اللحظات الصعبة. "يجب علينا أن نكون قادرين دائمًا على الاعتراف بأخطائنا". قال ذلك عبد الناصر وهو الذي كان يتخذ القرار الواقعي السليم في أشد المواقف تأزمًا. وأعلن بعد عدة أيام أن سوريا يمكنها أن تنسحب من الوحدة. وفي نفس الوقت فإن مصر ستحتفظ بإسم الجمهورية العربية المتحدة، وسيظل علمها هو نفس العلم السابق كرمز للوحدة العربية.

وظن الكثيرون أن مصر سوف تحيد عن الخط التقدمي، وهو ما لم يحدث. واستمرت السفينة في طريقها إلى الأمام موجهة بأيدٍ حازمة وحاسمة.

وفي ٣٠ يونيه سنة ١٩٦٢ قدم ميثاق العمل الوطني على أثر مناقشات طويلة اشترك فيها نواب يمثلون كل المجموعات الاجتماعية في البلد. وحدد الميثاق تطور النظام السياسي والاقتصادي في مصر.

وفي مقدمة الميثاق شرح عبد الناصر الأسباب التي جعلت ثورة سنة ١٩١٩ لا تجني نتائج ملموسة، ولعدم إدراك قياداتها لأهمية الإصلاح الاجتماعي في البلاد. إنهم لم يدرسوا استراتيجيتهم. ولذا لم يعط الاستعماريون للبلاد إلا الاستقلال الشكلي. فبدلًا من الحرية حصل المصريون على دستور، بدا وكأنه "مجرد مظهر" يغطي سيطرتهم.

وبهذا الشكل فإن الديمقراطية البرجوازية في مصر تحولت إلى "مهزلة مخجلة" واستطاع كل من استغل العمال والفلاحين المصريين أن يملي عليهم إرادته. في حين أن الديمقراطية تقوم أساسًا على الأفكار الاجتماعية. ولهذا فإن من حق كل مواطن في ج.ع.م أن يضمن حريته من جميع أشكال الاستغلال، والإيمان بالمستقبل، وفي هذه الظروف تم التخطيط لتوجيه ضربة إلى القطاع الخاص.

وعلى أساس ما جاء في الميثاق أعلن عن تكوين تنظيم سياسي – الاتحاد الاشتراكي العربي – يعد المؤتمر القومي في هذا الوقت كهيئة برلمانية للاتحاد الاشتراكي. وعلى قمته وجدت اللجنة المركزية برئاسة رئيس الدولة الذي يشغل في نفس الوقت رئيس الاتحاد الاشتراكي.

مبدأ تكافؤ الفرص أحد الأسس الرئيسية للميثاق. فلكل فرد الحق في التمتع بالخدمات الطبية، وفي التعليم، والعمل، وفي التأمين الاجتماعي. وإن تتمتع المرأة بحقوق متساوية مع الرجل.

ويُعَدُ الميثاق وثيقة رائدة في حركة التحرر العربي.

فهو يعتبر كأساس نظري للإصلاحات التقدمية الاجتماعية الاقتصادية الـتي تتم في مصر. ويلاحظ فيـه تأثير أفكار الاشـتراكية العلمية، وكأنه يعمم تجارب الحكومات النامية.

وشـن حكام المملكة العربية السعودية واليمن هجومًا على اشتراكية ناصر ونعتوه "بالملحد". كما اتهمته البرجوازية السورية المتسلقة إلى السلطة بأنـه "طاغيـة"، وزعم الرجعيـون بأنه يهـدم التضامن العربـي. وكانت إجابة ناصر بأن مصر ليست في حاجة إلى التضامن مع الرجعية..

في هـذه المـرة وصلت الثورة إلى أكثر ركن منسـي في الشـرق الأوسـط – وهـو اليمن. حكـى أحد الوطنيين بحـرارة ذات مرة لعبـد الناصر حكاية ذات مغزى: "من فترة قرر الله خالق الكون إرسـال آدم ليشـاهد ماذا حدث على الأرض، وكيـف يعيش أبناؤه البشـر. وجد آدم أن كل شـئ قـد تغير الدخان يتصاعـد من مداخن المصانـع، وفي مـكان الصحراء أخضرت الحقول وشـقت القنوات لتربط بين الأنهار. ولم يسـتطع أن يتعرف على أي مكان، وبينما هو طائر فوق المناطق المختلفة من سطح الأرض صاح آدم فجأة بسرور "أنا أعرف هذا المكان، إنه اليمن".

لم يغـير الزمن أي شـئ في هـذا البلد فعـلاً. حتى الآن يسـيطر على اليمن العلاقات القبلية والاقتصاد الطبيعي. لا يوجد في اليمن خطوط سكك حديد وحتى الطرق المرصوفة بالإسـفلت عُبدت منذ زمن غير بعيد. بأمر سِرّي من الملك منعت في البلاد: السـينما، والرقص، والأدب الأوربـي، ونقل الدم، وكذا لبس القبعات الأوربية كان ممنوعًا.

وفي ٢٦ سـبتمبر ١٩٦٢ تم خلـع إمـام اليمـن الجديد الذي تـولى العرش بعد وفاة أبيه. خرج المتظاهرون إلى شـوارع المدن اليمنيـة حاملين أعلام الجمهورية كذا يدقون الطبول بلا انقطاع، ويرقص الرجال رافعين فوق رؤوسـهم الخناجر المقوسـة في جـرأة وشـجاعة. جـاءت وفود كثـيرة من أقاصـي البـلاد وأدناها إلى القصـر الـذي أصبـح مقر حكومـة الجمهوريـين لكي يعلنـوا تأييدهم ومساندتهم للجمهورية.

فـر الإمـام المخلوع – البدر– وسـرعان ما كَوَّنَ جيشًـا من فلـول الملكيين والمرتزقـة، وذلك بمسـاعدة المملكة العربية السـعودية والبـلاد الإمبريالية. وتحركت هذه القوات العسكرية إلى اليمن.

طلب الرئيس عبد اللّه السـلال المسـاعدة من مصر. في خلال يومين وصلت سـفن مصرية إلى ميناء الحديدة حاملة أول قـوات مصرية. "هذه الحرب المناوئة لمصالح الشـعب التي تقودها العربية السعودية في اليمن لمساندة النظام المخلوع جلبـت للملك سـعود نتائج خطـيرة" – هكـذا أذاع راديـو "صـوت العرب" من القاهرة.

في مارس عام ١٩٦٤ صدر في مصر مرسوم بقرار يلغي تعويض الإقطاعيين عـن أراضيهم التي صودرت وفقًا لقانون الإصـلاح الزراعي. أصبح الجزء الأعظم مـن الأرض الزراعية في أيـدي الفلاحين. من الآن فصاعدًا أصبـح ممنوعًا على الأجانب امتلاك أرض مصرية.

ارتفـع عدد التعاونيات في مصـر. تمد هذه التعاونيـات الفلاحين بالبذور، والأسمـدة، والآلات الزراعيـة، وتسـاعدهم في بيع المحصـول. أقيمت في الأرض المسـتصلحة من الصحراء مـزارع دولة كبيرة. في سـنة ١٩٦٣ اسـتصلح ٢٩٥٠٠ فـدان في مديرية التحريـر. تحولت الصحاري إلى حدائـق مزهرة. وضعت خطط طموحة للمستقبل.

عـلاوة علـى ذلـك في فبرايـر سـنة ١٩٦٤ أعلنـت قوانـين جديـدة بدعوة الناخبـين لانتخاب أعضـاء مجلس الأمة. كانـت أغلبية النـواب المنتخبين من العمـال والفلاحـين وفقًـا للقانون. انتخبت سـيدات كنـواب في مجلس الأمة الجديد. كانت مهمة مجلس الأمة تأكيد سلطة الشعب في إصدار التشريعات الجديدة.

كان لمجلـس الأمة الحـق في معارضة الـوزراء. وفي الحقيقة اعترف ناصر بنفسـه أن مجلس الأمة استطاع أن يذلل الكثير من العقبات، وأنه يجب على المجلس أن يكون هو السلطة الفعلية.

وفي هذا المجال قال عبد الناصر يوم افتتاحه ما زالت الحكومة تضع نفسه فوق مساءلة الشعب..".

أعيد انتخاب جمال عبد الناصر رئيسًا للجمهورية لمدة ست سنوات. خلال دورة مجلس الأمة قدم اقتراح بأن يكون عبد الناصر رئيسًا للجمهورية العربية المتحدة مدى الحياة. وعندما علم بذلك قال: "إن الرئيس يتمتع بصلاحيات كبيرة ولا حدود لها. هل نقبل هذا الاقتراح؟ بالطبع لا... أشكركم على شعوركم. وأرجوكم ألا تأخذوا الموضوع من الناحية العاطفية بل كونوا عمليين عند التفكير فيه...".

أعلن في حديثه عن حلول عهد جديد. فقد تم توجيه ضربة قاسية لطبقتي الإقطاع والرأسمالية، وهذا بدوره أدى إلى تعاون عبد الناصر ورفاقه الوثيق مع الماركسيين. من الآن فصاعدًا شارك الماركسيين المصريون بنشاط كبير في المصالح، والهيئات، والمؤسسات الحكومية، كذا اختير البعض منهم في الاتحاد الاشتراكي العربي. كما شاركوا في مناقشة مشاكل البناء الاشتراكي على صفحات الجرائد والمجلات.

مع مرور الأيام بدأ يقترب على ما يبدو موعد تحويل مجرى نهر النيل، كانت هناك قوافل من القلابات تتحرك بموقع بناء السد الذي يشبه ظهر تمساح نيلي ضخم كونت جلاميد وكتل وجنادل جرانيت أسوان الأسود والأحمر أكوام وتلال غريبة الشكل، وهو يلمع تحت أشعة الشمس الناصعة، والتي بسببها تبدو شواطئ النيل الخضراء كالزمرد.

استعدت حكومة الجمهورية العربية المتحدة ليوم تحويل مجرى النهر كأحسن ما يكون الاستعداد للاحتفال بعيد قومي عظيم. وصلت وفود الكثير من الدول إلى أسوان ومن بينهم وفد الاتحاد السوفيتي.

في مساء ١٤ مايو كان بريق أضواء سد أسوان يشبه شروق الشمس. في هذا اليوم في الساعة الثانية عشر وخمس وثلاثين دقيقة ضغط

جمال عبد الناصر على زر الانفجار في حضور ضيوف مصر. واندفعت مياه النيل إلى مجراها الجديد. واستمر التحويل منذ لحظة الانفجار حتى صباح اليوم التالي. وجاءت لحظة اندفع فيها البناؤون الموجودون على شاطئ النيل يرتمون في أحضان بعضهم البعض مهنئين. في المساء عبر عبد الناصر وضيوفه النيل بسياراتهم على الطريق الجديد.

ظهرت الميداليات والنياشين السوفيتية على صدور بناة السد العالي من لابسي الجلابيب الزرقاء، وكذا الميداليات والنياشين المصرية على قمصان الخبراء السوفيت.

حصل جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة وفقًا لمرسوم مجلس السوفيت الأعلى على لقب "بطل الاتحاد السوفيتي" أقيم حفل استقبال رسمي في قصر القبة حضره حوالي خمسة آلاف مدعو. ألقى عبد الناصر في هذا الحفل كلمة جاء فيها: "سأتكلم عن بلد عظيم وشعب عظيم - سأتكلم عن صديقنا الذي وقف جوارنا وساعدنا في سنوات الشدة - سأتكلم عن الاتحاد السوفيتي!..".

كانت عملية التحويل التي تمت بنجاح تعني أن مصر ستحصل خلال عدة سنوات على طاقة كهربية غير محدودة. الآن عندما يتكلم عبد الناصر في اللقاءات الجماهيرية، يتحدث كثيرًا ودائمًا عن ضرورة قيام صناعة ثقيلة في مصر. كان يتم تعميق مفهوم الطريق غير الرأسمالي للنمو والتطور. وقد كان الحديث يدور في سنوات التأميم الأولى عن "الاشتراكية العربية" أو حتى "الاشتراكية الإسلامية" والآن فإن عبد الناصر قد وصل إلى مرحلة ضرورة حسم هذا الموضوع بوضوح.

في مارس ١٩٦٦ سئل عبد الناصر: "ما هي نوعية اشتراكيتنا.. علمية أم عربية؟" رد عبد الناصر مباشرة بكلام واضح لا يحمل إلا معنى واحدًا: "ميثاق العمل الوطني يتحدث عن الاشتراكية العلمية... في مضمون مصطلح "الاشتراكية العربية" ينعكس العديد من العيوب القومية..".

في سنة ١٩٦٦ انتهت أول خطة خمسية. نما الدخل القومي بما يوازي الثلث. وتحولت ج.ع.م بفضل هذه اللحظة من بلد زراعي إلى بلد زراعي- صناعي.

وفقًا للخطة السباعية الجديدة كان من المفروض أن يتضاعف توظيف رأس المال في الصناعة مئة مرة. كذلك وضع برنامج واسع يشتمل على العديد من الإجراءات لتحسين الأحوال المادية والمعيشية للعمال. تقرر أن يكون يوم العمل سبع ساعات فقط، كما رُفِعَ الحد الأدنى للأجور. في سنة ١٩٦٤ جرى تنفيذ قانون التأمين الاجتماعي الإجباري.

صاحب تأميم المؤسسات الصناعية أعمال تخريبية واستفزازية. كذا عارض الإقطاعيون في الريف تطبيق قانون الإصلاح الزراعي الثاني.

لقد دخلت قرية كمشيش بمحافظة المنوفية تاريخ مصر كرمز للنضال ضد الرجعية والإقطاع. تقع قرية كمشيش على بعد بضعة كيلومترات من قرية دنشواي التي ثار فلاحوها قبل الحرب العالمية الأولى ضد الاستعمار الإنجليزي. دنشواي، ثم كمشيش رمز لمراحل نضال الشعب المصري المختلفة لتحقيق التحرر الوطني ثم التحرر الاجتماعي.

في ٣٠ إبريل ١٩٦٦ انطلقت قذيفة نارية تردد صداها المدوي في كل مصر. وبيد القاتل سقط عضو الاتحاد الاشتراكي العربي النشيط صلاح حسين صريعًا. دبرت عائلة الفقي الإقطاعية المالكة - بدون منازع - لقرية كمشيش عملية القتل. حاول عمدة القرية وشرطة المحافظة إخفاء الجريمة.

حينئذٍ توجهت زوجة القتيل شاهنده - ذات السبعة والعشرين ربيعًا - إلى القاهرة وطالبت بأن يسمعوا قصتها - وحكت في الاتحاد الاشتراكي العربي عن نشاط الإقطاعيين الإرهابي كمحاولة لإعاقة تطبيق قانون الإصلاح الزراعي.

وعرف عبد الناصر بكل شئ، وسافر مسئول الاتحاد الاشتراكي العربي بسرعة إلى كمشيش. أبعد رجال السلطة المحلية عن التحقيق، وأعيد النظر في الواقعة.

اتضح أن عائلة الفقي سممت المواشي في القرية في وقت العدوان الثلاثي، لكي يستفزوا الفلاحين إلى التظاهر ضد الحكومة. كذلك عندما جرت انتخابات أجهزة الحكم المحلي زيفوا أوراق الانتخابات لكي يدفعوا برجالهم، وعلاوة على ذلك كتبت عائلة الفقي الأرض الزائدة بأسماء أشخاص فارقوا الحياة لكي لا يستولي عليها الإصلاح الزراعي.

لكن صلاح حسين أحد أبناء القرية الذي يعرف حياة الفلاحين جيدًا أشرف على تطبيق قانون الإصلاح الزراعي في كمشيش. بعد الثورة مباشرة كون صلاح حسين لجنة فلاحية. وبسبب دسيسة دبرها له المُلاك، اعتقل صلاح حسين. بعد ذلك اضطر صلاح إلى ترك جامعة القاهرة التي كان يتلقى العلم فيها. بالرغم من هذا استمر صلاح في النضال، وحذر رجال الاتحاد الاشتراكي من الاستهانة بنشاط الإقطاعيين وملاك الأرض. حينئذٍ قررت عائلة الفقي التنكيل بصلاح حسين، أثبتت التحريات أن قاتل صلاح استلم سلاحًا و ٢٠٠ جنيه من أحد أعضاء عائلة الفقي.

كنتيجة لهذا أعيد النظر في أعمال القتل الأخرى في القرى، واتضح مقتل أحمد دسوقي أحد أعضاء الاتحاد الاشتراكي العربي النشطين في قرية محمد سلطان، وكذا أخفى عشرة إقطاعيين بمحافظة كفر الشيخ خمسة آلاف فدان أرض زراعية منزوعة الملكية.

في هذه السنوات تغير في البلاد الكثير جدًا. فقط لم يطرأ على النمط المعيشي لعبد الناصر أي تغييرات. استمر الرئيس يعيش في الفيلا الصغيرة التي أستأجرها وهو مدرس بالكلية الحربية.

كان ناصر أول من يهجع إلى فراشه في المنزل. كان يستيقظ عادة في حوالي الساعة السادسة صباحًا، يشرب الشاي ويتناول إفطاره المكون من الجبنة البيضاء وطبق الفول الذي يأكله كل الناس البسطاء، ثم يخرج إلى مكتبه. وفي الوقت الذي يستيقظ فيه المنزل يكون ناصر قد استغرق في عمله. و يجري أطفاله صاخبين لغسل وجوهم.

كان وقت الفراغ لدى عبد الناصر قليلًا جدًا. ولكنه حافظ على قاعدة واحدة بدون تغيير عندما يكون موجودًا في القاهرة. تجتمع كل الأسرة في الساعة الثالثة ظهر كل يوم على مائدة الغداء. كان الأطفال ينتظرون هذه الدقائق بفارغ الصبر - لقد كان عبد الناصر أبًا مثاليًا. لم يرفع صوته مرة واحدة على أولاده، ولم يتدخل إطلاقًا في شئونهم الخاصة، ولم يفرض نفسه على أمزجتهم، لكن تابع ناصر باستمرار أحوالهم المعيشية واهتماماتهم. وكان يقول لهم وجهة نظره في أي موضوع أو أي مشكلة بلباقة وبدون قسر، ويوجه طاقاتهم إلى كل ما هو مفيد. كانت كل كلمة يقولها الأب أو أي حركة يأتي بها تعتبر عند الأطفال مثالًا يحتذي به و يحاولون تمثلها.

في أيام الأجازات النادرة كان عبد الناصر يسافر إلى ضاحية القناطر الخيرية.

هناك استمتع عبد الناصر كثيرًا بالطبيعة عندما كان يلعب مع أولاده في الحديقة. كان لدى عبد الناصر هواية وحيدة شملت أولاده. استهواه التصوير كثيرًا جدًا. وبفضل ذلك احتفظ في ألبوم الأسرة بلقطات كثيرة، صورها بنفسه في أوقات النزهة. أحب الرئيس أيضًا الأفلام السينمائية التي كان يعرضها في المنزل كسينمائي أصيل.

كانت أعياد ميلاد الأطفال هي أكبر أعياد الأسرة حيث تقام فيها حفلات الشاي. واقتطع ناصر سويعات أخرى من أجل أن يهدي أطفاله في أعياد ميلادهم هدايا ويلعب معهم.

لم يحب عبد الناصر الاحتفال بعيد ميلاده، كانت هناك تعليمات للصحف بمنع نشر أي شئ في هذا الخصوص. إذا حضر أي زائر في هذا اليوم يتبادل مع الضيوف الشاي وبعض الفطائر التقليدية من جاتوه وتورتات. كان عبد الناصر يحب الحلوى، لم يشرب الخمور إطلاقًا وكان في الحقيقة يدخن كثيرًا. وسابقًا أحب عبد الناصر السيجارة الأمريكية "كنت" ولكنه أصبح الآن يدخن السيجارة المصرية "كليوباترا" فقط.

ذات مـرة أثناء ترميم فيلا عبد الناصـر وإصلاحها، اقترحوا عليه أن ينتقل وأسـرته إلى قصر القبـة، حيث حصل كل فرد في الأسـرة على غرفة ضخمة. لكـن الحيـاة في القصـر أقلقته كثيرًا وبدا أفراد الأسـرة كما لـو كانوا منفصلين.

تذكـر عبـد الناصـر أن الأطفـال يجـرون بطرقـات القصـر ويمكن أن يكسـروا أي شـئ من فازات، ومحتويات القصر النادرة. وسـيكون من المحتم عليه دفع ثمن أي تحفة مكسـورة، قال: أنا لن أسـتطيع تحمل فترة المعيشـة بالقصر.

كان عبد الناصر شريفًا، ونظيف اليد، وحازمًا مع نفسه. أرسلت إلى عبد الناصر ملايين الجنيهات كتبرعات بهدف أن يوجهها إلى أي جهة تحتاجها. وقد تم تحويلها إلى البنك بالحسـاب الجاري تحت رقم"١" وكانت هذه المبالغ توظف لصالح مصر، وعندما مـات الرئيس كان يوجد حوالي ٢,٥ مليون جنيه في هذا الحساب بينما احتوى حساب عبد الناصر الخاص على ٦١٠ جنيه مصري.

كل هـذه الموضوعات كانت معروفـة جيدًا للمصريـين. لأول مرة يـقود البلد لتي سـاد فيها الفسـاد سنوات طويلة رجل غير مغرض. وفي هذا الخصوص يكمن سر نجاح عبد الناصر العظيم كرجل دولة.

بقدر ما كتبت عنه الصحف الإنجليزية والأمريكية، وبمقدار ما أهالت الدعاية الإسـرائيلية عليه من براميـل القاذورات، ومهما كانـت الأخطاء التي ارتكبها ناصر بنفسه والصعوبات التي تعرض لها، فلم يستطع أن ينال من حب وإيمان شعبه به.

لم تصبـح القاهرة قبلة ممثلي حـركات التحرر الوطـني في العالم العربي فقط بل أيضًا عاصمة إفريقيا المناضلة.

فقـد انعقـدت مؤتمـرات دولية كبـيرة في القاهـرة. في عـام ١٩٦٤ مثلًا، اجتمع رؤساء الدول الإفريقية في مؤتمرهم الثاني.

قدمت الجمهورية العربية المتحدة مساعدتها المادية والعسكرية لشعب الكونغو في نضاله ضد الإمبريالية. لعبت مساندة الجمهورية العربية المتحدة لثورة الجزائر دورًا كبيرًا في انتصار الثورة.

قاتل الجنود المصريون في اليمن. ساندت ج.ع.م شعوب المغرب، والسودان، والعراق، وسوريا، واليمن الجنوبي. آمن عبد الناصر بأن مساندة الشعوب الأخرى هو مهمة ثورية ملقاة على عاتق ج.ع.م. ردد عبد الناصر في خطبه بثبات وعناد فكرة وحدة عمل الدول المتحررة في النضال ضد الإمبريالية، ارتبط ناصر بصداقات كثيرة مع القادة التقدميين. كان هناك شعور خاص يربط بين عبد الناصر وإرنستوتشي جيفارا وفيدل كاسترو، في عام ١٩٦٢ تقابل عبد الناصر وكاسترو في حي هارلم بنيويورك حيث كان يقيم كاسترو في فندق متواضع، وذلك خلال دورة انعقاد الجمعية العامة للأمم المتحدة التي حضرها رؤساء كثير من الدول. وقد أبدى عبد الناصر إعجابه الشديد بثورة كوبا.

في فبراير ١٩٦٥ وصل تشي جيفارا ثانية إلى القاهرة. وزار عبد الناصر مع ضيفه جيفارا أسوان. وقد أعلن الضيف أنه لم يشاهد بعد بناء كهذا السد في أي بلد من البلاد النامية.

تحدث ناصر:

ـ قال دالاس لنا أننا سنلعن هذا اليوم – الذي نبني فيه هذا السد لأن شعب مصر سيكون مضطرًا للتضحية كثيرًا... لكن الثورة الحقيقية تتحدد بمدى استعداد الناس لتحمل الحرمان في سبيل التنمية...

حينئذٍ عندما انتهت المرحلة الأولى من بناء السد العالي، رأى كل العالم كم أخطأت البلاد الإمبريالية التقدير، هل فهموا هذا في واشنطن ولندن؟ قررت حكومة واشنطن أن "أحسن طريقة لإبقاء ناصر خارج كتلة السوفيت هي مساعدته". فعلًا فقد فشلت سياسة التهديدات في تحقيق أية نتائج. فقد

قال كيندي بعد وصوله للسلطة: أن الولايات المتحدة الأمريكية مستعدة لمساندة العرب. استجاب ناصر لهذا الإعلان بهدوء وبحذر. وكما أظهرت الأحداث التالية.. تصرف ناصر ببعد نظر ثاقب. ومضى وقت ليس بقليل. أرسل كيندي خطابًا لعبد الناصر طلب فيه الكف عن شراء الأسلحة السوفيتية.

ردًا على الرسالة نبه عبد الناصر كنيدي إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية هي التي امتنعت عن إمداد مصر بالأسلحة وعن تحويل بناء سد أسوان العالي في الوقت الذي عرض فيه الاتحاد السوفيتي مساعدته للشعب المصري. كذا أخبره رئيس الجمهورية العربية المتحدة أنه سيحافظ على علاقاته الحسنة مع الاتحاد السوفيتي طالما أن ذلك هو رغبة الشعب المصري.

بعد ذلك استمر كيندي في ممارسة الضغط على عبد الناصر. في ذلك الحين وصل بادو سفير أمريكا الجديد لدى الجمهورية العربية المتحدة الذي شغل منصب مدير الجامعة الأمريكية في القاهرة لمدة عشر سنوات. ابتسم عبد الناصر عفوًا، فإنه ما زال يذكر محادثاته مع إيدن المحسوب خبيرًا في الشئون العربية.

على أية حال، مارس بادو فورًا عمله بنشاط، وأجرى اتصالات مع رجال الصناعة المصريين، ومع رجال الإدارة والكتاب، ورجال المجتمع. وتواجد رجال الكونجرس في مصر واستخدم بادو كل نفوذه وتأثيره من أجل مساعدتهم في مقابلة ناصر. وضع رجال السياسة الأمريكية كل ثقلهم لكي يكسبوا عطفه. عند عودة رجال الكونجرس إلى الولايات المتحدة أدلوا بأحاديث ضد عبد الناصر وطالبوا بمحاصرة الجمهورية العربية المتحدة اقتصاديًا. واستمرت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية في مساعدة إسرائيل عسكريًا.

في نوفمبر عام ١٩٦٤ تم إسقاط مظليين بلجيكيين في الكونغو، دبرت الولايات المتحدة هذا الهجوم وكان موجهًا ضد الشعب الكونغولي. خرجت مظاهرات في شوارع القاهرة تعارض سياسة أمريكا. بعد عدة أيام أعلن ناصر أن الجمهورية العربية المتحدة تساند نضال الشعب الكونغولي.

"إذا لم يعجب السفير الأمريكي هذا، فليذهب ويشرب من البحر الأبيض – هكذا قال عبد الناصر وسط صيحات المصريين الحماسية ، ثم أكمل – وإذا لم تكفيه فليشرب البحر الأحمر أيضًا".

أدرك عبد الناصر أن هناك خطرًا جديدًا يُخَيِّمُ فوق مصر. في هذه المرة استعدت إسرائيل لحرب أكثر إتقانًا من حرب ١٩٥٦. وصل موشى ديان إلى فيتنام بوصفه مراسلًا حربيًا لجريدة "معاريف" الإسرائيلية. هناك لاحظ الأعمال العسكرية للقوات الأمريكية وشارك حتى في معركة دانانج. أجرى ديان مناقشات مع الجنرالات، وعلى وجه العموم استحوذ على خبرة حرب فيتنام ولهذا ارتدى ديان في تلك المدة الزى العسكري الأمريكي. قبل هذا تقابل ديان في واشنطن مع ماكنمارا وزير الدفاع الأمريكي والجنرال ماكسويل تايلور، وكان تحت رعاية الجنرال وستمورلند شخصيًا.

بعد عودته إلى إسرائيل لم يكتف ديان بنشر مقالات عن رحلته في فيتنام. بل ألقى العديد من المحاضرات المغلقة على الضباط والجنود.

في عام ١٩٦٦. وقعت ج.ع.م. معاهدة دفاع مشترك مع سوريا والتي بمقتضاها تتشكل قيادة موحدة لجيشي البلدين في حالة وقوع حرب.

سرعان ما قررت إسرائيل جس نبض موقف الدول العربية بالنسبة للاعتداءات العسكرية. قصفت القوات الإسرائيلية ثلاث مدن أردنية. وحاولت إسرائيل أن تبرر أعمالها الهجومية المستمرة بهجمات الفدائيين الفلسطينيين، لم تكن كلًا من مصر أو سوريا مرتبطة بالأردن بأي اتفاقيات. ولكن هل هذا يعني أنهم لا يجب أن يشاركوا في رد الفعل؟.

قامت في الأردن موجات من المظاهرات الجماهيرية تطالب الملك حسين بالسلاح. بدأت عملية تبادل الاتهامات، بدأت صحافة السعودية والأردن في توجيه اللوم إلى عبد الناصر؛ لأنه لم يطلب سحب قوات الطوارئ الدولية من سيناء لكي يمكن غلق خليج العقبة أمام السفن الإسرائيلية.

تبجحت إسرائيل بوقاحة وعدوانية قصوى.

في يوم ٧ أبريل توغلت قاذفات القنابل الإسرائيلية إلى داخل سوريا بحوالي ٧٠ كيلو مترًا وضربت أهدافًا سورية في العمق. كذا استعمل العدو في العمليات الأرضية الدبابات والمدفعية وكانت هذه الحملة تشبه "بروفة" الحرب.

في ٢٧ أبريل أذاعت وزارة الخارجية السوفييتية بيانًا نبهت فيه إلى أن إسرائيل تقوم بلعبة خطرة، عندئذٍ بدأت إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية تظهر قلقها، تم وضع الأسطول السادس الأمريكي المتواجد في البحر الأبيض في حالة استعداد عسكري. وبدأ الطيران الإنجليزي يتمركز ويتجمع في قبرص.

احتفلت إسرائيل في مايو ١٩٦٧ بمرور تسعة عشر عامًا على إنشائها... أقيم العرض العسكري في القسم الإسرائيلي من مدينة القدس على الرغم من أنه كان معروفًا للعالم أجمع أن عاصمة إسرائيل هي تل أبيب، بهذا الشكل العلني أظهرت إسرائيل نواياها تجاه القدس.

في نفس اليوم أعطى عبد الناصر أوامره لكي تتجه القوات المسلحة المصرية إلى قناة السويس.

في ١٨ مايو تقدم رئيس الجمهورية العربية المتحدة رسميًا إلى سكرتير عام الأمم المتحدة يوثانت بطلب سحب ثلاثة آلاف فرد من قوات الطوارئ الدولية من سيناء.

أعطى عبد الناصر أوامره للأسطول المصري بعدم السماح للسفن الإسرائيلية بالمرور بخليج العقبة، وكذا سفن الدول الأخرى الحاملة لبضائع استراتيجية متجهة إلى إسرائيل.

تركت إسرائيل سوريا في هدوء، واتجهت القوات الإسرائيلية إلى حدود الجمهورية العربية المتحدة.

في ٣٠ مايو طار الملك حسين إلى القاهرة ليوقع اتفاقية دفاع مشترك مع عبد الناصر.

لكن في نفس الوقت حاول ناصر تخطي أي صدام عسكري، حيث أنه رأى أن العرب غير مستعدين لحرب مع إسرائيل.

في الحقيقة، اتهمه الصهاينة خداعًا فيما بعد أنه أعلن في واقع الأمر، عن نية إبادة إسرائيل.

في ٢٥ مايو أعلن عبد الناصر خلال مؤتمر اتحاد المهنيين العرب المنعقد في القاهرة أنه إذا بدأت الحرب فقد تقود إلى تدمير إسرائيل، سأل كريستوف ميخيو مندوب البرلمان الإنجليزي عبد الناصر عما يعني بذلك؟. أوضح الرئيس المصري أنه استخدم كلمة "تدمير" بمعناها العسكري وليس بمعناها السياسي، أي أنه يتكلم عن قوات إسرائيل المسلحة وليس عن شعبها.

بخصوص الضربة الأولى قال عبد الناصر ليوثانت خلال زيارته لمصر أن جمهورية مصر العربية لا تريد أن تبدأ الضربة الأولى بأي حال من الأحوال.

عندما بدأ الاجتماع العاجل لمجلس الأمن، طار إلى الولايات المتحدة شازار رئيس إسرائيل وأجرى محادثات مع جونسون ورئيس وزراء إنجلترا "ويلسون" الذي كان موجودًا أيضًا في أمريكا كتبت "أورشليم بوست" أنهم ناقشوا "خطة عمل مشترك ضد مصر". بهذا الشكل حصلت إسرائيل على مساندة لندن وواشنطن.

تشكلت في ذلك الوقت "وزارة حرب" في إسرائيل. أعطى ديان الذي تولى مهام وزير الدفاع أمره بالتعبئة العسكرية القصوى.

ما كاد الجنود المصريون يتمركزون في مواقعهم الحربية في سيناء، حتى بدأ يومهم الجديد في ٥ يونيه، كأي يوم عادي آخر.

بينما جهزت التليفونات في المعسكر المعادي، واندفعت عربات الجيب بضباط الاتصال في كل الاتجاهات. وفي الثامنة صباحًا تقريبًا كانت كل قوة الطيران الإسرائيلية في الجو، حيث دمرت الطائرات المصرية على أرض المطارات.

اختارت القيادة الإسرائيلية خصيصًا للهجوم "الدقائق المعدودة"، التي يجري فيها تغيير النوبتجية الليلية بأفراد الطاقم النوبتجي الذي يتسلم عمله صباحًا، بحيث يكون أفراد الطاقم في كابينة الطائرة.

وتلى ذلك الهجوم البري. إذ اندفعت القوات الإسرائيلية في أربعة اتجاهات: غزة، وأبو عجيله، والقنطرة، وشرم الشيخ.

وهي قوات كانت على مستوى تنظيمي وتدريبي جيد. أمَّا مصر فلم تكن مستعدة بعد للحرب. كان الشعب المصري مشغولًا بالتعمير السلمي.

ومع تطورات الأحداث اتضحت حقيقة أخرى، وهي أن جزءًا أساسيًا من القوات المصرية كانت متواجدة في اليمن، بعيدًا عن أرض الوطن.

وعندما علم الرئيس ناصر بضرب الطائرات الإسرائيلية للمطار الحربي المصري "الهايكستب" اندفع في التو إلى التليفون، ولكن عامل التليفون لم يستطع توصيله بالقائد العام المشير عبد الحكيم عامر، ولا بوزير الطيران صدقي محمود.

إذ أنه في هذه اللحظة, كان المشير عبد الحكيم ومعه بعض القادة العسكريين يحلقون فوق شبه جزيرة سيناء. ولم يستطع مطار العريش المضروب أن يستقبل طائرة المشير، فصدر أمر للطيار بالعودة للقاهرة. ولكن اتضح أن الهبوط في مطار "الهايكستب" ممنوع أيضًا.

وكان هناك أمر قد أعطى للمدفعية المصرية المضادة للطائرات بعدم فتح النيران والضرب طوال فترة وجود الطائرة المقلة للمشير وأعضاء القيادة العامة في الجو. في هذا الوقت نجح الطيران الإسرائيلي في إحداث الكثير من الخسائر.

وأخيرًا هبطت طائرة المشير في مطار مدني، وأسرع المشير بنفسه للاتصال بعبد الناصر. وأنه على الرغم من أن سير الحرب قد حدد، خاصة أثناء ما كان المشير عامر محلقًا في الجو، فكان يعتقد أن "كل شئ مازال يسير سيرًا حسنًا" وهو نفس ما ردده وزير الحربية بدران.

وعندما بدأت القوات الإسرائيلية الهجوم، أسرع الضباط المصريون إلى أجهزة التليفون ولكنهم لم يتمكنوا من معرفة أي شئ.

خيم على مراكز القوات المصرية سحابات من الرمال المتناثرة خلفتها ضربات الدبابات الإسرائيلية. وكانت الطائرات الإسرائيلية تقوم بالطلعة وراء الأخرى، قاذفة بالقنابل المحرقة وحاملة النابالم. وبدأت القوات المصرية تنسحب من الممرات في صحراء سيناء، إلى قناة السويس ، بعد تكبدها خسائر فادحة.

ومع صباح ٦ يونية علمت القاهرة كلها بأخبار الهزيمة. وعلم عبد الناصر أيضًا بالوضع المتردي على الجبهة الأردنية، إذ استولى العدو على القدس. طلب مجلس الأمن في ذات اليوم وقف العمليات العسكرية.

وقرر عبد الناصر رغم كل هذا، أنه في إمكان القوات المصرية أن تتماسك وتصمد، على الأقل على الضفة الشرقية لقناة السويس. حيث كان قد أعطى المشير عامر أمرًا بالانسحاب الفوري للقوات إلى الضفة الغربية.

استمرت القوات الإسرائيلية في يوم ٧ يونيو في هجماتها. قبلت مصر في ٨ يونيو اقتراح مجلس الأمن الخاص بوقف إطلاق النار. في الوقت الذي كانت القوات الإسرائيلية مستمرة في تنفيذ حملاتها العسكرية في الضفة الشرقية للقناة. وأصبح الطريق مفتوحًا أمامها للقاهرة...

وازداد الموقف خطورة وتعقيدًا.

تم لقاء لقيادات الأحزاب الشيوعية، وأيضًا لرؤساء الحكومات الاشتراكية في موسكو في يوم ٩ يونيه.

طالبت الحكومات الاشتراكية في بيان خاص، بأن توقف إسرائيل فورًا عملياتها العسكرية، وأن تسحب قواتها من الأراضي العربية المحتلة إلى خطوط الهدنة. وأعلنت الحكومة السوفيتية الولايات المتحدة بهذا البيان حتى توقف إسرائيل عملياتها العسكرية.

وأرغمت إسرائيل على التسليم بذلك.

وما أن مرَّ اليوم الثالث على العدوان الإسرائيلي حتى كتب الصهيوني "جون كيمش" في الجريدة الإنجليزية "إيفننج ستندر" أن عبد الناصر مهموم بأحمال ثقيلة. حيث أن القيادة العسكرية أخذت جانب المعارضة له. "وأكد كيمش أيضًا أنه - بالتأكيد قد وقع في القاهرة انقلاب عسكري".

وها هو واقع وحقيقة ما حدث..

يوم ٨ يونيه تم في المبنى الضخم والجديد للقيادة العامة، والواقع في ضواحي القاهرة، اجتماع للقيادة، تكلم فيه كل من المشير عامر، ووزير الحربية شمس بدران. وفي اليوم التالي حضر الرئيس عبد الناصر تلبية لدعوة

من القيادة العامة. وفيه سأل وزير الحربية ناصر مثبتًا نظره عليه:

ـ ما رأي فخامتكم فيما حدث؟

فجاء رد ناصر هادئًا:

ـ الموقف معقد جدًا.

وكان في نية عبد الناصر مناقشة الوضع مع القادة.

ثم عاود بدران سؤاله مرة أخرى للرئيس:

ـ ومن المسئول عن الهزيمة؟

وأحس عبد الناصر أن في حديث بدران نبرة استخفاف – وسأل بحذر – مدركًا. أن المجتمعين قد أعدوا خطة ما:

ـ أترى أنه من الملائم مناقشة مثل هذا الموضوع الآن؟

أجابه وزير الحربية:

ـ بالقطع.. وعضده في كلامه في نفس اللحظة قائد آخر وهو جلال عبد الله. فكان واضحًا أن القادة يخشون تبعة أن يكونوا هم المسئولون مباشرة عن الإجابة عن سبب الهزيمة.

أجاب رئيس الوزراء زكريا محي الدين متدخلًا في الحديث:

ـ نحن جميعًا مسئولون.

أجاب شمس بدران محدقًا بنظره في عيني عبد الناصر.

ـ ولكن الأمر أصدره الرئيس ولم نصدره نحن.

دار هذا الحديث يوم الخميس وكان اليوم التالي يوم الجمعة... وفيه تقام صلاة تقليدية في مسجد الحسين... حيث تتوافد عليه عادة جماعات شعبية كبيرة من مختلف أنحاء البلاد.

تابع عبد الناصر حديثه قائلًا:

ـ حسنًا.. كنت سأقدم استقالتي غدًا في المسجد، ولكن سأعلنها مساء اليوم. لو كان هذا هو ما تريدونه.

وظهر عبد الناصر شاحبًا، متعبًا، مكتئبًا على شاشات التلفزيون.

هذا الصوت كم من مرة سمعته مصر كلها. كان يخطب من قبل بقوة وحماس. يستمع إليه اللغويون والمتخصصون في اللغة في دهشة، ذلك أنه إذا ما تحدث، تأتي لغته وبها لكنه إسكندرانية، مستعملًا لغة الشارع، مبتعدًا عن أصول وقواعد اللغة الأدبية، إلا أنه كان مفهومًا واضحًا لكل أبناء البلاد العربية.

حقيقة أنه كان دائمًا يتحدث عن الانتصارات عن نجاحات الثورة، السيطرة على النيل، إنهاء العدوان الثلاثي، والقضاء على الإقطاع، محاربة البطالة، محاربة الفقر والعوز، فاقترنت الكثير من الانتصارات باسم عبد الناصر.

... وتستمع الجماهير لخطابه. تلك الجماهير التي لا تعرف القراءة والكتابة فتردد وراء الخطيب تلك الكلمات الجديدة عليها، غير المألوفة بالنسبة لها. وتعلموا منه معنى "الثورة"، "التطور"، "الاشتراكية"...

الاشتراكية. وما هي معانيها؟.

هي "بيت سعيد"، هي "ضمان العمل"، هي "العدالة" هكذا كان تفسير وشرح ناصر لأفكار الثورة للعامة والبسطاء.

ولكنه في هذه المرة، اعتزم الحديث عن شئ آخر... شئ مختلف تمامًا.. "هذه ساعة للعمل، وليست ساعة للحزن" بهذه الكلمات بدأ ناصر أكثر أحاديثه شهرة وتأثيرًا.

"أيها المصريون.. إن قلبي.. دائمًا معكم.." بصوت حزين متقطع، تحدث عبد الناصر للشعب عن النجاحات التي تحققت بعد الثورة، ثم كيف يعيش الوطن الآن محنة قاسية.

أخذ ناصر على عاتقه المسئولية كاملة عن الهزيمة. "أمًا عن باقي حياتي فقد قررت أن أعيشها كأي مواطن عادي بجوار مواطني بلدي".

وأعلن قراره بالاستقالة، ووعد بأنه لن يتدخل في السياسة بعد الآن.

"وليكن زكريا محي الدين رئيسكم" قالها عبد الناصر مقدمًا زكريا محي الدين.

عندما بدأ خطاب عبد الناصر في التليفزيون، كان القادة ما زالوا مجتمعين. وذهلوا جميعًا عند سماع ناصر يعلن اسم زكريا محي الدين خليفة له، إذ أن رأيهم كان أنه لا رئيس جديد إلا عبد الحكيم عامر.

ولكن الآن وبعد خطاب عبد الناصر، شعر عامر أنه كقائد عام يجب عليه أن يتصرف هو أيضًا فأعلن بعد دقائق معدودة استقالته.

وكان هذا هو أول حدث من نوعه في تاريخ مصر؛ أن يحدث خطاب مسئول سياسي مثل هذا التأثير المذهل، فالمذيع الذي قدم الرئيس للميكرفون، أراد أن يعقب بشئ ما، فلم يقوَ إلا على السكوت والبكاء.

وفي أكبر شوارع القاهرة كانوا النساء والرجال ينتحبون.

في هذه اللحظات كانت تعلو صفارات الإنذار، التي كانت تدوي عادة لإخطار السكان بالغارات الجوية وتبعها دوي انفجارات هائلة. واعتقد الناس أنها ليست إلا بداية جديدة لإحدى الغارات الإسرائيلية.

ولكن لم يترك أحد الشارع، رغم محاولات بعض رجال الأمن المضطرون لتفريق التجمعات! وكانت جميع تلك المحاولات بدون نتيجة، واتجه القاهريون على ضوء مشاعل أوراق الصحف وهم يهتفون "عد يا جمال"، "قدنا يا ناصر" إلى منشية البكري حيث يعيش جمال.

هامت الكتلة البشرية طوال الليل في شوارع القاهرة، مئات الآلاف من المصريين، وصلوا صباحًا إلى مبنى مجلس الأمة هاتفين "ناصر!"، "ناصر!"، مهددين بالتنكيل بالأعضاء الذين لا يقترعون مع جمال.

جميع الشوارع في منشية البكري حتى وسط العاصمة، كانت مزدحمة بالمتظاهرين، ملايين المصريين تدفقت من جميع أنحاء مصر إلى القاهرة.

وهبت عاصفة المظاهرات المؤيدة لناصر، لا في مصر وحدها بل تعدتها إلى كل العواصم العربية الأخرى، وظهر الطلبة العرب حاملين صور عبد الناصر أمام سفارات مصر في البلاد المختلفة التي يدرسون بها.

واتجه زكريا محي الدين حاملًا خطابه المعد إلى مبني الإذاعة والتلفزيون إلا أن المتجمهرين أمام المدخل تصدوا له واعترضوا طريقه، وفي هذه الأثناء اتخذ زكريا محي الدين قرارًا. فبعد دقائق اتجهت سيارته إلى منشية البكري.

"جمال – إذا لم تقرر الآن سحب استقالتك، سأطلق على نفسي الرصاص" قال هذا زكريا محي الدين ووضع أمامه المسدس، وابتسم جمال وأخذ المسدس.

وسحب الرئيس استقالته.

"بإسم الملايين – الذين يذكرون كيف أنك أشعلت الثورة بقيادتك الحكيمة لنا في ٢٣ يوليو، باسمهم جميعًا نقول لك لا. لا. أنت زعيمنا ورئيس جمهوريتنا، وستظل قائدنا ورئيسنا"، جاء هذا في بيان لمجلس الأمة.

"كنت أنوي تنفيذ قراري الخاص بالاستقالة... ولكنني لم أستطع أن أقاوم صوت الجماهير. ولهذا فإنني لن أتنازل عن منصبي، سأظل فيه وفقًا لإرادة الجماهير، لحين إزالة آثار العدوان. وسيجري بعد هذا استفتاء عام".

وعندما عرف الضباط الذين اشتركوا في المعارك الأخيرة مع المعتدين بما جرى في هيئة أركان الحرب سرعان ما طلبوا من القيادة العامة إجراء محاكمة عسكرية لأولئك الذين طالبوا بتنازل ناصر، واتجهت قوة من مئة حارس من المكلفين بحراسة منزل عبد الناصر إلى القيادة العامة، واعتقلوا شمس بدران والقادة. وإن كان للحقيقة إن بعضًا منهم قد تمكن من الهرب.

وكأن ناصر قد ولد من جديد. فقد سانده الشعب وأحس عامر بالاستياء.

كان يتمني أن يعامله الشعب كما يعامل جمال. وسرعان ما عُرف أن القائد العام السابق، سافر إلى موطنه الأصلي في صعيد مصر. وإن كان ناصر قد أدرك ما يمكن أن يفكر فيه صديقه لمعرفته القوية به.

وأصبح على عبد الناصر الآن أن يقرر أصعب مسألة: من أين يبدأ بناء الجيش، وإعادة النظام إلى البلاد؟ كان معروفًا لجمال خاصة في فترة الاستقالة أن جزءًا من زملائه برئاسة زكريا محي الدين يعتقد أن الهزيمة العسكرية التي منيت بها مصر تحتم الاتجاه لأمريكا. وهذا ما يفسر اقتراح عبد الناصر بأن يكون زكريا محي الدين رئيسًا.

فالاختيار كان واضحًا إمَّا استمرار الحرب وإمَّا الاتفاق مع أمريكا. وهذا الأخير في حقيقته ليس إلا إجهاضًا لكل إنجازات الثورة. لقد اختار الشعب عبد الناصر وهذا يعني أن المصريين على استعداد للاستمرار في الحرب.

مسئولية الهزيمة تحملها بالطبع الجميع. وفي نفس الوقت كشف المصريون عن رؤوس الجريمة: غرور وتشيع البيروقراطية والتصاقها بالنظام، أولاد الأغنياء المرتدين للزي العسكري كحرفة أو منصب، المستثمر المستغل الذي لم تمسه الثورة بعد.

هؤلاء الذين لا مبادئ لهم، كانوا دخلاء وغرباء على مصالح البلاد.

ودب اليأس في نفوس المصريين باتضاح حجم المأساة. وهو ما استغله أعداء الثورة. فبدأوا ينشرون إشاعات تهدف إلى إلقاء مسئولية الهزيمة على الاتحاد السوفيتي. وجند الرجعيون كل قواهم لهدف واحد، وهو الإساءة إلى الصداقة التقليدية المصرية السوفيتية.

ولكن لم تفلح حساباتهم، ففي ١٠ يونيو تسلم عبد الناصر رسالة، أكد فيها الزعماء السوفيت للشعب المصري وللرئيس عبد الناصر، أن الاتحاد السوفيتي سيساعد لإعادة بناء القوة المصرية وإزالة آثار العدوان. وبعد عدة أيام طار رئيس مجلس اتحاد الجمهوريات السوفيتية بود جورني للقاهرة، وعقد مع الرئيس ناصر العديد من المحادثات.

وعندما نوقشت مسألة الاعتداء الإسرائيلي في جلسة خاصة في الجمعية العامة سافر شخصيًا رئيس الوزراء السوفيتي كوسجين إلى نيويورك؛ ليرأس بنفسه الوفد السوفيتي في المحادثات في الأمم المتحدة.

ولم يضيع ناصر، بحيويته الخاصة، دقيقة واحدة في سبيل إعادة بناء القوات المسلحة وأجبر على الاستقالة ٥٠ قائدًا وضابطًا برتب عالية.

طالب قادة في الجيش في ١١ يونيو بإعادة عامر إلى منصب القائد العام. واتجهت ست عربات مدرعة لمنزل عبد الناصر، ولم يخضع عبد الناصر لهذا التهديد.

وكان هذا الحادث هو بداية النزاع بين عبد الناصر وعامر، وأدرك عبد الناصر أن جهاز القيادة العسكري البيروقراطي برئاسة عامر لا يقدر على تنظيم دفاع البلاد.

كان عبد الناصر في كل مرة يرى فيها ولديه، خالد وعبد الحكيم يتذكر بمن سميا على إسميهما. أمّا خالد محي الدين فقد ضحى بالصداقة من أجل تلك المبادئ التي آمن بها إيمانًا قويًا، وهو ما كان يعلمه جمال جيدًا وصفح عنه.

والآن على ناصر نفسه أن يختار.

وصلت التقارير لعبد الناصر أن منزل عامر تحول إلى وكر للمتآمرين، حيث يجتمع فيه الضباط. وحذر عبد الناصر عامر مرتين وطلب منه أن لا يعقد مثل هذه الاجتماعات المشبوهة.

وبالتدريج أصبح يجتمع في منزل عامر محافظون لمحافظات مختلفة، ووزراء الحربية والداخلية مما أثار شك قوات الأمن. وأصبح معروفًا أن عامر يتحدث أمام ضيوفه بصراحة، منتقدًا الطريق الذي تسلكه ج.ع.م. من وقت قيام الثورة واعترض أول ما أعترض على التحولات الاجتماعية. وطالب عامر أيضًا بالعفو عن كل المسجونين السياسيين (وأساسًا الإخوان المسلمين، المعروفين بكراهيتهم الشديدة للنظام الثوري) معلنًا أن هذا سيساعد على تعزيز الوحدة الوطنية.

في هذا الوقت كانت الحركة النشطة لإعادة تنظيم الجيش قد بدأت في مصر.

في ١٩ يونيو شكل ناصر حكومة جديدة. وبتماسك وصبر فسر للشعب أن "الهزيمة العسكرية لا تعني الانهيار" وأن ج.ع.م لا يجب أن تحيد عن طريقها السابق. وهدفت الرجعية استغلال الظروف الصعبة التي تمر بها البلاد برفع شعار الديماجوجى "الوحدة الوطنية".

وتم لقاء في ٢٩ يونيو بين عبد الناصر وعامر. طالب فيه الأخير بالإفراج عن كل القادة المعتقلين. ووافق عبد الناصر على ذلك، متمنيًا تحقيق وحدة فعلية، وطالبه بالكف عن الأعمال الانشقاقية. ولكن القادة الذين أفرج عنهم لم يعودوا إلى منازلهم بل توجهوا إلى عامر في بيته مباشرة.

وأخذت حركة عامر طابعًا أكثر تحديًا. فبدأ عامر وأتباعه يوزعون وسط الضباط مذكرة محددين فيها المطالب التالية:

تعطيل نشاط الاتحاد الاشتراكي العربي، الإفراج عن المعتقلين السياسيين، وإنشاء حزب معارضة، تحقيق حرية الصحافة وإقامة الديمقراطية. وكان بدران في نفس الوقت يجند المؤيدين من أفراد القوات المسلحة.

في يوم ٢٦ يونيو اعتمد عامر على تأييد ٤٠٠ دارس من مدرسة المظلات للاستيلاء على قيادة الجيش. متصورًا أنه سيستطيع اعتمادًا على تأييد الجيش له. أن يملي شروطه على عبد الناصر.

ولكن تأخر الرفقاء. إذ وقعت تحت أيدي عبد الناصر كل الدلائل القاطعة على نشاطهم التآمري. وقبض على المتآمرين قبل ٢٤ ساعة من قيامهم بحركتهم. ولكن أبقى عبد الناصر أيضًا على عامر، وأمره بالاعتكاف في منزله. واتضحت أشياء جديدة حول الموضوع أثناء الاستجواب، واكتشف أن الرؤوس المدبرة لهذا الانقلاب كان شمس بدران الذي كان يريد شخصيًا تشكيل الحكومة. واشترك فيه أيضًا عدد من قيادات الجيش الذين تركوا فرقهم أثناء القتال في سيناء...

صرف الانقلاب العسكري انتباه عبد الناصر عن المشكلة الرئيسية.

العدو مرابط على ضفة قناة السويس ، القناة التي يعتبرها المصريون رمز استقلال بلادهم. وهؤلاء المعتدون ينظرون بغطرسة وغرور من أعلى قمم الجولان السورية. والجنود الإسرائيليون يغسلون ملابسهم في مياه نهر الأردن. ورفرف العلم الإسرائيلي ذو نجمة داوود على قمة أحد المساجد الكبيرة في القدس.

ولكن على الرغم من كل ذلك لم يتحقق الهدف الأساسي من العدوان.

فأولًا يثق العرب في النظم التقدمية. ولم "ينهار" أي نظام من تلك الأنظمة التقدمية، كما كان يتوقع الإمبرياليون.

الشرق الأوسط كان يغلي غضبًا. تقرر عقد مؤتمر للرؤساء العرب في الخرطوم...

ووقع على عاتق عبد الناصر مسئولية كبيرة، كيف يجسد أفكار الوحدة العربية، كان يريد أن يصل إلى توحيد كل الحكومات العربية، واتفاقها على استمرار الحرب ضد المعتدي، وأن تساعد ليس فقط بالمشاركة المعنوية، ولكن أن تقدم المساعدة المادية أيضًا للدول التي أضيرت في وقت الحرب.

وكانت المعارك مستمرة على قناة السويس في العديد من المواقع، وعمل المصريون كل ما في إمكانهم للتحكم في نقطة أرضية كمدخل للقناة. وكان هذا تأكيدًا للأعضاء المشتركين في مؤتمر قمة الخرطوم أنه بالرغم من الهزيمة إلا أن الجيش المصري أولًا وأخيرًا ما زال موجودًا.

وفي داخل المؤتمر تحدد وبسرعة اتجاهان: الاتجاه المعتدل، والاتجاه الراديكالي.

فالدول العربية المرتبطة ارتباطًا وثيقًا بأمريكا ، وعلى سبيل المثال السعودية خشيت الإضرار بمصالحها الاقتصادية، وهو ما حدث في أغسطس سنة ١٩٦٨ ولم يأخذ بالاقتراح القائل بحظر تصدير البترول للدول التي تساعد إسرائيل.

وأصرَّ ناصر على رأيه، إذ أنه لم يشأ تعقيد الموقف، فعلى العرب أن يظهروا وحدتهم. وهو ما استطاع تحقيقه. فتوصل إلى اتفاق مع السعودية حول مسألة اليمن. وردًا على انسحاب القوات العسكرية المصرية من اليمن، وعد الملك فيصل بالكف عن الاستمرار في مساعدة الحكم الملكي اليمني.

وهو ما مهد لحل مسألة هامة: هي موافقة الدول المنتجة للبترول على إعطاء مساعدات مالية للدول والحكومات العربية التي أضيرت بالعدوان، فحصلت مصر على ٩٥ مليون جنيه استرليني سنويًا كتعويض عن إغلاق قناة السوس المؤقت. وكان من نتائج مؤتمر الخرطوم أن الدول العربية وقفت مع استمرار المعركة ضد العدو الإسرائيلي.

في ١٣ سبتمبر طلبت المحكمة العسكرية مثول عبد الحكيم عامر أمامها للاستجواب.

واحترامًا لتاريخ خدمة عامر، اتجه القائد العام الجديد الفريق محمد فوزي لإبلاغه هذا الخبر ومعه قائد الأركان عبد المنعم رياض.

رفض عامر الإدلاء بشهادته. وعلى أثر سماعه لهما وعصبيته في حديثهما دخل حجرة نومه. بعد أن فعل شئ ما وعاد ناظرًا في ساعته.

وعندما عاود الحديث معهما، لاحظ الفريق رياض أن عامر يمضغ شيئًا.

وبعد هذا حدث له شئ ما غير مألوف.

وسأله رياض بعد إدراكه أن عامر يفقد وعيه. ما الأمر. فأجابه بأنه "أي عامر" تناول سمًا.

وتوًا نقل عامر إلى مستشفى المعادي العسكري، وأجريت له عملية غسيل معدة وبعد ساعة تحسنت حالته، وتحت الحراسة نقل إلى فيلته.

استيقظ عامر متأخرًا في اليوم التالي. فحصه الأطباء. فكان التنفس طبيعيًا ولم يبق أثر في معدته، ولكنه كان يشكو من الإعياء. قدم له الطبيب على الغذاء كوبًا من عصير الجوافة ومعه قرصان من الدواء، وعاود المشير بعد ذلك النوم.

وفي السادسة مساءًا لاحظ النوبتجي أن عامر استيقظ ودخل الحمام.

وبعد بضع دقائق أسرع أحد الممرضين إلى الدكتور معلقًا أن المشير وقع فاقدًا الوعي، ولم تفلح محاولات إعادته لوعيه. وعندما وصلت سيارة الإسعاف من مستشفى المعادي كان عامر قد فارق الحياة.

قطعت إذاعة صوت العرب برامجها في يوم ١٥ سبتمبر معلنة أن القائد العام السابق للقوات المسلحة المصرية عبد الحكيم عامر مات منتحرًا بتناوله السم.

كان عبد الناصر في هذا الوقت في الإسكندرية للاستجمام. وما أن سمع الخبر حتى عاد إلى القاهرة مسرعًا في نفس اللحظة.

دخل عبد الناصر المنزل الذي رقد فيه جثمان صديقه في الساعة العاشرة مساءًا... وبدأ زملاؤه أعضاء مجلس قيادة الثورة يتبعون الواحد تلو الآخر.

"إن ما حدث لعامر لا يمحو نضاله في تلك السنوات التي شارك فيها في المعارك كصديق وأخ لعبد الناصر..." هذا ما كتبته جريد الأهرام في اليوم التالي.

ولكن من الجدير بالملاحظة أن القائد العام السابق لم يسرع بإزالة سيطرة التقاليد القديمة في الجيش. ومنها أولًا عدم وصول العساكر والضباط الشبان من أبناء الشعب إلى المراكز القيادية، بالإضافة إلى كونه لم يول الاهتمام الكافي موضوع الضبط والربط في صفوف الجيش.

قُدِّمَ للمحاكمة بعد ثلاثة أشهر ٥٥ شخصًا لمسئوليتهم عن القيام بمحاولة انقلاب، هادفين بذلك إلى إحداث تغيير في نظام الحكم عن طريق القوة العسكرية.

وكشفت الدلائل والحقائق عند محاكمة المتهمين الحجاب عن نوع العلاقات التي كانت موجودة بين عبد الناصر والمحيطين به في فترة ما قبل حرب يونيو. وضح أن الصفوة العسكرية وعلى رأسها وزير الحربية بدران لم تكن تذعن لأوامر عبد الناصر، بل أنها في حقيقة الأمر فرضت نفسها على الحكومة. فكثيرًا ما كان يقدم بدران لعبد الناصر معلومات كاذبة عن عمد. وخاصة بعد رحلته للاتحاد السوفيتي غداة العدوان العسكري الإسرائيلي. ففي تقريره المقدم إلى عبد الناصر حَرَّفَ وزير الحربية مضمون المحادثات مع القادة السوفيت.

ولم يشأ رئيس ج.ع.م أن ينتقم من زملائه السابقين، فأصدرت المحكمة العسكرية أحكامًا مخففة. وبصفة عامة برأت العديد من المحرضين على الانقلاب. ولكن سرعان ما قامت المظاهرات الشعبية بالقاهرة بعد عدة أيام، طالب المشاركون فيها بإعادة ومراجعة الأحكام.

الشعب يعلم من المذنب والمتسبب في الهزيمة. وانعقدت المحكمة مرة أخرى وأصدرت أحكامًا بالأشغال الشاقة المؤبدة على أكثر المتآمرين نشاطًا.

في ٢١ فبراير سنة ١٩٦٨ أثناء المظاهرات التي نظمها الاتحاد الاشتراكي العربي خرج سكان حلوان – وهي واحدة من أكبر المدن العمالية في ضواحي القاهرة. أيد فيها العمال طلبة جامعة القاهرة – وللطلبة دور كبير في الحياة السياسية في مصر – طالبوا فيها الحكومة بالإسراع بإصلاح الأخطاء التي وقعت في فترة الحرب، ومحاربة الرجعية بحسم.

أعاد ناصر تشكيل الحكومة. أعفي زكريا محي الدين من منصب رئيس الوزراء. وأخرج من الوزارة ضباطًا أربعة؛ إدراكًا منه بعدم شعبية العسكريين مستبدلًا إياهم بأربعة أساتذة مدنيين من الجامعات.

وخطب عبد الناصر في مارس وسط عمال حلوان. وهو الذي أكد في تلك الأيام في حديث له مع الصحفيين مرة أخرى أن إسرائيل تتبع مع العرب الآن سياسة الحرب الباردة.

"إن إسرائيل تدعي أن مليوني إسرائيلي هزموا مئة مليون عربي.

فالمسألة مئة مليون عربي لم يستخدموا إمكانياتهم، لم يجمعوا كل قواهم...

بينما معسكر القوى الإمبريالية الذي وقف ضد العرب، فكان سندًا كبيرًا لإسرائيل وقويًا للغاية....

إننا خسرنا معركة.. والهزيمة ليست جريمة.. ولكن الجريمة أن نحيد عن مبادئنا".

لم يكن في مصر كلها فرد لم يسمع خطب عبد الناصر الحماسية.

"العمال يقاتلون من أجل حقوقهم، والفلاحون يقاتلون من أجل حقوقهم، والطلبة أيضًا يقاتلون من أجل حقوقهم، كل قوى الشعب العاملة تدافع عن حقوقها".

يشرح عبد الناصر هذا بطريقته الخاصة - مدركًا أن كلماته ستصل وسيفهمها كل فرد حتى العامي منهم - وبالطبع فإنه في أيام الأزمة وأيام الهزيمة التي نعيشها الآن تظهر أيضًا القوى الانتهازية"

ولكن - أضاف عبد الناصر مقنعًا الجماهير - إن تطور البلد في مجمله يعتمد علينا نحن. مصير الثورة مرتبط بنا نحن، فإذا أردنا أن نستمر، وإذا كنا حقيقة نريد بناء البلد.. فعلينا إذًا أن نتماسك".

من المشكوك فيه أن نجد في مثل هذه الأيام كلمات تؤثر بقوة في الناس مثل كلمات عبد الناصر. لقد ضحى عبد الناصر بنفسه، وهو ما كان يعلمه كل فرد في مصر.

اختلف شكل عبد الناصر كثيرًا عن ما كان عليه في أيام شبابه عندما كان يوزباشي. فمشيته اختلفت كثيرًا عن أيام اليوزباشي "جيمي" الذي كان يتنزه بلا هدف مع أصدقائه في ضواحي منقباد. فهى الآن ثقيلة حزينة تدل على المتاعب الدائمة، ويُعَبِّرُ شيب شعره عن الشعور بالمسئولية عن البلد... تلك المسئولية التي لم يتهرب منها أبدًا. ومنذ اليوم الذي كانت فيه ج.ع.م على حافة الهاوية لم يغادر منزله إلا في القليل النادر.

وفي حديث له في تلك الفترة سُئل سؤالًا خبيثًا وإن كان يبدو عاديًا "ألم يتمن جمال عبد الناصر بعد مرور سنوات عديدة حرم فيها من سعادة الحياة الإنسانية العادية أن يكف عن قيادة مصر؟"

وفكر عبد الناصر.. حقيقة إنه حُرم من الكثير، فهو مثلاً لم يعد يستطع التجول براحته في شوارع القاهرة.. أو أن يجلس على مقعد في مكان عام وأن يتحدث مع المارة، وكان هذا فقط ما يتعلق بالجانب الخارجي. ولكن الصحفيين كانوا يهدفون بسؤالهم إلى شئ آخر، وهو ألا يتمنى عبد الناصر الآن وبعد الهزيمة أن لا يكون مصيره قد ارتبط بثورة سنة ١٩٥٢؟.

ـ لا – أجاب عبد الناصر في النهاية أنا لست بنادم على حرماني من متع الحياة الخاصة.

فأنا عندما أتذكر هذه السنوات الخمس عشرة فأعتقد أننا استطعنا في خلالها أن نفعل الكثير... فالثورة أعطت حق العمل للجميع، ازداد دخلنا القومي ٦ مرات. عندنا الآن المدارس والمستشفيات، أطفالنا يستطيعون استكمال تعليمهم وفقًا لقدراتهم وليس بفضل وضع آبائهم في المجتمع.

فابنتي على سبيل المثال لم تستطع الالتحاق بجامعة القاهرة؛ لأن مجموعها يقل درجتين. وابن سائقي تمكن من دخول الجامعة.

بعد الحرب شعر الشعب المصري كما لم يشعر من قبل بقيمة التغيرات التي حدثت في البلد بعد سنوات الثورة. الجماهير الشعبية بدأت تتحرك ونشطت الحياة السياسية.

نجح عبد الناصر بأن يتلمس نبض البلد ومهدت اللقاءات العديدة مع العمال، والفلاحين، وممثلي المثقفين لحدث حاسم. ففي ٣٠ مارس أعلن عبد الناصر بيانه. وطالب في خطابه في ذلك اليوم بتدعيم الاتحاد الاشتراكي كتنظيم سياسي، وكذلك محاربة البيروقراطية، وأكد بشدة على أهمية بناء الاشتراكية في البلاد، وتجنيد كل مصادر الجمهورية العربية لتحقيق هدف واحد ألا وهو تحرير الأرض المحتلة.

وطالب عبد الناصر كل مصري بالعمل بكل قواه لتحقيق النصر، فقال:

"لعبد الناصر عينان فقط، ولديه ٢٤ ساعة في اليوم فقط ... و نحن في مصر ٣٠ مليون... لكل واحد عينان. كل واحد فينا يرى أننا نستطيع أن نحارب معًا الرجعية، إننا نستطيع أن ننتصر على أي عدو.. إذا ما شعر كل فرد بمسئوليته عن نفسه، وعن بيته، وعن أولاده"

وأضاف قائلًا:

"أنا عاوز أقول الآتي .. إذا كنا بنعيش في دولة تفجرت فيها ثورة.. فيجب علينا إذًا أن نقف ضد أعداء الثورة. من هم أعداء الثورة؟ أعداء الثورة هم تحالف الإقطاعيين والرأسماليين، تحالف الإمبريالية والرجعية".

"الخطوة الأولى التي يجب علينا اتخاذها هي إعادة إنشاء القوات المسلحة. دعم الاقتصاد. إن قناة السويس مغلقة، فيجب علينا أن نحصل على أموال من مصادر أخرى تعوض الأموال التي كنا نحصل عليها من تشغيلها ، زيادة طاقة الصناعة الثقيلة والتي أُنشئت بالدم في السنوات الماضية للمعركة.

المال – هو عصب الحرب، كيف سنحارب إذن ولم ندعم اقتصاديا؟".

وعاد عبد الناصر وشرح ما هي الثورة بقوله:

"الثورة هي اختيار الطريق الصعب.. إننا لم نختر الطرق السهلة.. إذا ما جاء اليوم الذي نختار فيه الطرق السهلة.. ففيه نكف على أن نكون ثوارًا.

الطريق السهل يعني رفض كل الخطط الجديدة، الرغبة في الحياة كما نعيش اليوم. الذي يجد عملًا يعمل والذي لا يجده لا يعمل ، كل فرد حر.. وكل فرد يلبي حاجته. هذا هو الطريق السهل.

أمَا الطريق الصعب فهو صعب؛ لأنه يحتم التغيير تغير المجتمع، وخلق المساواة القائمة على أساس من الكرامة، والحرية، والاشتراكية".

أكد البيان على الدور الرئيسي للعمال في مختلف مجالات النشاط، وعلى أهمية النقابات. وأشارت أيضًا هذه الوثيقة إلى أهمية تدعيم وحدة الشعب والجيش. وجاء فيها أيضًا أنه من الضروري إعداد دستور جديد يتمشى ومستوى التطور في البلد.

بهذا يكون البيان قد أكد على الأفكار التي سبق واتخذت قبل الحرب في ميثاق العمل الوطني. وفي نفس الوقت فإنهما يكونان الآن قد ارتبطا ارتباطًا وثيقًا بالواجبات العصرية والمحددة التي تواجه الجمهورية العربية المتحدة.

فنجد على سبيل المثال أن البيان حدد المفهوم القاطع للوحدة الوطنية. وقد تفجر نقاش واسع حول هذا المصطلح، خاصة بعد أحداث هزيمة سنة ١٩٦٧ فطالب البعض بعودة أصحاب الملكيات المؤممة السابقين كي تتحقق الوحدة الوطنية. وكشف عبد الناصر على الفور الجوهر الطبقي لهؤلاء الذين نادوا بمثل هذه الشعارات، وهي طلبات كان مصدرها أساسًا الرجعيين، منطلقين من موقف الاستغلال. فتحدث البيان مباشرة عن أن الدور القيادي في "الوحدة الوطنية" يجب أن يكون لطبقة العمال و يجسدها من خلال التنظيم السياسي... الاتحاد الاشتراكي.

أجري في ٢ مايو استفتاء عام حول ما أكد عليه البيان. وعلى أثره أجريت انتخابات المؤتمر القومي للاتحاد الاشتراكي العربي، الذي بدأ نشاطه في ٢٣ يوليو. وكان روح كل هذه الأحداث هو ناصر.

شعر عبد الناصر بالتعب في صيف سنة ١٩٦٨. أكد الأطباء أن مرض السكر ازداد عليه. ووفقًا لنصائح الأطباء المعالجين سافر عبد الناصر للعلاج في الاتحاد السوفيتي. وقد أدهش الأطباء المعالجين بقوة إرادته وبنظامه، ففي نفس اللحظة التي منعه الأطباء فيها من التدخين، أخرج من جيبه السجائر والولاعة وأهداهما للمترجم. ولم يستطع عبد الناصر البعد عن الوطن لأكثر من شهر، ورغم إرشادات الأطباء بالاستمرار في العلاج.. عاد فالوطن كان يتطلب تواجده هو شخصيًا.

مع بداية سبتمبر سنة ١٩٦٨ بدأت المدفعية المصرية في الرد على اعتداءات العدو بالقصف على مواقع القوات الإسرائيلية على القناة. فدمرت بشدة المنشآت الدفاعية للعدو على الضفة الشرقية من قناة السويس، التي أقيمت لتعزيز قوة خط الدفاع "بارليف" وكان ناصر يكرر دائمًا أن الشعب المصري ليس وحده في المعركة، فالاتحاد السوفيتي والبلاد الاشتراكية الأخرى تقف معه وتساعده.

في نفس الوقت كان المحتلون مستمرون في اختبار مدى صبر المصريين. ففي أحد أيام أكتوبر سنة ١٩٦٨ اخترقت المدمرة الإسرائيلية إيلات مياه خليج بورسعيد. وصدر الأمر بفتح النيران من أحد الزوارق الصاروخية المصرية. وعلى أثر أول صاروخ تهاوت المدمرة إيلات.

من هنا بدأت إسرائيل في قصف المدن الواقعة على امتداد القناة. واشتعلت النيران في مصنع تكرير البترول في السويس. فكان أمر عبد الناصر بإخلاء وتهجير السكان المدنيين من المنطقة إلى عمق ج.ع.م.

وكان إغراق إيلات يعتبر أول نصر مصري بعد حرب يونيو سنة ١٩٦٧. زد على ذلك أثبت فعالية وكفاءة السلاح السوفيتي.

غير أنه في نوفمبر سنة ١٩٦٨ بدأت حالة تذمر بين الطلبة، وهي كما وضح كانت بإيعاز من الرجعية (*).

وقد وصف عبد الناصر في خطابه أمام المؤتمر القومي للاتحاد الاشتراكي العربي تلك المظاهرات بأنها "غير مسئولة، وضد الثورة" وطالب الطلبة بتقوية وتعزيز الوحدة الوطنية، وحذرهم من أن الحكومة لن تتحمل أي محاولة للإخلال بالأمن.

(*) هذا رأي الكاتب، وإن كنا نختلف معه، فمظاهرات ١٩٦٨ تفجَّرت إحتجاجاً على أحكام الطيران، وكان بيان ٣٠ مارس إستجابة لمطالب الجماهير فيها.

وعـاد عبد الناصر بعد إلقاء خطابه إلى منزله. فشـعر بتعب شـديد، وبعد ارتـداء البيجامـا، جلـس على حافـة السـرير، ووضع قدميـه في إناء ملـئ بالماء الساخن "طريقة قديمة لعلاج كل داء" يعرفه جيدًا فلاحو بني مر. وأدار الراديو الترانزسـتور. فهـو يعرف تمامًا متى وأين الموجـات التي يجب تغييرهـا للوصول لمحطـات أخرى. ومن الواحدة تلو الأخرى كان المذيعون يقرأون ملخصًا للأنباء: باريس، لندن، موسـكو، بيروت، القاهرة. يقدمون عرضًا للحفل الذي عاد هو منـه في التو. وفي الحجـرة تعالت أصوات وزفـير آلاف الجماهير "بالـروح، بالدم، نفديك يا جمال!".

وحتى في هذه السـاعات المتأخرة عندما ينام جميع من في البيت، باستثناء ابنتـه هـدى، يظل ناصر يعمـل. وهدى لا تخلـد للنوم طوال سـهر والدها، فهي جالسـة بجواره وبيدها ورقة وقلمًا... منتظرة سماع ندائه لها، طالبًا منها تدوين شيئًا ما.

في بعـض الأحيـان كان ناصـر لا يقـوم بعمل شـئ في المنزل مسـاءًا من كثرة الإرهاق. وكانت الذكريات كحمل ثقيل.

حـزن عبد الناصر بعد وفاة عامر، فقد كانـت تربط بينهما صداقة قوية، وقد كان شخصًا يمكن الاعتماد عليه وتنظر إليه الملايين بحب وأمل.

"أيهـا المواطنـون! إنـذار! خـذوا أماكنكـم في المخابئ وانتظـروا الأوامر التالية!".

ترددت هذه الكلمات في مكبرات الصوت، وأصبحت مألوفة للأشـخاص الذين ظلوا يعيشون في المدن الواقعة في منطقة القناة، بورسعيد، وبور توفيق، وبور فؤاد، والإسماعيلية، والقنطرة، كانت جميعها معرضة وبانتظام لقصف المدفعيـة والقصف الجـوي، فظهرت ثغرات سـوداء في حوائط المنـازل، وتناثرت أشـلاء المباني تحت الأقدام، واصفر الهواء في الكنائس التي مالت الصلبان على جوانبهـا، وفي المسـاجد التي انهارت قبابها، واحترقت شـجيرات المانجو والبرتقال، وتناثرت على الأرض بقايا شظايا القذائف.

وما أن يعلن الإنذار حتى يتصل ضابط الاتصال المقيم في إحدى المناطق القريبة من الضرب بالقاهرة. مبلغًا سير عمليات القصف التي يقوم بها المصريون ضد الإسرائيليين، وهي بدورها تبلغ فورًا بتليفون خاص ومباشر لعبد الناصر. وعادة ما كان يقطع كل الأعمال ويدرس باهتمام هذه النشرات. فتلك العمليات كانت تجعل العدو في حالة قلق دائم، وتجعل الجيش المصري أيضًا في حالة استعداد للحرب. وكان عبد الناصر مدركًا أن الجيش ما زال في حاجة إلى مزيد من الوقت والجهد ليصبح في وضع يمكنه من القيام بمهمة أكبر تعقيدًا.

وكان قرار مجلس الأمن في ٢٢ فبراير ١٩٦٧ يعد الأساس للحل السياسي لأزمة الشرق الأوسط، والذي أشير فيه إلى حتمية انسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي العربية المحتلة. وصوت على هذا القرار كل من الاتحاد السوفيتي، وحكومات أوروبا الشرقية، وأغلبية الدول النامية... ومنذ هذا الوقت وناصر كان يؤيد أية محاولة تخدم تطبيق هذا القرار وسريان مفعوله.

وطلب أوثانت سكرتير الأمم المتحدة من الدبلوماسي السويدي يارنج أن يكون مندوبه الخاص في الشرق الأوسط. وسافر يارنج فورًا إلى المنطقة، وبدأ يجري اتصالات مع الحكومات العربية وإسرائيل. ولكن إسرائيل رفضت الاعتراف بقرار مجلس الأمن.

واستنادًا على تأييد أمريكا قام الحكام الإسرائيليين بعمل كل شئ من أجل تعطيل وإفشال مهمة يارنج. فأولًا رفضت إسرائيل الانسحاب من الأراضي العربية، وطالبت بالمفاوضات المباشرة مع الدول العربية، حتى تكون ظروف احتلال جزء من أراضيها عامل ضغط وانتقاص من استقلالها.

عقد عبد الناصر منذ البداية على الحرب الدبلوماسية آمالًا كبيرة.

وفي سنة ١٩٦٩ وقع حادثان غيرا تغييرًا عميقًا موقف الجمهورية العربية المتحدة.

ففي مايو سنة ١٩٦٩ وصل إلى الحكم في السودان إثر انقلاب عسكري، سياسيون استطاع عبد الناصر أن يقيم معهم علاقات قوية .

ووقعت في سبتمبر ثورة في ليبيا. كان قائدها القذافي الذي عرف في القاهرة بأنه أثناء الاعتداء الإسرائيلي في سنة ١٩٦٧ على مصر، حاول أن يجتاز بفرقته الحدود الليبية هادفًا مقاتلة المعتدين. وأصبح الآن على كل من الأمريكيين والإنجليز تصفية قواعدهم العسكرية في ليبيا فورًا. تلك القواعد التي تمثل تهديدًا لأمن الجمهورية العربية. وسافر عبد الناصر لليبيا لحضور الاحتفالات بمناسبة الجلاء عن القاعدة الجوية الأمريكية العسكرية، واستقبلته الجماهير الليبية المبتهجة استقبالًا حافلًا.

بينما كانت الأمور الداخلية قد بدأت في التحسن، فهاهو عبد الناصر يعلن في يوليو أنه ولأول مرة بعد ثلاثين عامًا يحدث توازن في ميزان التجارة الخارجية. وأن ثلثي صادرات مصر تصدر إلى الدول الاشتراكية.

في سنة ١٩٧٠ كان يجب البدء في تشغيل السد العالي بمساعدة الاتحاد السوفيتي. واستمر ناصر في ضربه لأصحاب المشاريع الخاصة. واقترح منح ٧٠٠ ألف فدان من الأراضي المستصلحة نتيجة لبناء سد أسوان إلى التعاونيات الحكومية.

وفي سبتمبر سنة ١٩٦٩ أصيب عبد الناصر بجلطة. وعاش في إحدى الفيلات وسط حدائق القناطر الخيرية، على بعد عدة كيلومترات من القاهرة.

وكان الجميع لا يعلم مدى خطورة حالة عبد الناصر، إلا أن الرئيس كان دائمًا محيطًا بكل الأمور.

في هذه الأيام كانت قوات الصاعقة قد بدأت بعمليات فدائية في الأراضي المحتلة. كذلك الطيارون المصريون بدأو بطلعاتهم القتالية.

وكان مجلس الوزراء يجتمع يوم الأحد من كل أسبوع. وفي يوم السبت

يجتمع أربعة أو خمسة وزراء لبحث المشاكل الاقتصادية، ولم يصبر عبد الناصر على هذا الوضع، وانتقل للعمل بالقاهرة.

أراد الإسرائيليون الإيهام بأنهم لا ينوون الانسحاب من القدس، ولا من مرتفعات الجولان، ولا من بعض المناطق في الضفة الغربية لنهر الأردن، ولا شرم الشيخ، ولا من ممرات سيناء التي تؤدي إلى شاطئ خليج العقبة الغربي، ثم فيما بعد أعلنوا أنهم سيبقون أيضًا في غزة.

وأعلنت إسرائيل أنها ستدافع عن هذه الإدعاءات بالقوة.

وفي صباح أحد أيام شهر يناير الباردة، مرقت طائرة ميراج إسرائيلية فكادت تلمس أسطح منازل ضواحي القاهرة بسرعة مذهلة. موزعة الانفجارات المكثفة الرهيبة.

وبدأت الغارات الإسرائيلية في عمق الجمهورية العربية المتحدة. فالصقور الإسرائيلية كانت تقوم كل ثلاثة أو أربعة أيام بطلعات هجومية، فأسقطوا القنابل على ضواحي العاصمة المعادي، وحلوان، وأنزلت بعض قوات المظلات على ضفة البحر الأحمر، و نجع حمادي.

وفي الصباح الباكر ليوم من أيام مارس، في مصنع الحديد والصلب بأبي زعبل، في وقت استلام عمال الصباح لعملهم، أغارت الطائرات الميراج الإسرائيلية وقصفته بالقنابل.

ولم يهتز المصريون، بل زاد معدل الإنتاج في مصانع البلاد، وأعلن عبد الناصر أمام العالم كله أن إسرائيل ليست المسئولة الوحيدة عن هذا الاعتداء، بل أيضًا الدول الاستعمارية التي تمدها بالطائرات المغيرة.

واستمرت إسرائيل في اعتداءاتها، واختارت في هذه المرة هدفًا لصواريخها مدرسة أطفال إبتدائية في قرية بحر البقر، لا يوجد حولها مثل أبو زعبل أية أهداف عسكرية.

وأدرك عبد الناصر أنه يجب بدون تباطؤ القضاء على هذه الهجمات. فسافر إلى الاتحاد السوفيتي. وسرعان ما بدأ تفريغ شحنات الأسلحة السوفيتية الجديدة بميناء الإسكندرية، تلك الأسلحة التي كانت ضرورية للدفاع عن الوطن.

وذهبت جميع المحاولات لحل مشكلة الشرق الأوسط على أساس من قرار مجلس الأمن بدون جدوى بسبب رفض إسرائيل القاطع والمستمر له.

فلم تعط رحلات يارنج العديدة أي تأثير إيجابي. كما لم يعط اجتماع القمة الرباعي بين الاتحاد السوفيتي، وأمريكا، وإنجلترا، وفرنسا أية نتائج مثمرة، وكذا كان الحال بين ممثلي القمة الثنائية بين أمريكا وروسيا.

وكان للنجاح في صد العديد من الغارات الإسرائيلية باستخدام محطات الصواريخ أثر أكيد... وأدرك عبد الناصر أن الحرب الجديدة ستكبد البلاد خسائر جسيمة، ولهذا لم يرغب في أن يفوت أية إمكانية ولو ضئيلة لحل النزاع سلميًا.

وفي أول مايو في أرض شبرا الخيمة حيث كان العمال في الثلاثينات ينظمون الاحتفال بأول مايو، أقيم سرادق ضخم ضم مئات الآلاف من العمال استمعوا لخطاب الرئيس في احتفال أول مايو. حمل عبد الناصر أمريكا مسئولية مساعدة المعتدين. وتمشيًا مع سياستها المشكوك فيها في الشرق الأوسط، تقدمت أمريكا في ٥ يونيه بما يسمى مبادرة روجرز، وفيها اقترح وقف الأعمال العسكرية في خلال ٩٠ يومًا، وبواسطة الأمم المتحدة تبدأ محادثات لانسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي المحتلة، وكذلك إتمام معاهدة سلام على أساسها تعترف الدول العربية بإسرائيل وحل مشكلة فلسطين. ولكن لم تذكر المبادرة شيئًا عن الحدود المستقبلية فهي ببساطة تخطيط مبهم، أثار الشك والنقد منذ اللحظة الأولى. ولكن قرر عبد الناصر أنه بالرغم من كونها محاولة أمريكية، إلا أنه سيقع على عاتقها تنفيذها. وقرر الموافقة على مبادرة روجرز لكي يثبت مرة أخرى نيته - كرئيس مصر - في السلام.

وأصبح على عبد الناصر أن يفصح عن مراميه للمصريين. ولكن كيف يكون ذلك؟

ففي الاحتفالات التي أقيمت بمناسبة الذكرى الثامنة عشرة للثورة المصرية، قال عبد الناصر: "نحن نريد السلام، ولكن السلام بعيد. إننا لا نريد الحرب، وإن كانت الحرب من حولنا. فأمامنا إذًا أن نزيل العقبات مهما كانت. إن الدفاع العادل عن حقنا لا يمكن تحقيقه إلا فقط عن طريق انسحاب قوات العدو من كل شبر من الأرض العربية التي احتلت في سنة ١٩٦٧، وانسحابه من القدس، ومرتفعات الجولان السورية، ومن الضفة الغربية لنهر الأردن ومن غزة وسيناء. إن العدل لا يمكن أن يستتب بدون حقوق الشعب الفلسطيني".

وجرت داخل مصر لعدة أيام مناقشات جادة حول مبادرة روجرز.

وفي جلسة مغلقة للجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي العربي أعلن عبد الناصر أنه من الحتمي الموافقة على وقف إطلاق النار. وبدأ حوار عاصف. غمره الأعضاء باستفساراتهم، وعلى مدى ثلاثة أيام أجاب عبد الناصر بصبر على تلك الأسئلة، وفي النهاية ومن قاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة، أعلن للشعب عن قراره وبتصديق من اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي العربي.

واعتبر عبد الناصر الموافقة على مبادرة روجرز ضرورة حتمية لالتقاط الأنفاس. فهو الذي حذر أكثر من مرة الزعماء العرب بأن لا يعلقوا كثيرًا من الآمال على أمريكا.

في بداية أغسطس ١٩٧٠ سكتت المدافع على ضفتي القناة. وبدأ يارنج جولة مباحثات جديدة. وفي ٦ سبتمبر عرقل المسئولون الإسرائيليون سير المباحثات بحجة زعمهم أن المصريين اخترقوا وقف إطلاق النار، بنقلهم صواريخ جديدة (بعد سريان الموافقة على وقف إطلاق النار لم يكن من حق كل من مصر وإسرائيل نقل معدات عسكرية لمدى منطقة طولها ٤٠ كيلومترًا على جانبي القناة).

وعلى الرغم من كون المصريين قد نقلوا هذه الصواريخ قبل سريان وقف إطلاق النار، بدأت إسرائيل في إعادة تحصين خط برليف على الضفة الشرقية لقناة السويس. وبذا لم تخرج مبادرة روجرز إلى حيز التنفيذ.

وكان عبد الناصر يدرك أن الموافقة على المحاولة الأمريكية يمكنها أن تحدث انشقاقًا في العالم العربي، إلا أنه رأى أنه لا يجب أن يؤثر هذا على الخط السياسي المستقل الذي اختارته مصر. وظل لإسم عبد الناصر شعبيته الواسعة وسط الجماهير.

انفجر النزاع المسلح في عمان عاصمة الأردن بين الثوار الفلسطينيين والجيش الأردني. وتمكن رؤساء بعض الدول العربية ومن بينهم عبد الناصر من مساعدة كل من الملك حسين والفلسطينيين للوصول إلى اتفاقية، ولكن الموقف في عاصمة الأردن بقي متأزمًا وخطيرًا.

نظم اتحاد الطلبة الفلسطينيين في بداية سبتمبر ندوة عالمية في عمان حول المشكلة الفلسطينية. فحضرها بجانب الشخصيات الاجتماعية المعروفة بعض الوجوه تحت إسم مساعدة الفلسطينيين بجوازات سفر بلجيكية، وفرنسية، وأمريكية على أنهم "أصدقاء العرب" أثاروا الشك، فهم في حقيقة الأمر كانوا يهدفون إلى تمزيق الحركة الفلسطينية، وجعل القيادات الفلسطينية تأخذ مواقف عدائية تجاه الجمهورية العربية المتحدة.

فوجّهوا العديد من الهجمات لشخص عبد الناصر والسلطة الأردنية.

وظهرت شوارع عمان في هذه الأيام وكأنها حقيقة مقسمة بين الجنود الأردنيين والفدائيين. وكانت تسمع ليلًا أصوات الإنفجارات الشديدة، فكل فريق منهما يستعرض قوته.

وفي ٦ سبتمبر وهو آخر يوم لأعمال المؤتمر، أذيع خبر حول استيلاء الفلسطينيين على طائرات الركاب الواحدة بعد الأخرى. وازداد الأمر تعقيدًا عندما أجبرت إحدى الطائرات التابعة للشركة الأمريكية "بان أمريكان" على الاتجاه إلى القاهرة.

كان المتشددون يريدون إحراج مصر، ووضعها في موقف صعب، وكذا تعميق النزاع بين الفدائيين والمسئولين في الأردن.

وشجبت مصر وبعض الحكومات العربية الأخرى عمليات التخريب والهجوم على الطيران الدولي. ولعب البلوماسيون المصريون دورًا هامًا في إطلاق سراح الرهائن.

بينما بدأت في الأردن جولة دموية جديدة بين الفدائيين والنظام الأردني.

وكانت كل هذه الأحداث. أينما وقعت، سواء كانت على متن طائرة إسرائيلية في أحد مطارات لندن، أم في شوارع عمان، فهذه أو غيرها كان المقصود بها عبد الناصر.

ثم وَقَّعَ الملك حسين والفدائيون على معاهدة. إلا أنه وبعد عدة ساعات اشتعل القتال بينهما مرة أخرى.

كان من الممكن أن تؤدي الحرب الأهلية في الأردن إلى تدخل أمريكا أو إسرائيل. وهو ما بُحِث فعلاً، إذ نوقشت مسألة التدخل في ٢١ سبتمبر في واشنطن.

وأرسل عبد الناصر برسالة إلى برجنيف زعيم الحزب الشيوعي السوفيتي. وقد عاود الاتحاد السوفيتي إعلان بيان له حذر فيه الدول الإمبريالية من التدخل.

في نفس الوقت كان يجب أن يبدأ مؤتمر لرؤساء الدول العربية، وفي أثناء دخول الملوك والرؤساء إلى القاهرة كانت المدفعية الأردنية مستمرة في ضرب القواعد الفلسطينية، ومعسكرات اللاجئين في عمان.

ووصل عدد القتلى وفقًا لتأكيدات الفلسطينيين أنفسهم إلى حوالي ٢٠ ألف شخص.

وفي النهايـة قـرر المشـتركون في المؤتمـر إرسـال لجنة إلى عمـان لكـي يتوقف الجانبين عن إطلاق النار والقتال. وتم في ٢٦ سـبتمبر تم تنفيذ اتفاقية وقـف إطلاق النار. واقترح أن يسـافر كل من الملك حسـين وياسـر عرفات إلى القاهرة.

وكانـت القوات الأردنية تحاصر قوات الفدائيين، ولهذا كان على ياسـر عرفـات أن يرتدي زيًـا بدويًا ليتمكن من اللحاق بالطائرة، وسـرعان ما وصل الخصمان المتنافسان إلى فندق "هيلتون". وكان الإثنان مسلحين.

ووصلـت درجة العلاقـات بينهما أنهمـا لم يتبادلا الحديـث. ولكن ناصر أشهر من جانبه سلاحًا آخر وهو الحجة والمنطق.

وأكد الملك حسين أنه في استطاعته الإجهاز ببساطة على الفلسطينيين، أجابه عبد الناصر: حسـنًا. ولو سـلمنا بأنه باسـتطاعتك ذلك لكن في بلدك قتل ٢٣ ألف فلسطيني. وبعد انتهاء الحرب الأهلية، فإن شبح هذه الحرب سيلقي بظله على إدارتك لحكم المملكة. كتب ذلك حسـنين هيكل الذي كان حاضرًا المحادثات.

وقـال للفلسـطينيين في نفـس الوقت: هـل تعتقدون أنـه في مقدوركم الوقـوف ضـد جيش حديـث؟ لا داعي للمغـالاة في قوتكم. حاولـوا إيجاد حل يسمح لكم بالعيش والاستمرار في المعركة ضد الإسرائيليين المحتلين.

ولكن الملك حسـين وياسر عرفات لم يسـرعا بالتصافي. فقد قال عرفات: "بحر الدم يفصل بيننا". كما اتهم آنذاك الملك حسين الفلسطينيين بالخيانة.

واضطر عبد الناصر لاسـتخدام كل نفوذه وهيبتـه حتى يبعد المحادثات عـن نقطة اللاعـودة. وكان يظهر عليـه التعب. فقد أعيته المناقشـات التي لا تنتهي. وانتابه إرهاق عصبي.

- "نحن في سباق مع الموت. فهناك يموت الرجال، والنساء، والأطفال".

أجاب بذلك عبد الناصر عندما طلب منه زملاؤه الخلود للراحة.

وفي ٢٧ سبتمبر عقدت الجلسة الختامية للمؤتمر. جلس الملك حسين وبعض ضباطه في ناحية، وعرفات في ناحية أخرى. فالاثنان تحكما في نفسيهما بصعوبة، ولم تفارقهما المسدسات.

"كتب هيكل في مذكراته" اقترحت على الملك فيصل مازحًا "أن يقوم بعملية نزع سلاح الإثنين" فكان رد الملك فيصل عليه أن من يستطيع أن يفعل ذلك هو جمال عبد الناصر، ولا أحد غيره".

وبعد ساعتين من المناقشات.. وعندما أصبح هناك احتمال لإعداد بنود الاتفاقية. عاد عبد الناصر إلى حجرته في الطابق الحادي عشر. وخلد للنوم.

وبعد ساعتين عاد عبد الناصر يقود المباحثات. وفي هذه الأوقات وصل خبر عاجل يفيد أن الجيش الأردني استأنف هجومه على الفدائيين مستهدفًا إخراجهم تمامًا من عمان، وأرسل عبد الناصر في طلب ياسر عرفات، وفي النهاية انتهى المؤتمر من أعماله على أثر توقيع الاتفاقية، وبعدها شعر عبد الناصر بمدى التعب الذي عاناه.

في هذه الليلة نام عبد الناصر نومًا هادئًا. وفي الصباح فحصه طبيبه الخاص الصاوي محمود حبيب. كان النبض طبيعيًا. وعاود عبد الناصر بعد الغذاء الشكوى من الإرهاق. ونصحه الدكبور الصاوي بالراحة للعلاج، ولكن عبد الناصر لم يوافق. لأنه أراد أن يكون في وداع آخر ضيف له وهو أمير الكويت الشيخ صباح سالم الصباح.

واقترب الوقت من الثالثة. وفي صالون مطار القاهرة الدولي جلس كل من نائب رئيس الجمهورية العربية المتحدة أنور السادات، وحسين الشافعي، وأمير الكويت، ووزير الدفاع والداخلية الكويتي سعد آل عبد الله.

وفقط في الثالثة وصل عبد الناصر. سار ببطء في لقائه بأمير الكويت.

وكانت تظهر على وجهه علامات التعب. سلم كل منهما على الآخر وجلسا.

ـ هل هناك أية أنباء جديدة؟ سأل امير الكويت عبد الناصر باهتمام لعل ذلك هو سبب قلق واضطراب عبد الناصر.

ـ لا ـ لا ـ لا شئ. أجابه عبد الناصر.

ـ هل هناك أخبار من عمان.

ـ حتى الآن لا شئ.

استمر عبد الناصر في إدارة الحوار متغلبًا بكل إرادته على الإرهاق الذي أثقل عليه.

وعندما اتجه إلى الطائرة كان بالكاد يحرك قدميه. وما كاد الضيف يصعد إلى الطائرة، حتى طلب عبد الناصر أن تحضر إليه السيارة. وانطلق إلى البيت. وساعده الدكتور – الذي استُدعي بالتليفون – في ارتداء البيجاما. واشتكى عبد الناصر من دوار شديد. وجلست زوجته وأولاده في الحجرة المجاورة، ولكن في هذه المرة لم يستطع أن يدخل إليها.

ـ انحنى عليه الدكتور لكي يسمع ضربات قلبه..."فجأة وفي فزع.. رجعت إلى الوراء.." متذكرًا الموقف الدكتور الصاوي.

وفي الحال اجتمع كونسولتو من أفضل الأطباء المتخصصين. وفي أثرهم وصل زملاء عبد الناصر.

انتهى...

هذا لا يمكن أن يحدث...شهق واحد...وبكى الدكتور.

وفي مساء ٢٧ سبتمبر أعلن نائب رئيس الجمهورية بيانًا في الراديو عن وفاة ابن شعب مصر العظيم جمال عبد الناصر.

وما أن عُرف خبر وفاة ناصر، حتى توافدت جماعة المصريين من أقصى الجمهورية إلى القاهرة. جاءوا في العربات، فوق عربات القطار، جاءوا سيرًا على الأقدام.. وبدا المنظر وكأن سكان مصر قد انتقلوا إلى القاهرة. ونام الناس في مداخل المنازل، وعلى أرض المساجد، وعلى الأرصفة.

وتوافدت وفود الدول الصديقة إلى القاهرة. وأعلن المكتب السياسي للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي أن الاتحاد السوفيتي سيستمر في الوقوف بجانب مصر في كفاحها ضد الإمبريالية، وزار الزعماء السوفيت في موسكو سفارة مصر في تلك الأيام. وحضر إلى القاهرة وفد حكومي برئاسة أ.ف.كوسجين.

بعد ثلاث ليالٍ حمل الهليوكوبتر جثمان عبد الناصر في الجو.

الإنسان الذي أعاد لشعب مصر كرامته، ودع القاهرة بنيلها الخالد، وشوارع عاصمتها المكتظة بالجماهير.

وعلى طول امتداد شريط النيل الفضي الممتد وسط الحقول الخضراء التي انتزعت من الصحراء، كانت تمرق عربات السكك الحديدية، حاملة المعدات اللازمة للإنشاءات الجديدة.

وبعد أن حلقت الهليوكوبتر فوق القاهرة عدة مرات، هبطت أمام المبنى الذي كان يشغله مجلس قيادة الثورة في وقت ما.

وضع النعش وبه جثمان عبد الناصر على عربة مدفع... وتحرك الموكب ببطء شديد على كوبري قصر النيل مزينًا بأعلام الحداد.

وتسلق الأطفال أعمدة الكهرباء والتلغراف والأشجار، وفي كل مكان، كان لا يوجد إلا بشر، بشر، بشر.

وصنعت تلك الجماهير حائطًا لم تتمكن من اختراقه كاميرات وأجهزة التلفزيون، ولم تتمكن من القيام بتغطية الحدث الضخم.

فكل فرد كان يطمع في الوصول إلى عربة المدفع، ولمس النعش. وكثيرًا ما كان الزحام يعوق طريق الموكب.

وبجوار جامع أبيض في هليوبليس - وقف الموكب أمام المدخل.

وكَوَّنَ الحرس - من طوال القامة في زي رسمي - ممرًا وحمل من خلاله نعش عبد الناصر. ورفع شيخ الأزهر يديه إلى أذنيه واتجه جهة السماء مؤديًا الصلاة.

وعَمت البلاد كلها كلمات الصلاة الحزينة، ثم دوت طلقات المدافع. ووضع زملاء عبد الناصر جثمانه في القبر.

وأوقف التلفزيون إذاعة برامجه العادية، وغادر القاهرة أعضاء الوفود الأجنبية الذين حضروا تشييع الجنازة، ولكن وبعد مرور عدة أيام، وفي المساء وأمام مسجد عبد الناصر، وقف آلاف المصريين، كما لو أنهم يأملون في معجزة. وظلت لأربعين يومًا أعلام الحداد تعلو شوارع القاهرة.

في جريدة الأهرام، دار حوار بيني وبين حاتم صادق، زوج إبنة الرئيس ناصر. وقد ترامت إلينا ضوضاء شوارع القاهرة من نافذة غرفة التحرير، وبدت لنا أوراق الشجر أكثر نضارة بعد مطر منعش.

وكنت منذ فترة أريد معرفة شئ عن أرشيف عبد الناصر. فكان سؤالى لحاتم – ما هو حجم الأرشيف هل هو ضخم؟ ضخم جدًا – أجابني حاتم – إذ يوجد في مكتب الرئيس مجموعة كبيرة من الكتابات، والمسودات، ومجلات، وكتب مدون بها بعض الملاحظات بخطه، فناصر كان محبًا للقراءة. كان مشتركًا في كثير من المجلات، فيها المجلات المتخصصة والتكنيكية، ولكن للأسف لم يُجمع الأرشيف بعد.

ـ هل هذا يعني أنه يمكن العثور في أرشيف عبد الناصر على وثائق غير معروفة؟

ـ لا أظن – واستطرد حاتم قائلًا: لم يخفِ الرئيس شيئًا عن شعبه، فكان يعلن صراحة عن أفكاره ومبادئه. وأحد هذه المبادئ الصداقة مع الاتحاد السوفيتي، والتي قدرها كثيرًا عبد الناصر واعتبرها أساسًا في سياسة مصر.

ـ وهل نتوقع في القريب أن تجمع الأرشيف؟ سألته متعجلًا نافد الصبر؛ لأهميته الحيوية لكل كاتب.

ـ لقد مر وقت قصير جدًا على وفاة عبد الناصر، حتى أننا لم نقرر بعد الاقتراب من أرشيفه.

نعم – لم يمر حقيقة إلا فترة زمنية قليلة...

ولم يهدأ النقاش حوله بعد، بل على العكس، سرعان ما احتدم. ولهذا فإن كتابة تاريخ جمال عبد الناصر عمل صعب وشاق.

مات عبد الناصر كمحارب في موقعه. في لحظة من أدق وأصعب اللحظات في التاريخ. مات في الوقت الذي يستمر فيه العدو في انتهاكه للأرض العربية المحتلة. في الوقت الذي وصل فيه النزاع بين الفدائيين والجيش الأردني إلى أعلى نقطة، كادت أن تقوض المجهودات التي قام بها عبد الناصر، ويصعب كتابة تاريخ عبد الناصر كذلك؛ لأن عبد الناصر حركة دائمة، تتطور باستمرار، لم يعط شيئًا ببساطة .. بدون معارك، إن وجوده ذاته كان منسوجًا بالمعارك.

نشرت جامعة أكسفورد في حياته بيانات إحصائية... استخلصت منها أن جمال عبد الناصر واحد من أكبر ممثلي الحكومات الشعبية في العالم، فكتب عنه ٢٨٧ كتابًا بسبع عشرة لغة حتى سنة ١٩٦٨. وزاد مجموع الكتب عن رئيس ج.م.ع. عدة مرات بعد وفاته. إن كل هذا الاهتمام بشخص عبد الناصر كان يمكن أن لا يفهم. لو أن الأفكار التي قدمها صارت في ذمة الماضي بعد رحيله.

درس الخبراء المتخصصون في الأجهزة الأمريكية عبد الناصر على مر سنوات عديدة. درسوا شخصيته، خطبه، طريقته في الحديث، حتى ثقل خطوته لم تفلت من نظر المتخصصين.

فحصوا بعناية شديدة صوره، أمضوا ساعات طويلة أمام شاشات السينما، آمرين عامل التشغيل بإعادة عرض الفيلم المأخوذ لعبد الناصر لأكثر من مرة. وحاول علماء النفس من على بعد آلاف الأميال، توقع تصرفات عبد الناصر إزاء مواقف بعينها. جربت "مجموعة العمليات" المرة بعد المرة جميع الاحتمالات

المتوقعة لسلوك عبد الناصر. ومرت سنوات عمل متواصلة، وفقًا لتوزيع الجهاز الحكومي في أمريكا، فأنشأ "مركز اللعب" وهدفه الأساسي هو صنع "نموذج" يتصرف كما لو أنه عبد الناصر شخصيًا.

أحضر المركز أعظم الدبلوماسيين، وأقدر الجواسيس في السياسة الدولية؛ لتصب في هذا المركز كل ساعة أحدث الأخبار من الجهاز الحكومي، والمخابرات المركزية الأمريكية، ومن ممثلي أمريكا في الخارج، حيث تسجل على كروت يستخدمها رجال الكمبيوتر، ويأتي دور المتخصصين بالتنبؤ بسلوك كبار الشخصيات العالمية.

وفي دور الزعماء العالميين، يقوم أشخاص معينون بأداء أدوارهم. أدى دور عبد الناصر في هذه "التمثيلية" مايلز كوبلاند. وهو ذو خبرة واسعة، وفخور بعمله كعميل أمضى في الشرق العربي سنوات عديدة. إلا أنه لم يفلح في تقديم شئ لمساعدة الولايات المتحدة في رسم سياسة معقولة للشرق الأوسط.

ظهرت أعمال ليست قليلة في الفترة الأخيرة حاول أصحابها أن يلحقوا تراث ناصر بالإطار الذي صنعه كوبلاند تصور هؤلاء جميعًا ناصر "شخصية قوية" ولكن تصوروها بمفهوم نموذج القوة الغربي. واتسمت محاولاتهم بالتقليل من دور عبد الناصر كبطل قومي. كما أنهم فهموا حرب عبد الناصر المستمرة ضد الإمبريالية على أنها لعبة على التناقضات بين القوتين الأعظم.

حاول الرجعيون كذلك وبكل الوسائل تسخير الناصرية لأهدافهم، فهم يفهمون أن مناصرة الناصرية ما هي إلا تعبير عن وطنية الناس البسطاء.

فبعد حرب سنة ١٩٦٧ اتضح أن المصري المحب لعبد الناصر يحب أيضًا وطنه. فبفضل عبد الناصر اتحدت الشعوب العربية في مصر وسوريا لأول مرة، وشعرت الشعوب العربية بأنها صاحبة الحق في تقرير مصيرها بنفسها.

وعندما علمت مصلحة الاستعلامات في ج.م.ع [٦] أن هذا الكتاب يعد للطبع، تلقيت دعوة لزيارة قرية بني مر.

ـ ... وها نحن قد وصلنا القرية، ودخلنا أحد البيوت العادية المبني من الطوب اللبن.

– هنا في هذا البيت .. عاش والدي الحاج حسين – جد رئيسنا – هكذا قال عطية عم جمال.

بعد الشمس الساطعة لا تعتاد العين النظر مرة واحدة في الظلام. وفي النهاية أصبحت أميز حزم الحطب الكتظة التي جمعها الأهالي للشتاء، وصورة عبد الناصر المقطوعة من الصحف ملصقة على الحائط.

صدر عن الباب الخشبي مرارًا أثناء فتحه أزيزًا... أثناء دخول أهالي القرية لتحية الضيوف، وسرعان ما امتلأ المكان الرحب بأناس كثيرين. وهنا دعاني عطية للصعود إلى سطح المنزل. وبدا عطية في جلبابه الطويل الأزرق ممشوق القامة. كثرت في وجهه التجاعيد، يديه غليظة مشققة، ولكن كم من الهيبة والجمال تجدهما في حركات هذا الفلاح؟...

أفسحت النساء اللاتي على السطح المنبسط والمشتغلات في إعداد الخبز. وذهبن إلى زاوية أخرى بعيدة. وأشار عطية إلى فتاة شابة. وقال تلك أختي وابنة عم جمال عبد الناصر. وتلك جدته، أخت الحاج حسين، والتي عَمَّرت فهي الآن فوق المئة سنة. إنها خبزت العيش الفلاحي لجمال.

حدثنا عطية: إن أول مرة رأينا فيها جمال. كان في الثالثة من عمره. وكنت أنا أكبر بست سنوات فقط. ولهذا عهد إلي الكبار بمراقبة الصغير. و يجب أن أقول، أنه لولا جسامة المسئوليات التي وقعت على عاتق جمال لعاش أكثر من ذلك، إن أسرتنا معروفة بطول العمر.

---

(٦) ج.م.ع جمهورية مصر العربية. هكذا أصبحت تسمى مصر منذ سبتمبر سنة ١٩٧١.

فجد جمال الحاج حسين عاش ١٠٧ عامًا، وتزوج وهو في الخامسة والستين للمرة الثالثة، وآخر أبناءه (طه) ظهر إلى الوجود عندما أكمل الحاج عامه التسعين، كما عاش أخي عبد الناصر طويلًا..

وكانت المرة الثانية التي نرى فيها جمال عندما كان ضابطًا شابًا. ثم سمعنا في يوم أنه منضم إلى هيئة مجلس قيادة الثورة..."هل هذا هو إبننا جمال!" صحت وأنا أستمع إلى آخر الأنباء. ولم يصدق أبناء القرية الأكثر غنى. وقال جار لنا "كيف يمكن أن يظهر من أسرتكم الفقيرة تلك.. مثل هؤلاء؟".

لم نستطع حقيقة أن نفتخر بالغنى. ثلاثة أفدنة، موزعة في أماكن متفرقة...اضطر الحاج حسين إلى تقسيمها بين الأولاد.

وأصبحت لا أملك أرضًا، ولهذا فعندما قامت الثورة كنت أريد أن أسأل جمال عن ما سيكون عليه الأمر في المستقبل. كيف يمكن أن يعيش الإنسان معدمًا. وقابلت ابن أخي مرتين في سنة ١٩٥٣ و ١٩٥٤ عندما حضر إلى بني مر. ولكني أحرجت من سؤاله، خاصة وهو وسط إخوانه الضباط. لم أشأ أن أتحدث أمامهم عن حاجتي. وفهم جمال والجميع.

في إحدى المرات دعا مأمور المركز جمال على الغذاء. وذبح له ذبيحة. وجلسنا نحن ووالدنا في زاوية بعيدة. وهنا وقف جمال وقال بحيث لا يحرج الداعي، ولكي يفهم الجميع "إنكم تعلمون من أنا؟ أنا حفيد الفلاح الحاج حسين" قالها وكان واضحًا في كلماته الفخر.

من النيل حمل لنا النسيم الهادئ رائحة التوابل الحادة. وسريعًا ما أظلمت الدنيا. وأوقد واحد وراء الآخر لمبات النور في القرية، وتسمع رنين أصوات النساء يتصايحن في مكان ما، فتيات حافيات يسقن الجاموس الأحدب في طريقهن إلى البيت، أولاد يمتطون الحمير يحملون في أيديهم الحزم لتوصيل العشاء لآبائهم في الحقول.

موسم الحصاد يسير على قدم وساق. وعطية لا يسرع بالذهاب للحقل. - "هل مطلوب الكثير لفلاحة فدانين - شارحًا بذلك عدم سرعته. فإذا ما كانت القوة موجودة ومتوافرة. فهذا يعني أنني قادر على إصلاح كل شئ. مظهرًا سواعده. لقد علمنا والدي أن طعام الإنسان هو العمل"، ويدرك الجميع في أسرتنا هذا تمامًا. ولهذا فأنا انتظرت طوال حياتي شيئًا واحدًا... الأرض، التي أستطيع أن أضع يدي فيها."

وأشار عطية إلى الحائط، إلى مكان عزيز، حيث علقت صورة جمال.

وانتظرنا وصول الثورة إلى الريف. عقليًا كنا مع جمالنا في أيام العدوان، وتتبعنا بعد ذلك كيف سيبنى سد أسوان. وبدأت التغيرات تحدث عندنا في قريتنا. فوصلت الكهرباء، وظهرت المدارس، والمستشفيات، ومراكز مساعدة الفلاحين المعدمين.

كنا نعلم أنه في قرى اخرى، تؤخذ الأرض من الإقطاعيين، وتوزع على الفلاحين. بينما في قريتنا لم تكن موجودة أساسًا العائلات التي يمكن انتزاع الأرض منها. إذ أنه من حولنا كان الفقر واحدًا، وهذا ما جعلنا بعد الإصلاح لا نحصل على شئ يذكر. فدان واحد قمت باستئجاره من الحكومة، وحصل فرد له صلة قرابة بالعائلة على ما هو أكثر قليلًا. حقيقة أنشأت في القرية التعاونيات الزراعية. ومن خلالها يتم تسويق المنتجات، ومنها يمكن استلام الأدوات الزراعية، وأخذ القروض المالية.

وفي أحد الأيام نصب على حدود القرية عمود علقت عليه يافطة. كتب عليها أنه هنا ستنشأ قرية بني مر النموذجية. وكان كل شئ قد أعد. ودرسه المهندسون حتى أنه حدد مكان فيلا الرئيس، وظل كل من العمود واليافطة في مكانهما على حدود القرية، في وسط الحقل، حيث يرى الآن من حوله شونة القطن. ولم تُبْنَ القرية النموذجية بعد.

قال جمال في البداية يجب أن تبنى في مصر ٥ آلاف قرية نموذجية، ثم يجئ بعد ذلك الدور على قرية بني مر.

تحدث عطية عن هذا الموضوع بشئ من الفخر وأيضًا بشئ من الأسف. جمالنا لم يكن يريد أن يقول البعض أنه ميز قريته ومنحها الأفضلية.

إنني أتذكر الكلمات التي قالها الرئيس للفلاحين أثناء زيارته لأسيوط سنة ١٩٥٦ "لقد جئتكم وليست معي هدايا - بل كل ما عندي هو مسئولية كبيرة - مسئولية أريد أن ألقيها على أكتافكم" أن تبدعوا، أن تحاربوا، أن تبنوا، تلك كانت المسئولية العظيمة التي أوصى بها جمال شعبه.

المراجـــــع

١. "رئيس الجمهورية العربية المتحدة جمال عبد الناصر" البرافدا ١٩٥٨، ٢٤ أبريل.

٢. جمال عبد الناصر (رئيس الجمهورية العربية المتحدة) بيليو جرافيا – "دليل العصر الحديث"، ١٩٥٨ رقم ٢٩ ص٣١.

٣. خطاب جمال عبد الناصر (في احتفال العمال في بورسعيد) "البرافدا"، ١٩٦٤، ٢٠ مايو.

٤. "الابن البار للأمة العربية" (ذكرى جمال عبد الناصر) "البرافدا" ١٩٧٠، ٣٠ سبتمبر.

٥. ي.ياكومف. المقاتل من أجل مصر الجديدة (الذكرى الثالثة لوفاة عبد الناصر) ١٩٧٣، ٢٨ سبتمبر.

٦. جمال عبد الناصر "فلسفة الثورة" القاهرة ١٩٥٥.

٧. جمال عبد الناصر، مجموعة خطب، وكلمات، وتصريحات الرئيس. القاهرة.

٨. أنور السادات، ثورة على النيل. القاهرة.

٩. أنور السادات، يا ولدي هذا عمك جمال. القاهرة.

١٠. أنور السادات، حديث طويل عن الثورة. بيروت.

١١. راشد البراوي، من حلف بغداد إلى الحلف الإسلامي. القاهرة ١٩٦٦.

١٢. رفعت السيد، تاريخ الفكر الاشتراكي في مصر. بيروت ١٩٧٠.

١٣. محمد حسنين هيكل "عبد الناصر والعالم" بيروت ١٩٧٢.

14. Peter Mausfield, Nasser, London 1971.

15. Robert Stephens, Nasserlitical Biography, London 1972.

يعرب الكاتب عن شكره العميق لأسرة جمال عبد الناصر، ووزارة الإعلام المصرية، وللعضو الدائم للجنة مجلس السلام العالمي، والشخصية الاجتماعية المعروفة خالد محي الدين، وكذا اللواء حسن البدري، ويوسف صديق، ولآخرين من الأخوة العرب والسوفيت؛ للمساعدة في إعداد هذا الكتاب.

الذكريات عن الابن العظيم للشعب المصري، وصديق الاتحاد السوفيتي جمال عبد الناصر ترتبط بالسنوات العديدة التي قضاها الكاتب في القاهرة، وهي التي ساعدته في إعداد الكتاب.

تواريخ بارزة في حياة ونضال جمال عبد الناصر

١. ١٥ يناير ١٩١٨ مولد جمال عبد الناصر.

٢. ١٩٣٣ اشترك في مظاهرة الطلبة ضد الإنجليز.

٣. ١٩٣٦ التحق بكلية الحقوق.

٤. ١٧ مارس ١٩٣٧ التحق بالكلية الحربية.

٥. ١٩٣٨ التحق بالخدمة العسكرية ضابطًا في منقباد.

٦. ١٩٤٢ – ١٩٤٤ أنشأ تنظيم الضباط الأحرار.

٧. ١٩٤٤ تزوج من تحية عبد الحميد حازم.

٨. مايو ١٩٤٨ اشترك في حرب فلسطين كضابط في الجيش العامل هناك.

٩. ٢٣ يوليو ١٩٥٢ قيام الثورة.

١٠. ١٩٥٣ إعلان الجمهورية المصرية.

١١. ١٩٥٥ صدر كتاب "فلسفة الثورة".

١٢. ٢٧ سبتمبر ١٩٥٥ إعلان عقد اتفاقية شراء السلاح من تشيكوسلوفاكيا.

١٣. ٢٣ يونيو ١٩٥٦ انتخب رئيسًا للجمهورية.

١٤. ٢٦ يوليو ١٩٥٦ تأميم شركة قناة السويس.

١٥. ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ العدوان الثلاثي.

١٦. ١٩٥٧ صدرت مراسيم تأميم البنوك الإنجليزية، والفرنسية، وشركات التأمين.

١٧. فبراير ١٩٥٨ إعلان قيام الجمهورية العربية المتحدة.

١٨. ١٩٥٨ أول زيارة للاتحاد السوفيتي.

١٩. يوليو ١٩٦١ القرارات الاشتراكية.

٢٠. ١٩٦٢ إعلان الاتحاد الاشتراكي العربي.

٢١. ١٩٦٦ إعلان تشكيل لجنة تصفية الإقطاع.

٢٢. ١٩٦٧ العدوان الإسرائيلي ضد الدول العربية.

٢٣. ١٩٦٧ إصدار قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢.

٢٤. ١٩٦٨ إعلان بيان ٣٠ مارس.

٢٥. ١٩٧٠ جمال عبد الناصر في رحاب اللّه.

إصدارات دار نشر أنباء روسيا متوفرة لدى

مقار المؤسسة المصرية الروسية للثقافة والعلوم	114 شارع جوزيف تيتو برج رقم 2- النزهة الجديدة - القاهرة	01006774027
	مدينة العبور - جمعية أحمد عرابى الزراعية 26/4، 85 ص.ب. 72	8071 & 02-24698170 (+2)
	4 ميدان بن خلدون مدينة الصحفيين العجوزة -الجيزة- بجوار معهد القلب وأمام مستشفى أمبابة العام	33043052 - 33028975 01006157783
المركز الروسى للثقافة والعلوم	27 التحرير، الدقى، القاهرة	0233370577
الهيئة العامة المصرية للكتاب	كورنيش النيل - رملة بولاق - القاهرة	25775000 - 25775109 داخلى 200 - 01007772711 - 01223100145
وكالة الأهرام للتوزيع	مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - القاهرة	27705019 (+202) 25786622 (+202)
شركة المكتبة الأكاديمية	121 ش التحرير - الدقى الجيزة	01125043188 - 01002515013/14 - 33362341/2
مكتبة عمر بوك ستور	15 ش طلعت حرب - أعلى مطعم فلفلة - القاهرة	01003361217 0223960047
مكتبة آفاق للنشر والتوزيع	4 ش محمد مظلوم- تقاطع هدى شعراوى وسط البلد - القاهرة	02 23926114 01003434967
دار الثقافة الجديدة	32 شارع صبرى أبو علم - باب اللوق - القاهرة	23922880
مؤسسة دار التحرير للطبع والنشر شركة التوزيع المتحدة الجمهورية	إدارة التسويق 21 شارع قصر النيل - 3 شارع طلعت حرب - 111 شارع رمسيس	01150575075 3901617 3923749
مؤسسة دار المعارف	27 شارع عبد الخالق ثروت وسط البلد - القاهرة	23936123
	9 شارع كامل صدقى بالفجالة	25905948
مكتبة دار حراء	33 شارع شريف القاهرة	23928963 01010524112
دار البلسم للنشر والتوزيع	128 شارع قصر النيل - الدقى - الجيزة - جمهورية مصر العربية	37627147 (+202)

إصدارات

دار نشر أنباء روسيا

Russia News

www.russiannewsar.com

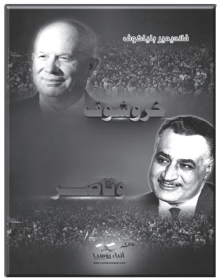

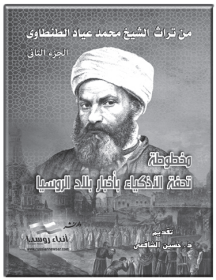

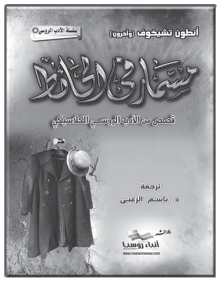

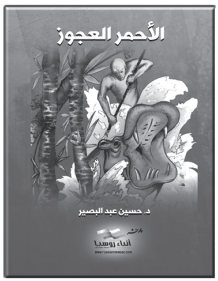

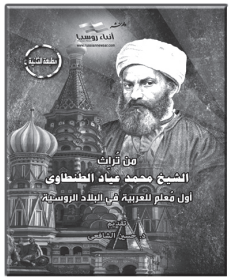

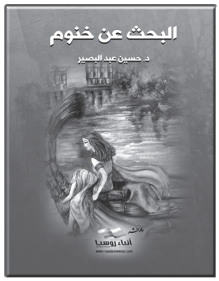

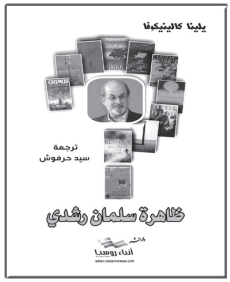

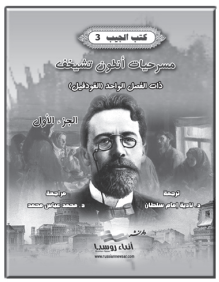

أنباء روسيا
Russia News
www.russiannewsar.com

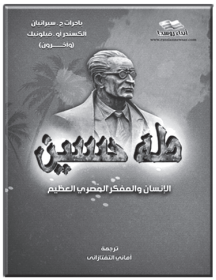

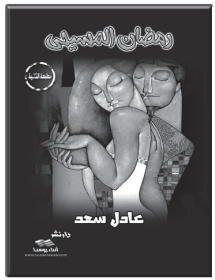

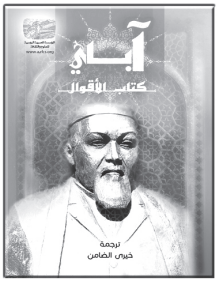

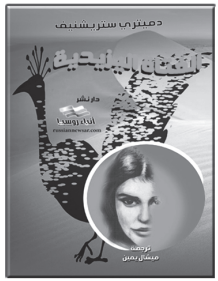

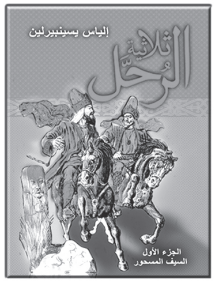

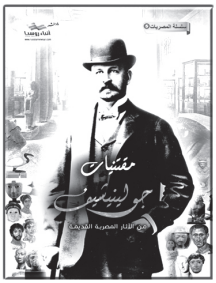

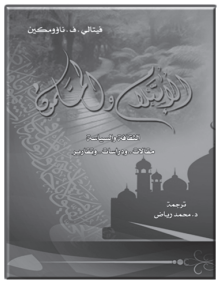

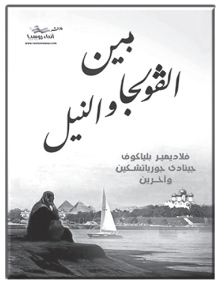

أنباء روسيا
Russia News
www.russiannewsar.com

أنباء روسيا
Russia News
www.russiannewsar.com

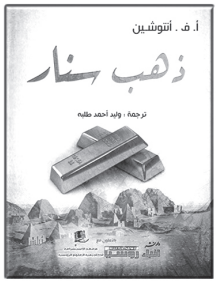

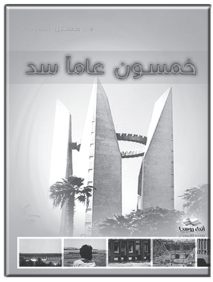

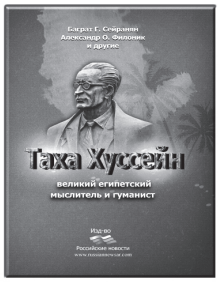

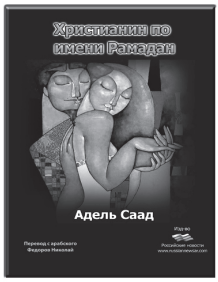

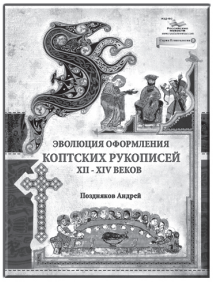

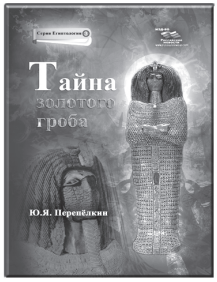

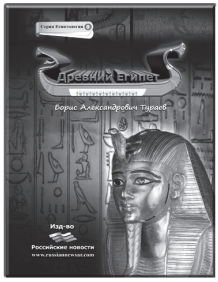

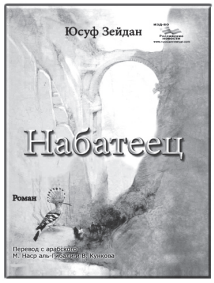

أنباء روسيا
Russia News
www.russiannewsar.com

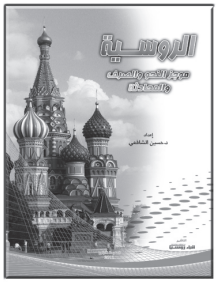

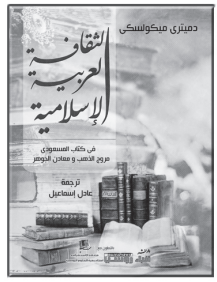

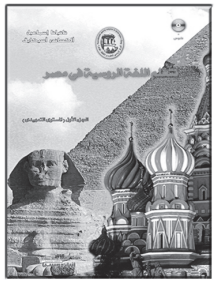

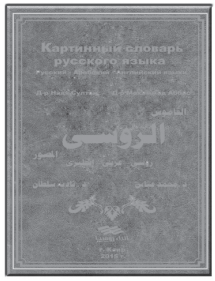

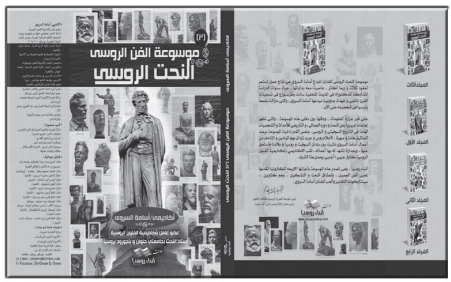

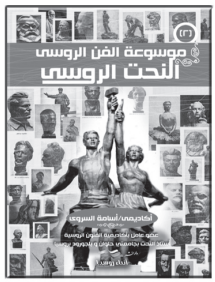

دار نشر

أنباء روسيا
Russia News
russiannewsar.com

www.russiannewsar.com

والمؤسسة المصرية الروسية

للثقافة والعلوم

www.a_rfcs.org

رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير

د. حسين الشافعى